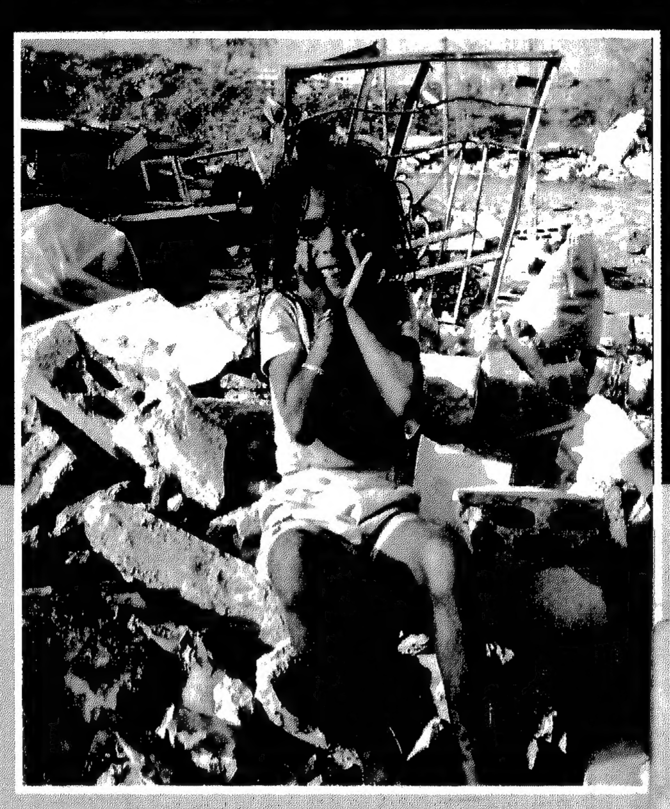
فرونسواز كيستمان

الموت في سبيل فلسطين



ترجمة : عبد الرحيم حزل



أفريقيا الشرق

الموت في سبيل
فلسطين

المؤلف ـ فرونسواز كيستمان
المترجم : عبد الرحيم حزل
عنوان الكتاب
الموت في سبيل فلسطين
رقم الإيداع القانوني 1999 / 146
ردمك 6 - 152 - 25 - 9981
أفريقيا الشرق ـ المغرب
159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف 259504 - 259813 ـ فاكس 440080
أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان
ص. ب. 3176 - 11

فرونسواز كيستمان

الموت في سبيل فلسطين

ترجمة
عبدالرحيم حزل

أفريقيا الشرق

هذه ترجمة كتاب :

Françoise Kesteman

Mourir pour la Palestine

Ed. FAVRE, 1985

كلمة المترجم

عايشت هذا الكتاب طيلة سنتين كاملتين. كنت، خلالهما، أعاقره ساعات وأطلّقه أياماً. فقد كنت أرهن ترجمته ونشره بما يعتمل في الواقع الذي يُفترضُ أنه يحيل إليه إحالة مباشرة، من أحداث ويعرف من تحولات. كنت أهجره كلما لاح (لي!) في الأفق ما يبشر بقرب «حل المشكلة الفلسطينية». حتى إذا تكشف (لي!) ذلك عن سراب كاذب وجدتني أعود إلى ما أنا فيه من ترجمته، متجدد الرغبة في إتمامها وركوبِ مغامرة نشرها على الناس.

فإذا انقضت السنة الأولى، صار هذا الكتاب يكاد يكون عندي مجرداً من واقعه المباشر، وانقلب نظري إليه من كتاب وقائع إلى كتاب حالات، ومن مسرد بأحداث (مروعة بكل المقاييس!) إلى قصيدة تتغنى بالإنسان (الفلسطيني) غناء داخلياً في الحرب كما في السلم. وصار هذا الكتاب عندي حوار امرأة (تعتنق قضية «ليست لها!» وتموت في سبيلها) مع ذاتها في صوت مسموع، لا بل صارخ.

لقد أصبح الكتاب عندي خلفية للنفوذ إلى حياة صاحبته وسبرِ الحيوات (مع خصوصيتها في الزمان والمكان) التي خبرتْها. لا تهم فيه طبيعة التجربة، إلا بما تحبل من زخم، وما تتسم من عمق.

وقد يكون أملى عليَّ هذا النحو في التعامل مع هذا الكتاب ما صارت تكتسيه «التجربة» الفلسطينية في الأذهان من شمول وما أضحت تتصف به من عمومية. فلقد أصبحت فلسطين، نفسها، حالة إنسانية، لا شأن لها بما يحاك حولها من اتفاقات وتسويات. وإن الذين اصطلوا بنار فلسطين قد حملوها في الجسد والروح حالة (كما هي عند فرونسواز كيستمان)، ربما كانت عندهم صنواً لكل مستحيل من قيم الجمال والخير في الزمن الحاضر.

وإن قارئ هذا الكتاب ليجد مؤلفته «متجردة» فيه من ضغوط راهنه الذي يُفترَض أنه يحيل عليه؛ يتجلى ذلك في احتفاء الكاتبة بتصوير حياة الإنسان الفلسطيني في أدق دقائقها، واستغوار عاداته وتقاليده، وطبيعة رؤيته للعالم والأشياء، من خلال ما نسجتْ من أحاديث أبناء فلسطين اللاجئين. وربما وجد القارئ ما ساقت المؤلفة في كتابها من أحداث القصف والتدمير الإسرائيلي «خلفية» لاستكناه طبيعة الفلسطيني في الحرب، كما خبرتْها في الحياة العادية. ولذلك كانت رسائلها تحتفي بالأشخاص أكثر من احتفائها بالأحداث. فالأشخاص حالات وما الأحداث سوى مسارب تنفذ منها الكاتبة كلما أعوزتها الحيلة لبلوغ مرامها من الكتابة؛ المعرفة.

ولعل صورة انتصار القضية الفلسطينية في هذا الذي يحققه هذا الكتاب؛ أعني قذف فلسطين في العالم، بجعلها معيشاً يمكن للكاتب (ولو كان أجنبياً) أن يقبض في أتونه على نبع الحياة الهادئ الذي يسري في جميع مكوِّناته ومكنوناته، فواراً معتملاً كأنه ماء أسطوري.

ولقد جاء هذا الكتاب، من كل ذلك، كما أرادته صاحبته : مذكرات امرأة في العالم! ولا غرو! فلقد صارت فلسطين حالة وجودية عالمية.

عبد الرحيم حُزَلْ

تـقـــديـــم

«كانت اللقالق تحلق في سماء سورية... فتأخذ بنفسي رغبة الكتابة ... وكلما هممت بذلك وجدت ذاكرتي مثقلة جثثاً ... تحت نير الاحتلال الصهيوني. ومثقلة وجوهاً شوهتها الحرائق. فيتراءى لي منير الذي مات، وستي التي ماتت، وحسن الذي قيِّد وضرِب، وعزمي الذي مات، وجلال الذي في السجن، وكل الرجال الآخرين الذين عذِّبوا بالكهرباء. وتلوح لي الرشيدية؛ مدينتنا التي دُكَّتْ. وثكالى صبرا وشاتيلا النائحات».

إنها نظرة ممرضة إلى مأساة لبنان.

«يبدو لي أنني أتجه نحو الموت المحقق. بل إنني لأعلم ذلك علم اليقين. وأطلبه. ولسوف تكون تلك أجمل ميتة، مثلما هي حياتي ها هنا... ولو شاء الله أن يقبضني إليه فسأكون أكثر حياة في هذه اللحظة».

إنها صرخة الثائرة ذات الأربعة والثلاثين ربيعاً، التي استُشهدَتْ في مجموعة فدائيين من المقاومة الفلسطينية، في يوم 23 شتنبر من عام 1984 في صيدا.

وبين هذه الرؤية وهذا العمل التحرري، يتموقع كتاب فرونسواز كيستمان، أو بالأحرى، قصيدة حياتها.

لقد انقشع الكذب وظهرت حقيقة الإرهاب الإسرائيلي. حقيقة عاشتها، يوماً بيوم هذه الفرنسية التي قدِمت تبغي تضميد الجراح، فأدركتْ أنه لن يجديها تضميدها فتيلاً، ما لم تشارك في مقاومة فاعليها.

ومن النشيج إلى الألم المشترك، إلى صيحة الغضب، وضحكة الأمل، تحمل فرونسواز كيستمان في قلبها كل هذه الآلام، وكل هذا الغضب؛ آلام شعب، هو الشعب الفلسطيني، وغضبه وآماله.

إنها تصل بين معركتها وإيمانها.

وإنها لتفصح عن وحدة هذا الإيمان، قائلة : «يقطن مدينة صور مسيحيون ومسلمون. ولقد قُصِفنا، وقتلنا، جميعاً، بنفس الطريقة ... ».

يقف الرجال، والنساء المؤمنون باليهودية، والمسيحية والإسلام سواء. يقف كل المؤمنين بالإنسان والله، يقفون صفاً واحداً في وجه «الوحش الكريه» الذي التهم رب أنبياء بني إسرائيل.

«عندما خرجت منى من المخبإ لكي تهيء الفطور للأطفال، حصدت رأسها الطائرات الإسرائيلية».

فلم يعد في مقدور فرونسواز، حينها، أن تلوذ بصمتها. حتى عندما وضعوا الدبابات فوق كلماتها، مثلما تطوّق الآلاف من دبابات شارون بيروت المجردة من السلاح، لتنفث فيها عساكرها.

وسرعان ما تنقلب الممرضة مقاتلة. ويصبح نثرها شعراً. تغني به فرحها بأن وهبت حياتها وموتها لقضية شعب عادلة.

إن صوتها ليتناهى إلينا من وراء الموت.

صوت يبشر بنهار جديد من نهارات الحياة.

كان **مالرو** قد قال عن رجال يقفون في إسبانيا، في مقدمة الحياة والموت، لخوض معركة أخرى في سبيل الحرية : «إنها اللحظة التي يشرع فيها الموتى في الغناء».

فلننصتْ، من هذا الصوت، إلى آخر رسالة تتحدث فيها الفرنسية الشابة باسم إخوتها الفلسطينيين، مستعملة ضمير الجماعة «نحن» :

«لقد لزم الجزائر، لكي تتحرر، أن تضحي بمليون شهيد. فإذا كان يلزمنا، نحن كذلك، أن نضحي بمليون شهيد، لكي نحصل على حريتنا، فلسوف ندفعهم. لكن لا تنتظروا منا أن نقدم كل هؤلاء القتلى لكي تعترفوا لنا أننا على حق».

روجي كارودي

تــوطــئــة

فرونسواز، كاتبة وثائرة

سيكون لهذا الكتاب وقع الصدمة في نفس القارئ الغربي، رغم أن كاتبته فرنسية. فقد ألغت فرونسواز، في لمح البصر، هي العاملة، والمناضلة، والأم، والصديقة، تلك المسافة التي تفصل بين المهيمِن والمهيمَن عليه. وجمعت، لنا، بين أقاليم المضطهِد والمضطهَد.

وتتقاطع في فرونسواز رموز كثيرة، تقاطعاً إرادياً. فهي فدائية بين الفدائيين، وامرأة بين النساء، وأم بين الأمهات، وعاشقة بين العاشقات. تلك هي فرونسواز. لقد اختارت القتال والموت، وطرحت عنها الخمول والخنوع.

وإن نصوص كيستمان، هذه التي أقدمها، اليوم، استجابةً لرغبتها، لتحتاج مفتاحا يفتحها للقارئ، وجسراً يرأب المسافة بينه وبينها. إنها نصوص من فرونسواز. بل إنها فرونسواز ذاتها. فهي حاضرة في كل موضع منها، لاهثة، أو مضطهَدة، شاهداً ليس لتلهفه شبيه، ولا لظمئه مثيل. لكنها، في نفس الوقت، شاهد متروٍّ، مفرط في ترويه، ومحيط واسع الإحاطة، لا يكاد القارئ يرافقها لحظة، حتى يتلبسه شعور أنه أصبح فلسطينياً، أو أن فرونسواز أصبحت فلسطينية. و إنه لكذلك. وإنها لكذلك.

وسيكون علينا أن نبين، في هذه السطور التقديمية، أن في مقدور المرأة أن تكون فرنسية وفلسطينية. فرنسية بالكامل. وفلسطينية بالكامل. وإن ذلك لهو فحوى خطاب فرونسواز العجيب إلينا.

مـواطنه عالميه

عندما ولِدتْ فرونسواز كيستمان في 2 ماي 1950، في مدينة نيس، لم يكن في مقدور أحد أن يتكهن بأنها ستموت في 23 شتنبر 1984، في مدينة صيدا، (في لبنان). غير

أنها كانت، بحكم أصولها، مواطنة عالمية. وإذا كان البعض ممن ورثوا ميراثاً إنسانياً غنياً جداً، قد طرحوه عن أكتافهم، فإن فرونسواز كيستمان قبلتْ بميراثها كله. ولقد أثمر فيها كل ما ورثت من جدها لأمها، ذي الأصل الروماني، وجدتها لأمها ذات الأصل الإيطالي التي أنجبتْ ثمانية أطفال، وجدَّيْها لأبيها اللذين انخرطا، منذ بواكير شبابهما، في حركة مناهضة الحرب، وكانا متشبعيْن بأفضل ما في الميراث الثوري الفوضوي والنقابي، و أقاربها المناضلين في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، ووالدها هنري، الذي قاوم الاحتلال النازي، وسجِنَ، ثم فر، ليعود لمواصلة المقاومة.

جميعهم شهود رائعون (ولكم يحز في نفسي أني لا أجد المقام، هنا، كافياً للتوسع في حديثي عنهم)، وأصحاب مِهن أكفاء؛ فيهم البستاني، وصانع الأثاث، و مدبرات البيوت والمحاسبات... وإذا كان هذا الميراث الغني الذي ورثتْه كاتبتنا، فاضطلعتْ به أفضل اضطلاع، ونهضت به أفضل نهوض، لا يفسر كل شيء في مسار حياتها، فإنه يساعد على فهم هذا المسار.

وسيكون لنا الكثير مما نقول عن طفولة فرونسواز في ضاحية باريز، وعن دراستها. ذلك أن هذه التجارب مما يصنع هوية كل إنسان. لكننا نقتصر من ذلك، على الإشارة إلى ميل كيستمان إلى الأدب، وموهبتها الترسُّلية المبكرة.

ويومذاك اندلعت أحداث «1968». تلك الموجة التي اعتملتْ، طويلاً، في العمق، ثم تفجرت من قمقمها، فإذا هي تقلب القناعات الصميمة رأساً على عقب. ومهما كان رأي البعض، فإن ثورة 68 لم تكن بالفاشلة. فلقد فضحت تلك الثورة عجز الغرب عن تلبية حاجات أبنائه إلى استهلاك مطلق العنان. وزاد هذا العجز بوجود بذور أزمة لم يكن أمل في درئها. وفضحت تلك الثورة، كذلك، عجز حركات الاحتجاج عن تجاوز إطار «المشروعية»، في احتجاجاتها.

وفي ذلك الوقت كان تعارفنا، ثم زواجنا. إذ قدمت فرونسواز إلى مدينة مارسيليا في شهر شتنبر من عام 1969، وشرعت في دراسة التمريض. وفي شهر نونبر من نفس العام كان لقاؤنا الحقيقي، أثناء حفل أُقيم احتفاءً بصحيفة «لا مارسييز» (*) المحلية .

وكان يوحِّدنا فهم أساسي للحياة، يقوم على عدم الفصل بين الأقوال والأفعال، وعلى تقديم احترام الذات على ما عداه. ولقد خضنا في ذلك بحثاً طويلاً ومضنياً. فأصبحنا

---

* - *La Marseillaise*

نلمس تفاوتاً لا يني يتسع بين المجتمع الغربي العام وما يشهد من انهيار، ومجتمعنا، نحن الاثنين، ذلك المجتمع الصغير الناهض. لكننا لم نكن نحتقر أحداً بهذا الشعور. فإذا كان لا يزال للوحش الغربي الكريه بعض المفاتن، فإن له، كذلك، وعلى الخصوص، أسلحته الفتاكة.

ولم يكن يجدي المجتمعَ الغربي تضامنه، حتى ولو كان فعالاً في بعض الأحيان، مع القضايا الثورية في العالم، في إخفاء الجدار الرجعي الذي يطوقه، ولا في إخفاء ترهل مواقفه برغم ما يسبغ عليها من تقدمية بأوقات معلومة.

وكان محتماً لبحثنا الجذري، الذي لا يعرف طرفاه التنازل، في ذلك الجو، أن يؤول بنا إلى الافتراق. ثم أصبح افتراقاً فعلياً في عام 1976. وكنا أنجبنا طفليْن، هما لورون وبيير.

لقد كان ذلك الافتراق قطيعة وانفصالاً. كان افتراقاً صريحاً، وحاراً وعاطفياً. لقد كان من تلك المكاتيب التي لا نملك لها دفعاً، من فرط ما كان يترجم رفضاً متبادلاً لدعوى القبول بالأمر الواقع من دون إتيان أي فعل. لقد كان افتراقنا من تلك القطائع التي تدل على الوفاء نفسه.

وبدأت فرونسواز، منذئذ، في السفر، مصطحبة معها بيير، أصغر ابنيْنا. فكانت گواديلوپ مرحلةً في ذلك السفر، في عام 1976، عملت فيها فرونسواز ممرضة، واجتازت فيها، كذلك، امتحان الباكالوريا. فكان ذلك عندها انتصاراً على المثقفين، (و أنا من بينهم)!

وما كان أعظم سعادتها بذلك! ثم انفتح أمامها عالم الجامعة. فكانت تعتقد أنه الطريق الملكي الذي يكفي المرء أن يكون باحثاً جيداً، حتى يفترٌ له عن مدارج الحرية. ولم يكد يمضي وقت يسير حتى تكشف لها هذا الطريق عن سراب. فقد كانت الجامعة، شأن سواها، عالمَ الصغارة والتفاهة.

فعادت فرونسواز تتنقل بين مارسيليا ونيس، تعيش فيهما بالتناوب. وكانت، بين ذلك، تتعاطى التاريخ، وعلم الاجتماع والعِراقة. وكانت ستغدو، من ذلك، مجرد مبتلعة للمعلومات، لولا هاجس البحث عن الصدق والأصالة الذي كان يقود خطاها في الدرس.

فلم تكن فرونسواز تعرف أن تحفظ ثم «تتقيأ» ما لا يبدو لها مفيداً، إفادة مباشرة لبحثها، وخادماً خدمة مباشرة ، لسعيها وراء الحقيقة.

ولقد كانت فضولية، تبحث في كل شيء. كما يتجلى من مراسلاتها الخاصة والوافرة، والمشبوبة، وميلها القوي إلى المهن الفنية (من صناعة الأثاث، و صناعة الفخار وأعمال البستنة ...)، وإلى كثير من التخصصات العلمية وشبه العلمية ... كل واحدة بحسب حاجتها منها. ولم يكن لأي إطار دراسي أن يشفي ظمأها اللايروى إلى المعرفة. فكانت تقرأ الكتب في سرعة، وتلم بما فيها في سرعة، كذلك. لقد كانت حالة نموذجية للعبقرية المغمورة.

18 مارس، في الرشيدية : الصدمة

فرونسواز وفلسطين كوكبان متقدان التقيا في مارس من عام 1981.

فمنذ ما ينيف عن عشر سنين، أصبحت فرونسواز مناضلة محنكة في مقاومة الصهيونية. فقد انخرطتْ، في مطلع السبعينيات، في حركة **«لجان فلسطين»** التي لم تعمِّر طويلاً.

وكانت فرونسواز قد تلقتْ تكويناً في تجريح الصهيونية التجريح الجذري، من صلاتها بصحيفة **«لوكومينيست»**(*)، التي كانت تشارك فيها، كذلك، بكتاباتها. وتشبعتْ بنبل فكر **ميشيل ميستر**؛ ذلك النجمِ الذي توارى، هو الآخر، في وقت مبكر (في عام 1970). وكان يرأس تحرير تلك الصحيفة. ولقد شكل ميستر، بكتابه **«الدولة الإسرائيلية ستختفي قريباً»**(**)، بداية الفكر الجذري المناهض للصهيونية في فرنسا.

فلم يكن ركوب فرونسواز البحرَ، في خريف 1980، باتجاه بيروت، رفقة أحد أصدقائها، تصطحب معها ابننا الأصغر بيير وكلبه تيموثي، عملاً مبكراً تنقصه التجربة. فلقد أقدمتْ عليه بعد أن امتلكت مفاتيح التحليل الأساسية. فشرعت تعمل، في بيروت ممرضة، وتبحث في كل السبل التي يمكن أن تفتح لها أسرار الطب التقليدي؛ أحد الموضوعات التي كانت تأخذ بمجامع اهتمامها دائماً. وكانت تعتزم دراسة المواد المستعملة في هذا الطب في عمل جامعي.

لكن كان لقاء بيروت لها بارداً.

---

* _ *Le Communiste*

** _ *Un jour ou l'autre, l'Etat d'Israël diparaîtra*

ولقد قالت عن بيروت إنها «مدينة حزينة وممزقة؛ ناسها بين ثري بالغ الثراء وفقير بالغ الفقر، ومالكي شوارع بأكملها وماسحي أحذية فيها، وشحاذين». (من رسالة، بتاريخ 26 يناير1981).

بيد أن القدر كان يخبيء لها صدمة وشيكة. فإذا حانت قالت عنها : «ليس هذا المكان منفى حقاً، فلقد استعدت فيه ذاتي. لكنني من الجانب الآخر، من الضفة الأخرى ... وإنني ليصعب علي أن أرأب جزأيَّ. فالضفة الأخرى ابتعدتْ عني كثيراً. لكن علي أن أنطلق إلى تلك المدينة ... فلقد أقمت فيها علاقات، وعلي أن أمضي إلى هناك في الأيام المقبلة. تلك هي الرشيدية، في ناحية الجنوب، باتجاه صور؛ تلك المدينة الصفراء التي تعرضت للقصف، بمبانيها المشرع كأنما ليعانق العالم». (من رسالة بتاريخ 12 مارس 1981).

كانت تلك صدمة، بل صدمة كهربائية.

بيـــروت في 29. 4. 81

«الرشيدية، الرشيدية، الرشيدية؟ أنىَّ لي أن أقتلع نفسي منها؟

أحاول العودة إلى بيروت أحياناً، لكي أتعود نسيانها.

بيد أن نظرات الناس، فيها، أعمق من المداعبات. نظرات لم أستطع، يوماً، أن ألمسها بيديَّ (ذلك لا يكون).

لا ينبغي للمرء، أبداً، أن يعيش مع شعب يقاتل. كل إنسان في الرشيدية، بلد قائم الذات : فلسطين. فلا أرغب في مفارقتهم أبداً، أبداً».

وينبغي نشر رسائل فرونسواز، في يوم من الأيام. فهي لا تزال على عمقها، وما تحدث مما يؤلم. ينبغي ذلك ...

ولم تكن لدى فرونسواز، يومها، سوى تأشيرة سياحية، فعادت إلى فرنسا لتسوية وضعيتها، في أواخر شهر ماي من عام 1981. ثم غادرتها، من جديد، إلى لبنان، في مُتم شهر يونيو، ومنه، مباشرة، إلى الرشيدية.

وهناك عملت في مستشفى البصرة، التابع للهلال الأحمر الفلسطيني. فكانت تشتغل في كل أيام الأسبوع، من السابعة صباحاً إلى الواحدة بعد الزوال. كما كانت تلتقي هناك،

عدداً كبيراً من الأطباء الأجانب، ومن بينهم الأطباء القادمون من البلدان الاشتراكية. ولقد سكنت، في البداية، المخيم، ثم انتقلتْ إلى بيت قريب من المستشفى طلباً للراحة، وبدافع اللياقة كذلك. فوجدت، في ذلك البيت، الهدوء الذي تحتاجه في الكتابة والتدوين، بعد نهاراتها الطويلة في العمل المضني (فالغارات الإسرائيلية لم تكن تتوقف)، والجلسات التي تسجل فيها على جهاز المسجل ما تلملم به مزق «الذاكرة الفلسطينية».

ولقد شاهدت، في صيف 1981، ما تعرضت له مدينة صور، والمخيمات الفلسطينية في الجنوب، وبيروت، كذلك، من قصف صهيوني، كان التجربةَ الأولى لما سيصبح اجتياحَ إسرائيل للبنان، في عام 1982.

وفي اليوم الثاني من إقامتها في لبنان، في عام 1981، سلمت إلى مكتب الإعلام التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، في بيروت، مسودة من مذكراتها بعنوان **«شهادات عن الجنوب اللبناني»** (*)، التي طلبت إليَّ أن أكتب تعريفاً ذاتياً لها لتُلحقَه بها. وهو التعريف الذي قد يكون ورد في ظهر الغلاف (فقد علمت بذلك، اليوم) من الكتيِّب الذي نُشِر لها في بيروت، في شهر يناير 1982. ولقد حالت الأحداث دون توزيع هذا الكتيِّب التوزيعَ الواسع. وبعد أن راجعت فرونسواز هذا الكتيب ونقحته، جعلته قسماً أول من الكتاب الحالي.

المتوحشون وعملاؤهم الأنذال

عادت فرونسواز إلى فرنسا في شهر أكتوبر من عام 1981، مروراً بعمان وأثينا. وكانت مفعمة قوة مما شهدتْ من معارك الفلسطينيين، وثقةً في منظمة التحرير الفلسطينية التي رأتها عياناً في المخيمات الفلسطينية، وتصميماً على النضال من أجل فلسطين. ولقد حاولت أن تنقل بعضاً من حماسها الثوري إلى الجمعيات، والأصدقاء في المستشفيات والعيادات والمقاولات؛ حيث عملت، قبلئذ، ممرضة. ولا أراني أجانف الحق إذا قلت إن أحداً من هؤلاء لم يفهم دعوتها. فقد جرَّ تغير الحكومة، في ماي 1981، جلَّ المناضلين في تسويفية آثمة. ولقد طرقتْ فرونسواز كل الأبواب، فكانت تصطدم بعدم الإدراك، والخوَرِ وموت الضمير.

* _ "Témoignages sur le Liban-sud"

وكانت الهوة تزداد اتساعاً، يوماً بعد يوم، بين هذا الموت الطوعي في فرنسا وذلك النضال الدائر، في لبنان وفلسطين، من أجل الحياة.

وعندما تأكد ما كان يشاع من نية فرونسوا ميتران زيارة إسرائيل، وهي أول زيارة يقوم بها فرنسي من هذا المستوى إلى إسرائيل، معبراً عن دعم فرنسا لسياسة الصهاينة العدوانية، إذ اندلع جحيم الجيش الإسرائيلي في يونيو 1982، فركضت فرونسواز نحو أصدقائها، وشعبها ووطنها. فالتحقتْ بلبنان مروراً بسوريا، دونما خوف من الأخطار البادية للعيان. ومن هناك، التحقت، دونما وقاية، مهما كانت بسيطة، بالرشيدية، التي كانت تحت الاحتلال الإسرائيلي. فمكثت فيها ليلة واحدة. ولقد وصفت الوضعية الجهنمية التي أصبحت عليها المدينة.

ولقد عاينتْ، يومئذ، كل الأهوال التي أصابت الشعبين اللبناني والفلسطيني من احتلال الجيش الإسرائيلي، وحصار بيروت (يوليوز— غشت 1982)، وانسحاب مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، ومذبحة المدنيين المريعة، التي لا تزال جارية، وما كانت مذبحتا صبرا وشاتيلا سوى المثالين المعروفين منها. وتقع على كاهل البلدان الغربية مسؤوليات ثقيلة في كل تلك المذابح، ذلك أنها ساعدت على ترحيل مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية الفدائيين، ثم غادرت بيروت (على خلاف ما تنص عليه الاتفاقات التي وقعتها مع منظمة التحرير الفلسطينية)، تاركة، بذلك، المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين بدون حماية، في مواجهة الجيش الصهيوني وعملائه المرتزقة. ولم تعد الجيوش الغربية (من الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا، وإيطاليا، وبريطانيا وإيطاليا) لتحاول تكميم أفواه الشعب، إلا بعد أن أتاحت للقتلة ما يكفي من الوقت ليقترفوا جرائمهم. وتلك وقائع أضحت من التاريخ.

ثم اضطرت فرونسواز للعودة إلى فرنسا، بعد أن أصبحت مطارَدة، ومنهكة وممزقة (فلم تعد بحوزتها، يومئذ، تأشيرة ولا أوراق). ثم خامرها الاعتقاد، لبعض الوقت، أنها ستنجح في تخطي جبال اللامبالاة عند المثقفين الفرنسيين، ذلك أن مذابح بيروت قد أحدثت في الرأي العام، دون شك، ارتعادات من الهلع، وكذلك اهتزت، بفعلها، صورة «الإسرائيلي الصغير»، الذي يحدق به الأعداء من كل جانب، الإسرائيلي بطل الديمقراطية الغربية، اهتزت هذه الصورة أيما اهتزاز، بفضل ما كتب بعض الصحافيين الشجعان، مما يكوِّن ضريبة لن تستطيع إسرائيل أداءها، رغم أن الزمن لا يزال طويلاً بين الشعوب واليوم الذي تقدم لإسرائيل فيه فاتورة عن كل ما اقترفت ...

لكن شرع، حينئذٍ، حلفاء الصهيونية، هم أيضاً، في العمل. فحرفوا الأسئلة عن معانيها، واستعملوا كل وسائل المدفعية الإعلامية، لتحويل المسؤولية في ما حدث عن كاهل إسرائيل، وإلقائها على مرتزقة إسرائيل. ذلك كان فحوى تقرير **كاهانا** المفرط في «الديمقراطية».

وفي هذا السياق النضالي، أدركت فرونسواز أن الغرب يحمي إسرائيل، وسيواضب على حمايتها من كل ما قد يستهدفها. فليس ثمة من مسافة ممكنة بين إسرائيل والغرب، إذ هي جزء منه.

باسم الله

هذا أفضل تفسير لما سيظل، دون شك، لغزاً من الألغاز؛ أعني تماهي فرونسواز مع فلسطين، بدءاً من هذه اللحظة، بما في ذلك اعتناقها الإسلام، الذي كان دينها الأثير.

فقد اعتقدت فرونسواز، وهي تواجه «الاشتراكيين» الغربيين، والصهاينة، والمفسدين وتواجه «الشيوعيين» الغربيين المتواطئين، الذين كانوا يصوتون، وقتئذ، في فرنسا، لصالح ديون الحرب، اعتقدت، من كل ذلك، أن القطيعة الوحيدة الممكنة والنهائية تكمن في اعتناق دين يبدو متحدياً للغرب.

ومن حججنا على ذلك أن الفلسطينيين غير المتدينين كانوا في طليعة من اعتنق الإسلام يومئذ. ولا حق لأحد في الغرب؛ حيث نشأ وحش الصهيونية الكريه، في أن يتهم فرونسواز أو يتهمهم بشيء على ما فعلتْ أو فعلوا.

وينطوي تماهي فرونسواز مع فلسطين على الحب؛ حب الآخرين، وحب الحياة وحب الثورة. وهذا الحب هو الذي سيدفعها إلى ركوب شيء من اللامعقول، ويجعلها تكسر حلقة الصفائية الثوريةِ الفارغة في الغرب. فلقد حطمت، بنضالها، الغل، وطرحت الخمول. فكان نضالها في سبيل فلسطين، ونضالها العقلاني ضد الصهيونية يخرجان بها من شرنقة المثقف الميت، إذ أصبحا برنامج حياتها.

ولن يستطيع أحد أن يمحو هذه الحقيقة؛ وهي أن فرونسواز، التي اختارت أن «تكتب بالدم» (من رسالة بتاريخ 7 يونيو 1984) قد ماتت في نفس العام، ماتت من أجلنا، مكفرة، بالنيابة عنا، عن جبننا وأخطائنا.

الأسلحة الأولى ...

وبطبيعة الحال، كانت هناك مسامير وصليب. وكان هناك رصاص وشاطئ من رمل أصهب. ونحن نريد أن نعرف.

ليست منظمة التحرير الفلسطينية، بأحزابها وفصائلها المسلحة، وجمعياتها الجماهيرية، حزبَ إرهابيين. إن المنظمة، في المخيمات، هي الخبز والمدرسة، والمستشفى والقضاء، والسياسة، وهي، بطبيعة الحال، الدفاع؛ الدفاع عن الشعب الفلسطيني ضد الاغتصابات الصهيونية، والدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتقادم، في استعادة وطنه.

وتمضي حياة المخيمات عادية؛ فيها الإطعام، والإكساء، والتطبيب، والإنجاب، لمواصلة النضال، والتعليم، والتفكير والتنظيم لتحقيق أهداف الثورة الفلسطينية المقدسة.

«لأن فلسطين في أذهاننا، وفي نضالنا، كذلك، ما بقينا يقظين» (من رسالة بتاريخ 7 يوليوز 1981). وابتداء من عام 1981، أصبحت فلسطين عند فرونسواز، المَصْلَ في يد والمسدس في يد أخرى (لتحمي ذراعها ومصلها أولاً). لقد أصبحت، عندها، الرغبة في القتال المباشر: «كلا، كلا، لن أقاتل. لقد طلبت إليهم ذلك مائة مرة. لكنهم لم يوافقوا. فهم يجيبونني، دائماً، بالرفض. ولسوف أطلب إليهم ذلك مرات أخرى، وإن كنت أعلم بجوابهم سلفاً. فهم سيرفضون، لا محالة». ذلك ما كتبت في يونيو 1981، أثناء إقامتها القصيرة في فرنسا (من رسالة بتاريخ 11 يونيو 1981).

لكنها كتبت، في ظل القصف الصهيوني للرشيدية :

«إنني أتعلم الرماية. ولا أجد صعوبة كبيرة في ذلك. فأنا موهوبة ...» (من رسالة بتاريخ 26 يوليوز 1981).

ثم كتبت في 4 شتنبر 1981 : «أصبحت، الآن، على أتم استعداد للعمل، كالبندقية وقد عبِّئتْ. أستطيع أن أهب حياتي. ولقد وافقوني إلى ذلك».

وكتبت في 8 أكتوبر 1981 : «أصبحت أجيد استخدام المسدس، وتفكيك الكلاشنيكوف، وتشحيمه والرماية به. مثلما أصبح في مستطاعي أن أكتب (لكني غير موقنة من ذلك). وأحب».

لكن شرع، حينئذٍ، حلفاء الصهيونية، هم أيضاً، في العمل. فحرفوا الأسئلة عن معانيها، واستعملوا كل وسائل المدفعية الإعلامية، لتحويل المسؤولية في ما حدث عن كاهل إسرائيل، وإلقائها على مرتزقة إسرائيل. ذلك كان فحوى تقرير **كاهانا** المفرط في «الديمقراطية».

وفي هذا السياق النضالي، أدركت فرونسواز أن الغرب يحمي إسرائيل، وسيواضب على حمايتها من كل ما قد يستهدفها. فليس ثمة من مسافة ممكنة بين إسرائيل والغرب، إذ هي جزء منه.

باسم الله

هذا أفضل تفسير لما سيظل، دون شك، لغزاً من الألغاز؛ أعني تماهي فرونسواز مع فلسطين، بدءاً من هذه اللحظة، بما في ذلك اعتناقها الإسلام، الذي كان دينها الأثير.

فقد اعتقدت فرونسواز، وهي تواجه «الاشتراكيين» الغربيين، والصهاينة، والمفسدين وتواجه «الشيوعيين» الغربيين المتواطئين، الذين كانوا يصوتون، وقتئذ، في فرنسا، لصالح ديون الحرب، اعتقدت، من كل ذلك، أن القطيعة الوحيدة الممكنة والنهائية تكمن في اعتناق دين يبدو متحدياً للغرب.

ومن حججنا على ذلك أن الفلسطينيين غير المتدينين كانوا في طليعة من اعتنق الإسلام يومئذ. ولا حق لأحد في الغرب؛ حيث نشأ وحش الصهيونية الكريه، في أن يتهم فرونسواز أو يتهمهم بشيء على ما فعلتْ أو فعلوا.

وينطوي تماهي فرونسواز مع فلسطين على الحب؛ حب الآخرين، وحب الحياة وحب الثورة. وهذا الحب هو الذي سيدفعها إلى ركوب شيء من اللامعقول، ويجعلها تكسر حلقة الصفائية الثوريةِ الفارغة في الغرب. فلقد حطمت، بنضالها، الغل، وطرحت الخمول. فكان نضالها في سبيل فلسطين، ونضالها العقلاني ضد الصهيونية يخرجان بها من شرنقة المثقف الميت، إذ أصبحا برنامج حياتها.

ولن يستطيع أحد أن يمحو هذه الحقيقة؛ وهي أن فرونسواز، التي اختارت أن «تكتب بالدم» (من رسالة بتاريخ 7 يونيو 1984) قد ماتت في نفس العام، ماتت من أجلنا، مكفرة، بالنيابة عنا، عن جبننا وأخطائنا.

الأسلحة الأولى ...

وبطبيعة الحال، كانت هناك مسامير وصليب. وكان هناك رصاص وشاطئ من رمل أصهب. ونحن نريد أن نعرف.

ليست منظمة التحرير الفلسطينية، بأحزابها وفصائلها المسلحة، وجمعياتها الجماهيرية، حزبَ إرهابيين. إن المنظمة، في المخيمات، هي الخبز والمدرسة، والمستشفى والقضاء، والسياسة، وهي، بطبيعة الحال، الدفاع؛ الدفاع عن الشعب الفلسطيني ضد الاغتصابات الصهيونية، والدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتقادم، في استعادة وطنه.

وتمضي حياة المخيمات عادية؛ فيها الإطعام، والإكساء، والتطبيب، والإنجاب، لمواصلة النضال، والتعليم، والتفكير والتنظيم لتحقيق أهداف الثورة الفلسطينية المقدسة.

«لأن فلسطين في أذهاننا، وفي نضالنا، كذلك، ما بقينا يقظين» (من رسالة بتاريخ 7 يوليوز 1981). وابتداء من عام 1981، أصبحت فلسطين عند فرونسواز، المَصْلَ في يد والمسدس في يد أخرى (لتحمي ذراعها ومصلها أولاً). لقد أصبحت، عندها، الرغبة في القتال المباشر: «كلا، كلا، لن أقاتل. لقد طلبت إليهم ذلك مائة مرة. لكنهم لم يوافقوا. فهم يجيبونني، دائماً، بالرفض. ولسوف أطلب إليهم ذلك مرات أخرى، وإن كنت أعلم بجوابهم سلفاً. فهم سيرفضون، لا محالة». ذلك ما كتبت في يونيو 1981، أثناء إقامتها القصيرة في فرنسا (من رسالة بتاريخ 11 يونيو 1981).

لكنها كتبت، في ظل القصف الصهيوني للرشيدية :

«إنني أتعلم الرماية. ولا أجد صعوبة كبيرة في ذلك. فأنا موهوبة ...» (من رسالة بتاريخ 26 يوليوز 1981).

ثم كتبت في 4 شتنبر 1981 : «أصبحت، الآن، على أتم استعداد للعمل، كالبندقية وقد عبِّئتْ. أستطيع أن أهب حياتي. ولقد وافقوني إلى ذلك».

وكتبت في 8 أكتوبر 1981 : «أصبحت أجيد استخدام المسدس، وتفكيك الكلاشنيكوف، وتشحيمه والرماية به. مثلما أصبح في مستطاعي أن أكتب (لكني غير موقنة من ذلك). وأحب».

ثم تغيرت نبرة حديثها عند عودتها إلى فرنسا : «لماذا يكون لهم أن يستحوا من الارتياب فيّ أو الاحتراس مني؟» (متم عام 1981 من مجموعة شعرية مخطوطة).

من الواضح، إذن، أن انخراط فرونسواز في المقاومة لم يكن يتجاوز، في هذه الفترة مرحلة التدرب على استعمال الأسلحة، وهو أمر إجباري على كل من يعيش في جنوب لبنان.

أما في عام 1982، فقد عمت الحرب جميع أنحاء لبنان. وكانت فرونسواز خلال هذه الحرب، إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية، قلباً وروحاً.

«إنني أكتب بالدم، فليسمع العالم كله!».

لكن سارت الأوضاع سلباً في لبنان. فوجود جيوش الحلف الأطلسي (من الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا، وبريطانيا وإيطاليا)، والجيش الإسرائيلي، والعملاء والمتواطئين من الكتائب اللبنانية أحال الحياة مستحيلة على المقاومين الفلسطينيين.

ولقد بذلت مساع كثيرة في عام 1983 لترحيل فرونسواز إلى الجزائر، لكن لم يتسن لها ذلك إلا في عام 1984. وكانت قد عهدتْ إليَّ بطفليْنا وكتبها، وطلبت إلي، صراحة أن أتصرف في كتاباتها ووثائقها «في حالة ما ... ». فقد كانت تعرف، إذن، إلى أين تمضي ... نقول هذا لأولئك الذين قد يظنون أننا، هاهنا، نستخدم فرونسواز. والحقيقة أننا نخدمها.

وفي يونيو 1984، غادرتْ فرونسواز فرنسا، باتجاه الجزائر. ومنها إلى سورية، التي وصلتها في 18 يونيو. ومكثت فيها إلى 7 يوليوز، إذا نحن اعتمدنا، على الأقل، أختام البريد. وإليكم ما كتبت إليَّ في 7. 7. 84 :

«عم مساءً جون لوي.

الوقت ليل في دمشق، وفي اليرموك. وهذا مما ينعش قلبي.

لا زلت هاهنا. الأحوال عادية. ويزداد إعزازي للأصدقاء! ومن لقاء إلى آخر، أصبح أفضل حالاً من ذي قبل.

يبدو لي، هذه المرة، أنني أتجه نحو الموت المحقق. بل إنني لأعلم ذلك علم اليقين. وأطلبه. ولسوف تكون تلك أجمل ميتة، مثلما هي حياتي هنا أجمل حياة. أحب أن أعرف جميع البلدان. من الشمال إلى الجنوب. و أرغب أن يكون لي اثنا عشر طفلاً ...

إني سعيدة، وفي أحسن حال:

لقد كنتَ لي أفضل زوج. وقد نشأنا مجتمعين، مع ابنينا. ثم استمرت علاقتنا ونحن منفصلان. ومن أجل حب ابنينا، كذلك، أنا هنا. وأنت تعلم أنني لا أغفر شيئاً لأحد. مثلك.

ألا تعتقد أن الإنسان يتوحد مع ذاته إذا هو أصبح على عتبة الموت؟ فأنا أتوحد. من جنوبي إلى شمال ...

كل هذه السنوات في نضال لا يفتر، مني إلي، إلى الآخرين ...

وأنتَ، كذلك، بين من أحب. لا يفصلك الآخرون عني. ولك أن تفخر بذلك.

ولسوف يكون يوم غد يوماً مشهوداً في حياتي.

إنني أحب الآخرين، كما تعلم.

وأفتقد تلك المسافة العقلية بيني وبينك.

لكني أختزن في ذاتي كل شيء. ولقد صرت، من ذلك، أعجز عن الكلام جهاراً. وأنت تعرف ما أريد فعله الآن.

إنني أريد أن أكتب بالدم. فليسمع العالم ...

لقد عشت كلَّ شيء، حتى منتهى ضياعي، وحتى الحاضر.

ولو شاء الله أن يقبضني إليه فسأكون أكثر حياة في هذه اللحظة! ...

ولن يكون لابنيَّ أن يخجلا مني. ولن يكون لك. فالحياة أن نعيش أشياءها كلها في جمال ...

وأنت يا بيير.

أحبك.

حتى آخر ثانية في حياتي.

إنك لإنسان رائع، كما أنت.

إنك كل من أحب في العالم. فأنت صريح، وكريم، وفريد، وجذاب، وجسور وحر ... وإنك لحيوي ومتطلب. فواصِلْ على الدرب. ستكون إنساناً جديداً. بل إنك لكذلك.

إنك تجعلني فخورة بك هديةً لحياتي. حبيبي، أنتَ ريبتني. هل تعلم ذلك؟

فـــرونســـواز

حاشية : ألف قبلة إلى لورون. إن الهزائم لا تطاق. ولا ينبغي الصبر عليها. ذلك هو اعتقادي ... فلنحيَ أحراراً.

تـــوقـــبـــات

كتبت فرونسواز هذه الصفحات جاعلة هوامشها إلى اليمين، فقارئها يقلبها من الشمال إلى اليمين، على غرار الكتابات العربية. ولقد جاء كلامها فيها واضحاً، كما هي المهمة التي تلقيها على كاهلنا : «إنني أريد أن أكتب بالدم، فليسمع العالم!».

ثم غادرت فرونسواز سورية باتجاه لبنان. فتوقفت في طرابلس. وبلغت بيروت في غشت 1984.

وفي بيروت التحقت فرونسواز بمجموعة **«العاصفة»**؛ جناحِ فتح المسلح. وهي مجموعةٌ تتلقى الأوامر مباشرة من **أبي عمار (ياسر عرفات)** الذي يقيم في مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.

وفي برج البراجنة، وهو مخيم فلسطيني في ضاحية من ضواحي جنوب بيروت أخذت فرونسواز تتهيأ ورفيقها فتحي، الذي كانت قد اختارته عن حب، ليكون رفيقها إلى الموت. وقد كانا على معرفة سابقة ببعضهما. إنهما مناضلان سريان. فلم تكن فرونسواز تملك أية ورقة قانونية. فقد دخلت لبنان دخولاً غير قانوني. ولم يكن والدا فتحي يتكهنان بشيء مما سيكون مصير ابنهما.

ومر شهرا غشت وشتنبر رتيبيْن في ظاهرهما. لكن كان يجري الإعداد لتخليد الذكرى الثانية لمذبحة صبرا وشاتيلا (16 و17 شتنبر 1982). وفي 14 شتنبر التقطت صور رسمية لفرونسواز، وفتحي وشخص آخر كان برفقتهما، قالت عنها فرونسواز : «إنها الصور التي ستزين جدران بيروت بعد موتنا». لكنهم لم يفلحوا في كظم موجة من الضحك انتابتهم. ونحن نرى ذلك واضحاً في صورة فرونسواز الرسمية، برغم ما يلوح على قسمات وجهها من جدية متكلَّفة.

ثم بدأوا ينتظرون الأمر بالانطلاق. وبدت لفرونسواز الأسطح، التي تشويها الشمس مكان عزلة ممكناً، فلجأت إليها لدقائق، كي تؤدي ما عليها اتجاه ماضيها، وابنيها وأصدقائها ورفاقها في النضال. فقد وجب أن يكون معنى اختيارها واضحاً للجميع.

ولقد كتبت، في هذا الصدد، رسالة إلى پيير، نشرتْها وكالة الأنباء الفلسطينية «وافا» وأعادت نشرها يومية «الزمن» (*) التونسية في 14 أكتوبر، ومما جاء فيها :

«ينبغي أن تفهم أن ما أقوم به ليس عملاً انتحارياً، بل هو واجب. لقد أصبحت الثورة والحرية مبرريْ وجودي، ولن أتخلى عنهما، أو يردني عنهما رادٌّ». ثم أضافت : «أمنيتي الوحيدة أن لا أترك، أبداً، لطفل في العالم، بندقية قد نخلّفها أنا ورفيقي، وراءنا. ولسوف نموت، نحن الاثنين، في سبيل هذه الثورة التي أعتبرتها، دائماً، ولادة جديدة».

و لا حاجة إلى الاستفاضة في بيان أن حب جميع أطفال العالم، والشجاعة، والتفاني الثوري كانت شيئاً واحداً، دائماً، عند فرونسواز.

23 شتنبر 1984

ثم حان يوم السبت 22 شتنبر 1984.

ومما جاء في حديث والد فتحي إلى والدة فرونسواز، بحضور أحد الصحافيين، في تأبين فرونسواز وفتحي، يوم 10 أكتوبر، في مقبرة الشهداء الفلسطينيين في بيروت : «كانت ابنتي، وكانت تقطن بيتنا، ولا تزال بحوزتي بعض أعمالها التي أود أن أعطيك أياها. وفي يوم السبت، عشية العملية، كانت فرونسواز تحْبك وفتحي يلعب الورق مع أصدقائه. وفي الساعة الخامسة مساءً غادرا البيت، ولم أرهما منذئذ».

أما بقية التفاصيل فتخص التاريخ العسكري لمنظمة «فتح». لكننا نعرف، مع ذلك، أن قارباً، أو اثنين، من نوع «زودياك» أبحرا ليلاً، من جنوب بيروت باتجاه فلسطين، وكان على متنهما «القائد فتحي خليل زاهر؛ 27 سنة، المولود في الرشيدية (في جنوب لبنان)، والملازم أول سمير أدهم البصري؛ 23 سنة، المولود في الحساكي (في سوريا)، ومحمد زهير الغندور؛ 18 سنة وطارق نعيم مصطفى؛ 17 سنة، المولود في برج البراجنة (في بيروت) وفرونسواز كيستمان؛ 34 سنة، المولودة في مدينة نيس (في فرنسا)»، حسب ما جاء في بيان المطالب الذي وافت به منظمة فتح مكتبَ وكالة الأنباء الفرنسية في بيروت.

---

* - *Le Temps*

ومن الواضح جداً أن الجيش الإسرائيلي لم يعترض جميع أفراد الفرقة الفدائية.

ولنعد لنقرأ من بلاغ فتح، فقد جاء فيه :

«توجهتْ وحَدة من قوات الثورة الفلسطينية «العاصفة» بحراً، إلى الأراضي المحتلة (في فلسطين ــــ ملاحظة المحرر) لتنفيذ عملية عسكرية، رداً على المذابح اليومية المتكررة التي يقترفها العدو الصهيوني في الأراضي المحتلة في جنوب لبنان». ولقد «اعترضت البحرية الإسرائيلية سبيل الفرقة المسلحة. فأفلحت هذه الفرقة في إغراق أحد الزوارق الإسرائيلية. ثم اضطُرَّتْ، في مواجهة التعزيزات الإسرائيلية، وبالخصوص منها الطائرات المروحية، إلى التراجع جهة الساحل الشمالي من مدينة صيدا. فتشابكت مع القوات الإسرائيلية في هذه الناحية. واستمر ذلك إلى الصباح». (نقلاً عن يومية **«لوريون لوجور»** [*] اللبنانية، بتاريخ 24 شتنبر 1984).

وأوردت صحيفة **«نيس ماتان»**[**] في عددها الصادر يوم 24 شتنبر، ما يلي : «ويعتقَد أن سيدة فرنسية من مدينة نيس، في الرابعة والثلاثين، وتدعى **كيستمان**[***]، لقيتْ حتفها، مساء أمس، فيما كانت تطلق النار من بندقيتها على الجنود الإسرائيليين». وعقبت بالقول إنها النسخة التي تؤكدها «قصاصات الأخبار الواردة من الشرق الأوسط». وجاء في قصاصة أخرى : «ذكر الجيش الإسرائيلي أن فرقة فدائيين رست بزورق هوائي قرب قنطرة الأوَّلي، شمال صيدا (في جنوب لبنان) ... وكانت الفرقة قد فتحت النار على مجموعة جنود إسرائيليين كانت أنذرتهم دورية بحرية بوجود الفرقة الفدائية، فجاءوا لاعتراض سبيلها».

ومن الغريب أن هذه القصاصة لن يؤخذ بها فيما بعد، لأنها تفيد أن الاشتباك البحري حدث، فعلاً، وأن الزورق الإسرائيلي قد أُغرِق حقاً. فبدون الافتراض بنشوب تشابك بحري، وغرق الزورق الإسرائيلي، لن نفهم كيف أغرق زورق الصهاينة زورقَ المقاتلين الفلسطينيين.

---

* - *L'Orient - Le Jour*

** - *Nice- Matin*

*** - يُكتب اسم Françoise Kestman في العربية كذا: KSTMN «كستمن» . ولقد أدخل المترجمون ، حين نشر هذا البلاغ ، أصواتا على هذا الاسم « على الطريقة الفرنسية» ، غير واعين إلى أن هذا الاسم ذو أصل فلاماني.

وهو عين ما تؤكده الأسلحة التي زعم الإسرائيليون أنهم وجدوها مع المقاتلين الفلسطينيين : «فحسب الجيش الإسرائيلي، كانت فرقة الفدائيين مسلحة بمطلق صواريخ مضاد للدبابات، وبندقية رشاشة، وقنابل عنقودية، وخمس بنادق من نوع كلاشنيكوف والذخيرة» (قصاصة أوردتها وكالة الأنباء الفرنسية، رقم 241616، في شتنبر 1984).

وجدير بالذكر أن ميناء صيدا، الذي كان، يومئذ، تحت الاحتلال الإسرائيلي، كان محظوراً على التجارة والملاحة، وبالتالي، على فرقة الفدائيين. وقد علمنا من مصادر مطلعة، أن حاملة الطائرات المروحية «أوس شريفريبورت» عادت، في ذلك اليوم نفسه، إلى بحر بيروت صيدا، وهو الموضع الذي كانت قد غادرته منذ شهر يوليوز 1984 (لتشارك في عمليات إزالة الألغام «المحتملة» من البحر الأحمر).

الحقيقة والكذب و المروءة والخداع

ولم تكن حرب البلاغات بين الفلسطينيين والإسرائيليين تقل حدة عن حربهم الميدانية. فقد كان الصهاينة، مغتصبو الأرض الفلسطينية، والمعتدون على لبنان، يطمعون في الاستئثار بحصة الأسد في هذا المجال أيضاً.

ومن وجوه ذلك أنهم نفوا وقوع معركة بحرية، للتقليل من أهمية ذلك الاشتباك. مثلما كذبوا بخصوص حيثيات المعركة البرية.

فبماذا نفسر وجود الجرحى الإسرائيليين الثلاثة (حسب «مصادر الشرق الأوسط» التي اعتمدتها صحيفة نيس ماتان، والتي لم ترد الإشارة إليها بعدئذ)، إن لم يكن بالاشتباك البحري؟

فقد أُجبرتْ وحدة «العاصفة»، عند تدخل الطائرات المروحية («الإسرائيلية»؟)، بطبيعة الحال، على التراجع إلى الساحل، باتجاه صيدا.

وهناك نشبت معركة برية، لكن لم يكن في الإمكان أن تدور على نحو ما زعم الصهاينة. فقد أوردت صحيفة «لوريون لوجور» بتاريخ 25 شتنبر 1984، تصريح ملازم أول إسرائيلي يدعى ماتي، قال فيه إن «أحد الجنود الإسرائيليين أبصر بالقارب عندما كان يتأهب للرسو. فهرولنا جميعاً إلى المكان المقصود، مطلقين ناراً كثيفة.

«وهناك قتل اثنان من المهاجمين على الفور، من بينهما امرأة. وأما الثالث فقد رفع ذراعيه استسلاماً. لكن عندما اقتربنا منه رمانا بقنبلة يدوية كانت في يده، فأصابت أحد

رجالنا. فحملنا ذلك على قتله، في الحال، برصاصة أنفذناها في صدره. وأسرنا الاثنين الآخرين».

فهذا التصريح ينطوي على فجوة لا يمكن التجاوز عنها. فنحن لا نعرف من قُتل من رفاق فرونسواز الأربعة، ومن أُسِر (ولا مكان وجودهم في هذه الحالة). ولم تُعَدْ جثّتا القتيلين إلى أسرتيهما، جرياً على الوحشية الصهيونية المعتادة. أما فرونسواز، التي تمكن الصليب الأحمر، بفعل قيام تظاهرات عمومية، وتحت التهديد بإثارة «ضجة» في الموضوع من استعادة جثتها، وإعادتها إلى بيروت، فمن الواضح (وهو ما يدعمه تقرير التشريح الطبي)، أنها لم تُقتلْ في خضم المعركة. وتثبت ذلك أيضاً قصاصة خبرية لم تُفَند أبداً — نشرتْها صحيفة لوريون لوجور بتاريخ 11 أكتوبر 1984، جاء فيها :

«ذكر المصدر الطبي أن التشريح أثبت أن فرونسواز كيستمان كانت مهشمة الرأس ومكسرة الأضلع. وكان جسدها في حالة تعفن متقدمة. لكن لم يُعثرْ على أثر للرصاص داخل أنسجتها».

ونحن نزعم، من دون أن يكون في مقدورنا إعطاء مزيد من التدقيقات، أن أحد المقاتلين (فرونسواز)، على الأقل، يُقتل في ميدان الشرف. بل تمت تصفيته بعد أسره أي بعد انتهاء المعركة البرية التي تحدث عنها بيان فتح. ويستعمل الصهاينة في تصفية أسراهم وسائل كيماوية (كالغازات، مثلاً)، ضداً على كل القوانين الدولية المتعلقة بوضع أسرى الحروب.

ولا عجب، فقد كانت إسرائيل، منذ نشأتها، خارج كل شرعية دولية.

وكان هذا الحادث سينضاف إلى سجل الانتهاكات الإسرائيلية، لو لم تبادر فتح، يوم 23 شتنبر ، بإرسال بلاغ مطالبة عن فرقة الفدائيين إلى وكالة الأنباء الفرنسية، بعنوان «المجد والخلود لشهداء صبرا وشاتيلا». وحينئذ فقط علم الصهاينة بجنسية فرونسواز (وليس من جثتها، بحسب ما زعموا). ومن خوفهم الشديد من التبعات التي كان سيجرها عليهم ما فعلوا بفرونسواز (لو أن الحكومة الفرنسية سعت، فعلاً، إلى الذود عن ذكرى أحد رعاياها وحماية مصالحه المادية)، سارعوا إلى إعادة صياغة ما حدث.

ولقد بذل الجانب الرسمي الفرنسي ما وسعه للإبقاء على ستار الصمت حول هذه القضية. فكان ذلك مبعث سخط عارم على الحكومة.

ولم يكن كذلك موقف وسائل الإعلام الفرنسية، أو بعضها، على الأقل. فقد حاول بعض الصحافيين الشجعان أن يخرجوا عن مؤامرة الصمت (راجع، على سبيل التمثيل مقال **فرونسوا ماطي**، المنشور في صحيفة **«جورنال دو ديمانش»** (*) في نهاية هذا الكتاب). كما آزَرنا بعضهم في انتزاع ترخيص من سلطات الاحتلال الإسرائيلية يسمح لمنظمة الصليب الأحمر الدولية بنقل جثة فرونسواز إلى بيروت؛ حيث أوصت بدفنها. وقد لزمنا أن نقوم، من أجل ذلك، بمظاهرات أمام قنصلية إسرائيل في شارع كانوبيير (في مدينة مارسيليا). كما وزعنا مناشير كثيرة على نطاق واسع، ولم تأْل والدة فرونسواز، من جهتها جهداً في السعي لدى السلطات الفرنسية واللبنانية لكي تتم مراسيم الدفن يوم 10 أكتوبر.

ولقد أتاح ذلك لأصدقاء المقاتلين الفلسطينيين الذين أُسِروا أو قُتلوا في تلك العملية إلى جوار فرونسواز، وأقربائهم أن يرافقوا الشهيدة، رمزياً، إلى مثواها الأخير، في مقبرة «شهداء الثورة».

ولقد كتب أحد الصحافيين في صحيفة «لوريون لوجور» (بتاريخ 11 أكتوبر 1984) عن ذلك :

«تم، يوم أمس، دفن فرونسواز كيستمان، الفرنسية الشابة التي اغتالها الجيش الإسرائيلي في 23 شتنبر الماضي، في جنوب لبنان، في «مقبرة الشهداء»، في بيروت، إلى جوار قبور المسؤولين الفلسطينيين الذين ماتوا أو قُتِلوا خلال السنوات الأخيرة. وبهذا أراد الفلسطينيون تكريم هذه الممرضة الشابة التي لم تكن تتجاوز 34 سنة، والمنحدرة من مدينة نيس، والتي كانت، وأربعة مقاتلين شباب من منظمة «فتح» (أهم فصائل منظمة التحرير الفلسطينية)، يحاولون القيام بعملية في إسرائيل، وهي المحاولة التي قد تكون أودت بحياتها.

ولقد رافق نعشَها نحو 300 شخص، ينحدرون، في معظمهم، من مخيم برج البراجنة؛ حيث كان يقطن رفاق كيستمان في تلك العملية. وقد سارت جنازتها على طول الطريق المترب الذي يصل مستشفى «غزة» الفلسطيني بالمقبرة، يغطي نعشَها علم بألوان فلسطينية وفرنسية.

* - *Journal de Dimanche*

وكانت السيدة إنيس كيستمان 64 سنة، والدة فرونسواز، كالفاقدة وعيها، فلم تكن تسمع صيحات امرأة فلسطينية عجوز كانت تهتف بها : «افخري يا أم فرونسواز، وأمَّ الشهداء، فأبناؤنا هم أبناؤك!».

وكان يسير إلى جوار والدة كيستمان رجل نحيف لم يكن يقوى على حبس دموعه ذلك هو والد فتحي زاهر؛ 27 سنة، أحد الأولاد الأربعة الذين رافقوا الفرنسية الشابة في تلك العملية. وكان الأب يجهل كل شيء عن مصير ابنه، ذلك أن الجيش الإسرائيلي ذكر أن ثلاثة من أفراد الفرقة الفدائية لاقوا حتفهم، وأُسِر اثنان، لكنه لم يعِد سوى جثة فرونسواز (...).

وكما جرت العادة، في فلسطين، عندما يموت شاب قبل أن يتزوج، اتخذت مراسيم الدفن هيأة حفل زفاف. فكانت النساء في الشرفات ينثرن الأرز على الموكب. فيما عزف أربعة شبان بمزاميرهم نغماً من الفولكلور الفلسطيني.

صـــورة عـــرفـــات

كان الشبان يلوِّحون، للمرة الأولى، في بيروت، منذ انسحاب المقاتلين الفلسطينيين في غشت 1982، بصورة السيد ياسر عرفات، مرتدين قمصاناً طُبِعتْ عليها صور أفراد الفرقة الفدائية الخمسة، وكُتِب تحتها «الخلود لأبطال عملية صبرا وشاتيلا الشهداء».

وكانت الفتيات، بوزراتهن المدرسية، يحملن تيجاناً مهداة إلى فرونسواز كيستمان من السيد ياسر عرفات، رئيس اللجنة المركزية لفتح، ومن الصليب الأحمر الفلسطيني ومن أصدقاء فرونسواز ورفاقها.

وكانت تمتزج بالشعارات التي يهتف بها الهاتفون في تمجيد ياسر عرفات (أبي عمار) شعاراتٌ أخرى في تمجيد الفرنسية الشابة، والتأكيد على أن «دمها لن يضيع هدراً». وفيما كان يوارى جثمان فرونسواز الثرى في مقبرة الشهداء؛ حيث أوصت أن تُدفن، بحسب ما ذكرت والدتها، أطلق شاب فلسطيني إحدى وعشرين طلقة من كلاشنيكوف.

وقالت السيدة كيستمان، عند عودتها من مراسيم الدفن، وهي تتميز من الإجهاد والانفعال، إلى مستشفى غزة، إن ابنيْ فرونسواز؛ لورون (14 سنة) وبيير (10سنوات)، قد علما باستشهاد والدتهما، وإنهما فخوران بذلك.

ثم أضافت : «لقد كانت فرونسواز فتاة لا تتحمل اللامبالاة. فقد علمناها، أنا ووالدها، الحرية والنضال ضد القمع». وقالت عن زوجها، المتوفى في عام 1979، إنه كان مقاوماً كبيراً أثناء الحرب العالمية الثانية، وإنه أفلح في الفرار من مخيم كومبيين (في شمال فرنسا)».

ولقد استقبلنا ياسر عرفات، بعدئذ، في تونس. فتبنى، باسم الشعب الفلسطيني، ابنيْ فرونسواز.

ولا نجد خاتمة لما نقول. لقد أنارت فرونسواز السبيل في وجه تلك الشبيبة الغربية التي منِعت من ممارسة العدالة الطبيعية. وعاشت فرونسواز، كاتبةً وثائرة!

جون ـ لوي جوانو

القسم الأول

«هل تعرف أغنية ستي»؟
شهادات عن الجنوب اللبناني

كان يوم 15 يناير. لا زلت أذكر. وكنا ننزل باتجاه الجنوب أعداداً كبيرة.

وكان الجو صحواً في بيروت. بينما أمطرت في الجنوب.

وكنا نسير بمحاذاة البحر. وكان يقذف أمواجه بوثيرة عنيفة عنف الريح.

وعندما رأيت أشجار الموز، والبرتقال والخضراوات،

عندما رأيت الغسيل المعلق على الحبال،

والمنازل المهدمة، فهمت.

فهمت.

فهمت أن كل ساعة يحياها المرء هنا، في الجنوب، أو يعمل فيها، أو يحب، تعني خوض حرب.

رأيت امرأة تسير على جانب الطريق. وكانت طويلة القامة. وتسير مستقيمة. تحمل قنينة غاز فوق رأسها.

والنازل إلى الجنوب تطالعه دامور من فوق الجبل، قريبة إلى الطريق. والبساتين إليها مترامية الأطراف، ليس تحدها سوى الطريق من جهة، والبحرِ من أخرى.

وعلى قارعة الطريق من يعرض قنبيطاً في معرض، أو اثنين صغيرين.

دامور مدينة النساء. النساء وحدهن. أولئك منهن اللائي بقين على قيد الحياة.

اللائي لم يمتن.

فاستقررن في دامور، قادمات إليها من تل الزعتر. ودامور مدينة الأرامل.

مدينة تزرع فيها النساء الحقول.

وعندما تمر بقرب دامور ذات الاسم العذب (كأنه يعني مدينة الملاطفات)، يتناهى إلى مسمعك نحيب أشباح الفلسطينيين الذين اغتِيلوا في تل الزعتر.

فتحس دامور ميتة، أكثر مما تحسها حية.

وإذا تجاوزتَها امتد بك الطريق وعراً، كما كان إليها.

وتبلغ صور في الصباح الباكر. فتجدها خالية. فإذا اشتد حر الشمس تنفست المدينة. وسرعان ما تزدحم فيها الحركة.

وأنتَ تواصل نزولك باتجاه الجنوب.

ملء ذهنك مدينة صور.

صور الأجمل، والأدفأ والأرق. صور لا تزال قائمة. إنها ملء ناظريك.

وربما رأيتَها فأخذتْ بمجامع نفسك رغبة البكاء.

في الميناء سفينتان كبيرتان ميتتان. غارق نصفهما. وصور صفراء اللون. وأنت تحسها ناعمة الملمس. وذراعاها مفتوحان للعالم، تبغي عناقه.

تبغي احتضانه. وإدفاءه. تبغي أن تمنح نفسها له.

ما أجمل صور في البحر!

مدينة من حجر أصفر، دافئ عند اللمس. وما أكثر الناس الذين ظللتهم صور. وما أكثر ما تختزن حجارتها من حب.

وأنت تملأ ناظريك مما تمنحك المدينة : الرقة والسكينة. فتدرك جمال المدن التي يعمل سكانها. وجمال تاريخ الشعوب الخالد.

ثم تقترب أكثر. وترى.

تعرّض الحي المشاطئ للميناء لقصف إسرائيل وحداد [1] مراراً.

ولا يزال. وسقطت البيوت. ماتت البيوت.

وحل محلها الفراغ، أو الإسمنت. فآلة الحياة لا تتوقف.

وقد أوقفنا القس على كاتدرائية القرن الثاني عشر.

وكانت قصفتها إسرائيل، بعد أن لاذ بها مسيحيو الجنوب.

ثم أعيد ترميمها.

وصور ميناء.

صور مدينة الصيادين.

وقد كان لهم قرب الميناء نزْل صغير يجتمعون فيه؛ فيدردشون، أو يشربون الشاي أو القهوة. ويتهيأون فيه للخروج للصيد.

كان بيتاً، أبيض اللون، مربعاً، بدرابزين من حجر.

فقصفته إسرائيل. ولا تزال مزقه متشبثة، إلى الآن، برصيف الميناء.

ثم شيد الصيادون، قبل أيام، نزلاً آخر. أقل جمالاً. وعادوا إلى الاجتماع فيه.

وقد حدثوني عن عملهم، وحاجتهم فيه إلى نزل، فقالوا :

«إننا ننصب الشباك في الصباح الباكر. ونرفعها بعد خمس ساعات أو ست من ذلك».

ولقد رأيتهم عند البحر صباحاً، والشمس، بعد، لم تبزغ. فرأيت القوارب والبجع. ورأيت الصمت وتناغم البحر. وتحسست حركة الأشياء. رأيتهم صباحاً، كأنهم تمهلٌ منغوم. والضوء ينبثق، رويداً رويداً ، مصطخباً، من قاع الماء. رأيتهم فحسبتهم الأبدية.

وقالوا :

«كنا، قبلئذٍ، نعيش على الصيد. أما اليوم، فلم نعد نستطيع ذلك. فما نصطاد اليوم لا يكاد يمثل عشُر ما كنا نصطاد قبل عام 75. فقد حرمتنا إسرائيل كيلومتراً ونصفاً من السواحل. واختطفت عدداً من أصدقائنا في عرض البحر. وسرقت، ولا تزال، شباكنا. إذْ كنا ننصبها مساء».

ثم احترق المستودع الذي كانوا يودعونه قواربهم، في منتصف شهر أبريل. وظل يحترق طيلة يومين كاملين.

وقالوا، كذلك :

«لم يعد في مقدورنا أن نعيش على الصيد وحده. لقد أصبحنا فقراء. وتريدنا إسرائيل على مغادرة الجنوب. لكن ذلك لن يكون. ولقد قصفت بيوتنا. وصرنا وأطفالنا نرى الموت رأي العيان. فإذا أردنا أن نضمن الحياة لأربعة أطفال، لزمنا أن ننجب ثمانية. لأن إسرائيل تقتل نصفهم. وحدها منظمة التحرير الفلسطينية تقوّينا على الاستمرار في البقاء، وتدفع عنا شبح الموت جوعاً. إن منظمة التحرير الفلسطينية هي سندنا في ما نلقى.

وتضم صور مسيحيين ومسلمين. ولقد قصفتنا إسرائيل جميعاً بنفس الطريقة. ونحن والفلسطينيون على أهبة خوض حرب واحدة ضد المجرم نفسه».

ثم قالوا (وكلماتهم تنضح ألماً ممضاً)، قالو (وهم على حق) :

«تذكروا أطفال شيربورگ. فربما كانت طائراتكم الميراج، التي شاركت في قصفهم هي التي اغتالتنا.

ولقد لزم الجزائر، لكي تتحرر، أن تضحي بمليون شهيد. فإذا كان يلزمنا، نحن كذلك، أن نضحي بمليون شهيد، لكي نحصل على حريتنا، فلسوف ندفعهم. لكن لا تنتظروا منا أن نقدم هؤلاء القتلى لكي تعترفوا لنا أننا على حق».

وأخذنا طريقنا، بعدئذ، إلى مخيم الرشيدية. وسط أطلال البيوت المحترقة، وقد أضحت تتشابه.

ثم أمطرت. فكنا نسير وحدنا تحت المطر، ونجوس في الطين.

ومررنا ببيت كان قد تعرض للقصف. وتضم الرشيدية الكثير من هذه البيوت.

إنه بيت مهدم، كانت تقطنه أسرة كثيرة الرجال والأطفال. إن قصف بيت يعني إنهاء العلاقات التي تكون لقطانه بالبيوت الأخرى، وما يلحم بين أفرادها من مصافحة وعناق وكلام.

لقد أبيد هذا البيت، الآن. وقلت في قرارة نفسي : «هل تكون قصفته طائرة ميراج فرنسية؟».

ثم استقبلنا شيخ بشاربين أبيضين، تغطي رأسه كوفيةٌ، في بيته. وأخذ يحدثنا.

ولقد حدثنا عن فلسطين. وكان كلامه مشبعاً بروائح الزيتون والقمح ومسيرات الجبل.

وكان الشيخ قد فقد اثنين من أبنائه الأربعة، قتلتهما إسرائيل. ثم فقد زوجة أحدهما وابنته، قتلتهما إسرائيل، كذلك.

وقال إنه يتفق له، أحياناً (لكنه كف عن ذلك منذ وقت طويل) أن يزور فلسطين المحتلة، ليلاً، فيسير متئداً، متخفياً، ليقطف من أعشاب بلاده ما يستعيد به مذاقها فيقضمها، ممتصاً ما فيها من قوة تعينه على تحمل مشاق الحياة.

وعندما عدت، مساءً، إلى بيروت، كنت قد تركت نصفي في الجنوب، متشبثاً بحجارة صور وبيوت الرشيدية، منتظراً عودتي.

وأشكر صديقيَّ زياداً ودينا أن أعاناني على تلك العودة. وأشكر مصطفى أن سمح لي بتلك العودة.

ثم عدت في 18 يناير. والوقت ربيع. والحرارة على أشدها. ولم أكن رأيت الرشيدية إلا يوماً واحداً، فكنت أظنها كحالها تلك، دائماً.

ولقد أدركت، يومها، ما تعني ثلاثة وثلاثون عاماً، بفصولها وأيامها ولياليها، في المنفى. وأدركت كيف كان الأطفال يولدون هنا، ويشبون، ويتزوجون وينجبون.

وكيف كان الشيوخ يموتون، ويوارون تربة غريبة عنهم، وهم على مبعدة كيلومترات من بلدانهم وبيوتهم.

كانت الأيام الأولى من حياتي في الرشيدية أشبه بانجراف ثلجي.

قلب العالم في فلسطين.

وفلسطين محتلة.

وفلسطين منفية.

فلسطين حية. وتقاتل.

رأيت أربعة طلاب پاكستانيين لاجئين في الرشيدية، يحميهم الشعب الفلسطيني.

ورأيت أربعة جنود قدموا من جنوب إفريقيا ليلقنوا الشعب الفلسطيني فن القتال.

ورأيت طبيبين مصريين، لاجئين، يحميهما الشعب الفلسطيني.

ورأيت أطفالاً.

الحياة ها هنا، ملآى أطفالاً! فأنت تلتقيهم في كل خطوة تخطوها. عيونهم سود وخضر و زرق. «نهارك سعيد! ما اسمك؟

ادخلي!». ويبتسمون.

وعندما يتصافحون يرسمون بأيديهم شارة النصر!

ثم انتابني الخوف على أصدقائي الجدد..

ورأيت حراس المخيمات، ليلاً.

إنهم يتدفأون بشرب الشاي. ويقومون على الحراسة خارج البيوت.

ويضحكون. ويتراوون الحكايات.

فنمت آمنة.

ربما يموتون بعد خمس دقائق.

كثير من أصدقائهم ماتوا، كذلك. وكانوا يضحكون، هم أيضاً.

رأيت كثيراً من الناس، والعيون، والوجوه، والابتسامات، والآلام. وسمعت كثيراً من الأغاني.

والأمهات : تلك المعاقل.

وطيبة الناس.

من ينعتهم الصهاينة بالمجرمين.

يعيش في الرشيدية شعب. ويوجد، على مبعدة كيلومترات منه، بلد.

وهذا البلد هو لهذا الشعب.

وقد يمر، أحياناً، في المساء رجل مردُداً أغنية.

وكانت الرشيدية تضم، في البداية، 000 40 نسمة. ولم تعد ساكنتها، اليوم، تتجاوز 000 5، أو 000 7، بحسب الأوقات.

فقد رحل كثير منهم بأسرهم إلى أماكن أخرى.

فالعيش، ها هنا، في ظل القصف، يعني توقع الموت في كل لحظة.

إنه يعني القتال.

لكنه لا يمنع الفسطينيين من الزواج، والرقص، والغناء والغسل.

إنه يعني محاربة إسرائيل.

وإن الإنجاب والضحك لهما من صميم محاربة إسرائيل.

فأن تولد فلسطينياً معناه أن تولد ثورياً.

أصغر أطفال أم عماد في الرابعة عشرة. وكانت الكتائب قتلت أمه قبل خمس سنوات. وعندما بلغ الطفل سن الثانية عشرة، قتل خمسة صهاينة.

ثم رأيت الصوَر. صور الرفاق الأموات والأبناء القتلى...

وقال لي أبو علي : «مات ثلاثة من أصدقائي الأثيرين علي. فصرت كمن فقد ذراعيه» .

الرشيدية، : 18 مارس 1981

الوقت مساء. وقد بدأ الهواء بالاعتلال. وخف شذى البرتقال.

حكى يوسف وأبو علي، فقالا :

«ولِدتْ ثورتنا في 1 يناير 1965. وظلت سرية، حتى عام 1969. وكانت الشرطة اللبنانية تقوم على حراسة المخيمات الفلسطينية. وكانت سقوف بيوتنا من صفيح، إذْ كان محظوراً علينا بناء سقوف من الإسمنت. فكانت تصلنا في الداخل أصوات الخارج.

وكان اسم «فلسطين» ممنوعاً.

وكنا مهددين بالسجن إن نحن تحدثنا عن فلسطين، وعن ماضينا، وعن تاريخنا وعن شعبنا.

وكانت المخيمات تكاد تخلو من مستوصفات. وكانت المراحيض مشتركة بين خمس أسر.

ولم يكن مسموحاً لنا أن نحمل السلاح. لكننا كنا نحوز بعضه خفية.

وذات يوم طلبت الشرطة اللبنانية إلى جميع السكان أن يتسلحوا، تحسباً للهجومات المحتملة على المخيمات. فجاء الجميع. فكان منهم المسلح بالهراوة، والمسلح ببندقية الصيد والمسلح بالفأس، والمسلح بالسكين ...

لكن لم يكن بينهم من يحمل سلاحاً نارياً.

وعقِب المظاهرات التي شهدتها المخيمات الفلسطينية، في عام 1969، وإطلاق الشرطة اللبنانية النار على المتظاهرين، وسقوط قتلى منهم، تولت منظمة التحرير الفلسطينية حراسة

المخيمات. فطردْنا الشرطة اللبنانية، لأنهم لم يقبلوا بالعمل تحت إمرتنا. لكننا كففنا أيدينا عنهم، فلم نقتل منهم أحداً».

الرشيدية : 24 مارس 1981

كنا نجلس في الفناء من دار عالية، نتجاذب أطراف الحديث، أنا وإياها، وآمال (زوجة يوسف) ووالدته.

وتعيش عالية مع أمها في نفس البيت.

وتأتي آمال إلى بيت عالية بعد أن تفرغ من عملها.

وكان الجو حاراً. فكنا نغير أماكننا من الفناء بتغير مواقع الظل منه. كأننا نسافر. حاملات معنا المائدة الصغيرة التي قدمت لنا عالية فوقها القهوة، ثم المندرين المقطوف من العرصات القريبة.

وكان بابا البيت مفتوحين، فكانت تظهر حجراته الاثنتان ومطبخه.

وكان من المطابخ النادرة التي تحتوي مغسلاً لغسل الأواني، بخلاف سائر البيوت التي يجري فيها غسل الأواني في دست، أو أرضاً، تحت صنبور الفناء.

وتؤثث الحجرةَ الملاصقة للمطبخ حشيات للجلوس تحيطها من جوانبها الأربعة.

وفي هذه الحجرة، كذلك، كرسيان تقتعدهما الزائرتان اللتان ترتديان فستانين بدون سراويل داخلية.

وكان الداخل إلى الحجرة يخلع حذاءه قرب بابها، في الفناء.

وفي هذه الحجرة تتناول الأسرة، وزوارها، إن كانوا، الطعام، ويتحدثون جلوساً على الحشيات.

وتؤثث الحجرة الأخرى كنبات وموائد صغيرة. وعلى جدرانها علِّق علم فلسطين وخارطة فلسطين، وصورة أبي عمار، وصور رفاق فلسطين الذين قتِلوا، يوماً بعد يوم، على الطريق المؤدية إلى فلسطين.

ويطل على فناء دار عالية بابا الحجرتين اللتين يتكون منهما البيت الذي يسكنه أخو يوسف، الطبيب والعامل الزراعي، مع زوجته وأولاده.

وكنت على موعد مع أخي يوسف بعد الزوال. ثم جاءت زوجته. وعندما أخبرتها بنيتي في زيارة زوجها الدكتور، قالت مستغربة : «الدكتور؟ زوجي؟ من قال لك ذلك؟ إنني لا أعرف شيئاً! فهو يخفي عني، إذن ...».

وعندئذ، انفجر الجميع ضاحكات. فقد كانت تمزح. وارتبكْت أنا، إذْ ظننتها جادة في ما قالت.

ويقطن يوسف وآمال، المتزوجان منذ سنة، بيتاً صغيراً بمحاذاة الشاطئ.

وفي فترات القصف الشديد، يمكثان مع عالية كي لا تشعر وأمها بالوحدة.

وفي الفناء حمى من القصف. وربما آوت إليه أم يوسف وزوجته.

ونادراً ما تنزل عالية المخبأ. ولعلمها بولعي بالطب التقليدي، حدَّثتني عن الولادة التقليدية، فقالت :

«أكثر النساء يلدن في بيوتهن، كعادة زوجة أخي. فهي لا تقصد المستشفى أبداً. وفي المخيم ثلاث مولِّدات تقليديات. وهن يحضرن كلما حان أوان الوضع. ولا يرسلن الحامل إلى المستشفى إلا في حالة الولادة الصعبة حقاً.

وتكون الولادة مناسبة مفرحة دائماً. وتنتظر الجارات ونساء الأسرة، حينئذٍ، في حجرة أخرى، أو جوار الحامل.

وعندما يولد المولود، يُغسَل في الملح؛ ثناياه، ورأسه، وفمه ورجلاه، ليكون جلده جميلاً، وحسن الرائحة في الكبر.

وينبغي للمرأة التي تحمل الملح إلى المولود أن تأتيه به ضاحكة، لكي يظل باسماً، ما عاش».

وفي تلك اللحظة تنفجر المرأتان ضاحكتين.

وأنظر إليهما معاً، فأرى آمالاً قد قطبت وجهها، وتفعل عالية مثلها.

ثم تضحكان في هزء. ويبالغان بتمطيط شفاههما، تحكيان وجه امرأة تحمل الملح عابسة.

وآمال جميلة. فإذا ضحكت ارتسمت على وجنتيها غمازتان. ويبدو جلدها ناعماً من مجرد النظر. وهي طويلة الشعر، شقراؤه. ومشيقة القوام، هيفاؤه. وتأتلق عيناها ببريق مرح فيه شيء من سخرية.

أما عالية فنحيفة، ذات عينين واسعتين .

ولقد انكبت على الغسيل منذ السادسة صباحاً. وها هي أغطية أسِرة كثيرة بيضاء ناصع بياضها، وثياب معلقة في أنحاء الفناء.

ويبدو على عالية التعب. فهي تضحك في اعتدال، خافضة صوتها قليلاً.

فما أكرم عالية، وما أرقها! إنها ممن يصدق عليهن قولنا : «كريمة كالخبزِ الأبيض».

وكذلك الناس هنا، صبوحون وطيبون.

وكنا جالسات فوق منضدات واطئة، في تراب مركوم، قد عرَّشت فيه براعم البنفسج والقزبر.

وكانت الظهيرة في أولها. وقد جاءت إحدى الجارات لتقرأ الحظ في ثفل القهوة التي أعدتها أم يوسف.

فكانت تنصت.

وقد حضر معها، كذلك، حفيدها الذي يعمل في العربية السعودية. فطلب، بدوره، أن تقرأ له تلك الجارة حظه في ثفل القهوة. وكان قد مضى على وجوده في الرشيدية شهران، منتظراً برقية تحمل إليه العمل من جديد. فسعد لسماعه أنه سيغادر الرشيدية قريباً.

وبينما نحن مستغرقات في حديثنا، إذ أقبل علينا أخو يوسف، الطبيب التقليدي.

وكان يوسف قد أخبرني أن في إمكاني لقاءه. ولم يكن أحد، في الرشيدية، يألو جهداً في أن يفسر لي طرق العلاج التقليدية، والعادات المتبعة فيها، أو يبخل عليَّ بوقته برغم ما يشغله من مهام سياسية، أو عسكرية أو أسرية. وكلما التقاني فاضل يسألني إن كنت في حاجة إلى مساعدته، وإن كان عملي في تقدم، أو يقترح علي أن يرافقني عند من أنوي زيارتهم، مترجماً ما يدور بيننا من أحاديث.

ويحدثني يوسف في تاريخ الثورة الفلسطينية.

ويتحدث أبو علي عن تجربته الحية. وفاضل لا يمل الترجمة ما طال بنا الحديث.

قلما ينام هؤلاء الناس. وإذا فعلوا لم ينعموا بالراحة. فتراني مفتونة ببساطتهم وتواضعهم. مفتونة بطيبتهم.

وأسأل نفسي بم أفيدهم؟

وأفكر فيك وأنت في بيتك الفرنسي، لا تجد الوقت لمشاهدة طلوع النهار. ولا الوقت لتبتسم.

وأعلم أنك، مثلي، ما تنفك تتعلم أن تعيش.

وعندما وصل شقيق يوسف ابتسم لي، وحياني قائلاً : «نهارك سعيد! ... كيف حالك؟ ... مرحباً ...».

ثم شرع يحدثني عن مهنته، فقال :

«أخذت جل معارفي في الطب عن والدي. فقد كنت دائم الطلب إليه في التعلم. وكان، بدوره، يساعد الناس، ويطبّبهم. وكذلك أفعل أحياناً، فأنا أحب مساعدة المعوزين ولا آخذ منهم أجراً عن ذلك. وقد أفسر لهم كيفية تحضيري الأدوية، فليس ذلك بسر».

ويضايقنا، دائماً، في ما يفسر لي، ويسهب في وصفاته، جهلي بالعربية.

وقد تتولى عالية الترجمة لي. وهي تتكلم الأنجليزية بطلاقة، لكنها لا تعرف أسماء بعض النباتات.

ويأسف أخو يوسف لذلك. فهو يريد أن يعلمني كل شيء.

وربما قام فجاءني ببعض الأعشاب موضوع حديثنا، فأتعرف منها، أحياناً، على تلك الأعشاب التي نستعملها كذلك في فرنسا، في تحضير الوصفات التقليدية. فأخبره بذلك. بيد أن معظم الأعشاب التي يأتيني بها يكون جديداً علي.

ولقد أصبحنا، بعد مغادرته الرشيدية، أشبه بالمتواطئيْن.

وبعد أن تفرغ آمال وعالية من عمل البيت، تأخذان في عمل التطريز. وقد تحوكان نجوداً. وكانت آمال تطرز، في هذه اللحظة، آية قرآنية. وهي تعمل في سرعة شديدة. وتصنع ما تصنع لأجل بيتها.

وما أكثر ما يرى المتجول في الرشيدية تجمعات من الفتيات والنساء يطرزن أو يشبكن على الطريقة الفلسطينية التقليدية.

والنساء في الرشيدية يمسكن إبرة الطرز في يد، ويحملن البندقية في أخرى. إنهن حارسات التقاليد الثقافية، بما يضمنٌ لها من استمرار في الزمان والمكان، ومقاتلات ينصرن الحياة على الموت الصهيوني.

الرشيدية : 25 مارس 1981

أمطرت منذ قليل. وتعطَّر الجو برائحة ذكية.

وامتزج عبق الورد بشذى الأعشاب، ورائحة روث الماعز، ورائحة الأرض المحروثة.

إنه موسم الزرع والجني.

وما أكثر العمل في الربيع!

تعلّق جميع أغطية الشتاء فوق السطوح. ويغدو الغسل عملاً مضنياً. إن أيام الغسل لمتعبة للنساء (فالغسل يصير عندهن عملاً يومياً، أو يكاد).

فأنت تراهن في جماعات، يحملن سطولاً خشبية ملآى غسيلاً فوق رؤوسهن.

وتظل النار موقدة في فناءات البيوت، منذ الساعة السادسة صباحاً، قد جعلت فوقها أوانٍ مختلفة أشكالها، ليسلّق فيها الغسيل.

وما أروع الصيد في الربيع! فالمياه تصير فيه أدفأ.

ويستعمل الصيادون، ها هنا، الديناميت في الصيد.

وما أخطره من صيد! فالرجال ينزلون البحر في الرابعة صباحاً.

لكنهم لا يمضون فيه بعيداً.

ولقد رأيتهم وقواربهم. ورأيت تفجرات الماء من حول قواربهم.

ثم تكتسي المراعي حلة خضراء وصفراء، مما تطلع أرضها من نبات الآذريون. وترعى فيها عنزات يغلب على ألوانها السواد، طويلة آذانها.

وتثقل الأشجا رَ بواَكر البرتقال وأواخره مجتمعات.

كل الأشجار، بلا استثناء.

وكذلك تزهر شقائق النعمان بوفرة في الغابات، وعلى ضفاف نهر الليطاني.

وقُلِبتْ تربة الحقول، فبرزت بواكر البقدونس والبقل.

وأورقت أشجار التين، وعرشت الكروم.

ولا شك أن الربيع مشابه في فلسطين!

وإن فلسطين لتكون في الربيع، كذلك، على بعد خطوتين!

وما أكثر الأيدي التي تعلمت، ها هنا، كيف تحرث أرض فلسطين!

فصارت هذه الأرض تنبِت من كل شيء. وكل ما ينبت فيها حي. يهتز حياة.

رأيت، أمس، ضفدعاً عند عتبة الباب. ورأيت سرعوفة بطول ستة أمتار، أو تزيد. ورأيت هريرات تلعب في خرائب البيوت التي تعرضت للقصف.

رأيت أطفالاً، وأطفالاً وأطفالاً.

ستمتلئ فلسطين أطفالاً!

بل إنها لكذلك. وكل طفل هو فلسطين.

فأنى للمرء الوقت لكي يموت؟ أنى له؟

إذْ عليه أن يبذر، ويجني، ويغسل، ويطعم، ويقبل زوجته، ويخيط ملابسه. وعليه أن يقرأ. ويكتب. وينصت.

وعليه أن يتعلم.

فالمرء لاتسعه حياته عندما يكون عليه أن يمضيها في البذر.

ولا تسعه حياته عندما يكون عليه أن يمضيها في تقبيل زوجته.

ما عاد للموت مكان في فلسطين. وانظر، بربك، إلى البسمة على محيا الناس. هل تجد فيها من مكان للموت؟

والنساء. إنهن يمشين مقوسات. واثقات الخطو. يحملن. ويلدن. ويهيئن الخبز. ويطعمن الأولاد. ويمخِّطنهم. ويقبلنهم. ولهن من الأبناء، وفيهن من الحب ما لا يجدن معهما الوقت للموت.

وعليهن أن يحادثن بعضهن. يتحادثن ويضحكن. إنهن يمضين سحابة يومهن ضاحكات.

فمن أين لهن القدرة على ذلك؟ وقد فقدن أبناءً، وأزواجاً، وبيوتاً. فقدن بلداً.

فلم ينل ذلك من حبهن للعالم. فهن يقلن لي : «بودنا أن نزور فرنسا!».

فأستحي من كلامهن.

أستحي من كون العمل في بعض البلدان عقاباً ينزل بالعمال. لأنني أحب أن أعمل ولأن على الإنسان أن يعرف الفرح الذي يبعثه العمل.

واستحياءً من كون الناس صاروا لا يجدون في بيوتهم ملاذات آمنة.

واستحياءً من وجود السجون والقنابل. واستحياءً من الأطفال والرجال والنساء الذين يموتون غيلة.

واستحياءً من حرمان الشعب الفلسطيني من بلده. ومن صمت الفرنسيين أبناء جلدتي على ذلك.

الرشيدية : 26 مارس 1981

أنجبت والدة ابتهاج طفلة، مساء أمس.

إنها مولودها الحادي عشر.

وقد مرت الولادة في ظروف جيدة.

وعندما وضعت والدة ابتهاج مولودها رفعت النساء عقيراتهن بالغناء.

واستمررن على حالهن تلك حتى اليوم الثامن.

وتعمل ابتهاج ممرضة متدربة في مستشفى البصرة.

وقد حكى أبو علي، ونحن جالسات نتدفأ بشمس الزوال، فقال :

«كنت في الثانية من عمري، ألعب فوق سطح بيتنا المكون من طابقين، فأبصرت بطائر. وعندما حاولت الإمساك به، هويت من فوق السطح، ووقعت بين الصخور.

ولقد فقدت وعيي.

وجيء لي بمجبر. فطبَّبني. ثم أسرَّ إلى أبي قوله : «إن لم تتحسن حالته بعد ساعات فما عليكم إلا أن تحملوه إلى المقبرة!».

وكنا نقطن في منأى عن المدينة. ولم تكن عند أسرتي سيارة، ولا أحصنة لحملي إلى المقبرة. ولم يكن من حل آخر. فأمر والدي بذبح عنزة، وسلخها، ثم ألبسوني جلدها وخاطوه علي. وجعلوا رجليَّ مكان القائمتين الخلفيتين، ويديَّ مكان القائمتين الأماميتين. وخاطوا علي الجلد حتى عنقي.

وبعد ساعات من ذلك، إمتقع لوني. وقيل إني صرت أزرق اللون. وبعد ست ساعات سُمِع بكائي. ثم استعدت رشدي، فرأيتني قد تحولت عنزاً. ثم أخذت أشعر بلسعات البراغيث والقراد. وقد لبثت في وضعي ذاك عشر ساعات. وعندما أخرجوني من ذلك الجلد شعرت بالتحسن، ثم استعدت عافيتي رويداً رويداً».

وتأتي عليَّ ساعات عارمة، تكون عزلة وتناغماً. وتكون حباً. فتتملكني فيها رغبة في البكاء والصلاة. بل ربما استولت علي رغبة في التلاشي في الهواء.

الوقت زهاء السادسة مساءً. إنه الشفق. إنه نداء الصلاة. تكون هذه الموسيقى، في هذه الساعة، أكثر من أية ساعة أخرى، نداء.

فهي تنفذ إلى جسدك، فتتحول بك. وتكتنفك. وتنوِّرك. وتسري في عروقك، وفي خلاياك. وتتبرعم في دخائلك. فإذا أنت نفسك والآخرون، في آن. إنه نشيد أشبه بالحب الخالص. اللحظة أهدأ ما تكون. وهي تخترق الصمت، وتمتلئ به. فتتماهى والصمت وموسيقى الصمت. وربما أصاخت إليها الأشجار أيضاً.

كأنها موسيقى يمامة، أوقف سهمٌ طيرانَها.

أو هي موسيقى حريق الصحراء.

إنها موسيقى تمجد الألم الأزرق والسخونة.

فهي هادئة وحزينة، معاً.

لا نملك إلا الإنصات إليها.

وعندما تتوقف، ينكسر شيء ما.

ولقد توقفت.

وبقيت ذكراها تلازمك.

الرشيدية : 27 مارس 1981

تغني أم علي أغنية حزينة عن فتاة تعيش في منأى عن خطيبها. وسرعان ما تنشج باكية.

وأنا أعيش ها هنا، في حزن من مبارحتي الوشيكة، وفي غمرة من السعادة التي يمنحنيها الناس، والألم الذي أجده في ما ألمس من معاناتهم. وعجزي في كل ذلك.

النساء ها هنا، عظيمات. وأكثرهن من الأرامل. والنساء اللائي تركهن أزواجهن وذهبوا للعمل في بلدان الخليج! وما أكثر الأمهات اللائي صرن بلا أبناء. وما أكثر الأبناء الذينْ صاروا بلا وطن، فهم في ترحال دائم بين المخيمات.

إن الرجال الذين يقيمون هنا قدموا من فلسطين. قدموا من قرى مختلفة، منها الجبلية ومنها الساحلية. كآريا، وسعسع وأم الفرج. وكلها أسماء حميمة!

يحدثني أبو علي، هذا الصباح. وكان نائماً فأيقظتُه. أو ربما لم يكن قد أغمض جفناً طيلة الليالي السابقة.

فقال : «نحن من سعسع، في شمال فلسطين. إنها قرية من الجليل. وأصبح الناس يسمونها، اليوم، «مخيم سعسع». وقد جعِلت مزرعة جماعية ليهود أمريكيين. وتقع القرية فوق جبل گرماك، أعلى بكثير عن سطح البحر. وهي تثلج شتاء. وقد أُنشئ فيها الآن خزان ماء.

وتملأ القرية، وتحفها أشجار زيتون عجوز. كما تحوي أشجار تفاح، وتعمر مراعيها قطعان الماعز والنعام. ويعيش سكان القرية جميعاً على الفلاحة، وجني الفاكهة والزيتون. وهم يصنعون زيت الزيتون. كما تزخر القرية بالذرة الجيدة.

وأرض القرية خصبة معطاء، تنبت كل أنواع الفاكهة نباتاً حسناً.

وكان والدي قد فقد أباه، عندما كان في الثامنة من عمره. وكان ابنه الوحيد. وكان والد أبي، كذلك، من سعسع.

وكانت جدتي قد عانت كثيراً في تربية والدي إلى حين بلوغه الرابعة عشرة.

وكان قد طلبها رجال كثيرون للزواج، لأنها كانت على ثراء واسع، وتملك الكثير من الأراضي. فكانت ترفض الزواج دائماً بسبب والدي.

وقد تزوج والدي وهو في الخامسة عشرة أولى نسائه. فقد كان من عادة الرجال، في الماضي، أن يتزوجوا باكراً. وكان لهم في ذلك حكمتان :

أولاهما أن الرجل عندما يتزوج في سن السابعة عشرة يكون أبناؤه في سن تمكنهم من مساعدته في العمل حين يبلغ الثلاثين.

والثانية أن الرجل عندما يتزوج وينجب أطفالاً، وهو بعد، في شبابه، فإن ذلك مما يشده للبقاء في القرية، يحيا حياته وسط الجماعة لا يفارقها. فتتقوى الجماعة من ذلك.

وقد أنجب والدي أطفالاً كثراً من زوجته الأولى. لكنهم ماتوا جميعاً. من دون سبب معروف. وكان قد حكى لي أنه رأى، ذات ليلة، في منامه عملاقا أخبره أن أطفاله سيموتون ما لم يتناول وزوجته بعض الأعشاب. لكنه نسي عند استيقاظه نوع تلك الأعشاب، وكذلك نسيت زوجته، التي حاول أن يوقظها خلال الليل، ليطلب إليها قلماً وورقة، ولم تشأ أن تستيقظ.

فتزوج امرأة أخرى، هي أمي، التي كانت تقربه قرابة بعيدة، وتنحدر من نفس قريته. فأنجبت له بنتاً وولداً (أنا)، وبنتين أخريين.

كان ذلك في عام 1936. وهي السنة التي شهدت قيام ثورة ضد الأنجليز. وكانت الحياة صعبة جداً. فكان الناس يقصدون المدينة ليبيعوا الخضار في أسواقها، ويعودون وليس في جيوبهم نقود.

(دام إضراب عام 1936 في فلسطين، ستة شهور[2]).

وكان لوالدي كذلك، دكان في القرية، كان يأتيه الناس من مدّخن سيجارة ومحتسي قهوة ومثرثر. وكان ذلك من والدي لحبه البقاء في القرية ورؤية الناس.

وكان والدي واسع الثراء. فقد كان يتاجر في الماعز والغنم. و لا زلت أتذكر بيتنا جيداً. وكان بيتاً عتيقاً. فيه درج خشبي نستعمله للصعود إلى الطابق الأول. وفي حديقته أحواض مستديرة. وفيه، كذلك، إسطبل للحصان، وآخر للحمار.

وكانت والدة أمي تملك الكثير من الماعز والغنم. كما كانت تمتلك ناقة وجملاً، لكي يتناسلا. وعندما تقدما في السن دفعت بهما إلى المجزرة. وكان الناس في القرية، وقتئذ يعيشون في فقر شديد. أما والدي فكان واسع الثراء. وكان مسؤولاً عن توزيع المساعدات التي تمنحها الحكومة. ولذلك كان يدفع ثمن الدقيق والسكر. فقد كان يملك النقود في وقت لم تكن عند غيره. ويأخذ في توزيع تلك المواد.

وقد حكى لي، ذات مرة، أنه كان يمضي ست ساعات ممتطياً جواده في الجولة التي يقوم بها لتفقد أراضيه. وكانت عرانس الذرة من الطول بحيث لم يكن يستبين منها حصانه.

وكانت لجدتي والدة أبي، كذلك، بقعة أرض صغيرة، كانت تقوم بنفسها على مراقبة العمل فيها. وقد غرست فيها كل أنواع الخضار. وكانت تسميها «مسرارة». ولم تكن تقبل أن يقوم غيرها على خدمتها. والحقيقة أن عملها في الأرض لم يكن يتعدى الإشراف على الأشخاص الذين تؤجرهم لذلك، ويتراوح عددهم بين عشرين وخمسة وعشرين. وقد حكت لي أن أربعين مختاراً تقدموا لخطبتها، لكنها رفضتهم جميعاً، خشية أن يحرم من تتزوجه منهم أبي حقوقَه، أو يبغضه، عندما تنجب منه أبناءً آخرين. لقد كانت زوجة جدي الثانية.

وفي وقت الدراس، يربَط حمار إلى درَّاسة خشبية تزن مائة كيلو يمتطيها رجل. وفي أسفل الدراسة صوانات. ويقدَّم التبن طعاماً للماشية.

وفي إبَّان الثورة أفلح أبي في اقتناء بندقيتين أنجليزية وألمانية. لكن الناس كانوا، في معظمهم، من الفقر، بحيث لم يكونوا يملكون من النقود ما يشترون به بندقية واحدة.

لقد كان سواد الناس عُزّلاً من السلاح.

وعندما وقعت مأساة دير ياسين[3]، في عام 1948، فاغتيلت أسر عن كاملها، وبقِرت بطون النساء، ورمِي الرجال بالرصاص ...، تملَّك الناسَ خوف شديد دفعهم إلى مغادرة الجليل جميعا، تاركين وراءهم كل شيء. أما والدي وجدتي فقد حملا قليلاً من المال وأغلقا باب منزلهما. واصطحب والدي معه زوجته وأطفاله. وبعد حين تبينوا أنهم نسوني

إذ كنت نائماً أسفل الدرج، فكان عليهم أن يعودوا لاصطحابي. وكان في نية الأب والجدة أن يبتعدا لبضعة أيام، إلى أن يستتب الهدوء. ولو أنهما كانا يعلمان أنهما لن يستطيعا العودة أبداً، لما غادرا بيتهما.

وقصدنا جبيِّل. ومكثنا فيها عشرة أيام. ثم تركناها إلى رميش. وكان لنا قطعة أرض بقرب القرية. فلبثنا هناك خمسة عشر يوماً. ثم أغلق الصهاينة الحدود بالأسلاك الشائكة. فأمرَنا اللبنانيون بالذهاب إلى عين الحلوة؛ حيث مكثنا ليلة واحدة. وكان عمري، وقتئذ، لا يتجاوز عامين ونصفاً، وعمر أختي ثلاث سنوات ونصفاً، وعمر أخويَّ الآخرين من زوجة والدي الأولى أحدهما خمسةَ أعوام والآخر سبعة أعوام.

وهناك قضى أخي ذو السبع.

وأنفق والدي ماله كله. وأصبح تتملكه سورة غضب دائمة. فلم يكن يرضى أن يراه أقرباؤه وأهل القرية في حاله تلك. ولذلك قرَّر أن يعتزلهم.

وكان يدرك أن عليه أن يبدأ حياته من جديد، بعد أن أغلق الصهاينة الحدود. فكانوا يطلقون الرصاص على كل من أراد أن يسترد أغراضه.

ثم رحلنا إلى بعلبك. وهناك سكنَّا مخيماً ينزل فيه الجنود الفرنسيون، يدعى «گود كامپ».

ولم يكن والدي ممن يجيدون عمل الأرض، إذ لم يكن زاوله من قبل. وكان يجيد القراءة والكتابة. فاقترح عليه أهل القرية أن يتولى مسؤولية المخيم. لكنه رفض.

ثم اقترض بعض المال من والدته، وفتح دكاناً لبيع البطاطس بالجملة.

وبدأ يجتهد لكسب قوته من جديد.

كانت الحياة شاقة في المخيمات.

فقد كان المسكن الواحد يضم عشر أسر. فكانت تعلَّق الأغطية لفصل الأسر عن بعضها. وكانت المياه والمراحيض معدومة ...

ثم فتِحت مدرسة، بعدئذ، في عام 1952.

وبدأت الدراسة.

وكان الأطفال الفلسطينيون، في هذا الوقت، يرتدون سراويل عريضة، مثلما لا تزال عادة الشيوخ إلى اليوم. وقد صنعت لي والدتي واحداً من هذه السراويل، لكنني رفضت ارتداءه. فقد كنت أريد سروالاً عصرياً، كالذي رأيت الأطفال اللبنانيين يرتدونه. ولقد أجابتني والدتي إلى ما طلبت. لكن سرعان ما أصبحْت، بهيأتي تلك، أضحوكة الأطفال الآخرين.

وكانت الدراسة صعبة، بالغة الصعوبة في البداية. فلم تكن في المدرسة طاولات، ولا كان فيها كراس. ولم يكن معظم الناس يملكون من المال ما يستطيعون به شراء الكتب والدفاتر لأبنائهم. ولم يكن جو البيوت مما يساعد الأطفال على تركيز انتباههم في ما يراجعون من دروس، أو تهييء ما يطالَبون به من تمارين(*).

ثم جاء الأمر بحلق رؤوس جميع الأطفال الفلسطينيين. وكان أستاذنا فلسطينياً من مكتب الأمم المتحدة لغوث اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأوسط[4].

وكنا نحو مائة طفل في المدرسة. وكان طعامنا فيها اللبن مخلوطاً بزيت كبد المورة.

وربما كان طعاماً صحياً، لكنني كنت أستفظعه.

وكنا قد طالبنا بفتح مدرسة أخرى. فتحقق لنا ذلك. وقد ضمت المدرسة الجديدة حتى المستوى الرابع.

وكنت قد شاهدت، ذات يوم، على شاشة السينما كيف يحلقون رؤوس السجناء. ومنذئذ، صرت أرفض أن يحلَق لي شعري.

فلماذا تحلَق رؤوس الفلسطينيين؟ فقد كنا ذوي شعور جميلة. وما كنا بمجرمين. بل أخرِجنا من ديارنا.

وكان محظوراً علينا الحديث عن فلسطين.

وأذكر أننا شنَنَّا إضراباً في عام 1961، لمطالبة مكتب الإغاثة بتمكيننا من المنح لمتابعة دراستنا.

وكان أن حصلنا من المكتب على 250 ليرة تمنَح سنوياً للثلاثة الأوائل عن كل فصل. وهو مبلغ هزيل. بينما تحتم على الآخرين أن يتحملوا تكاليف دراستهم.

---

* - (ملاحظة من المؤلف) أصبح عدد أعضاء جمعية المهندسين الفلسطينيين، حاليا ، 000 30 عضو .
وأصبح عدد المدرّسين الفلسطينيين : 000 111 وعدد الأطباء : 0 00 18 .

وكنت واحداً منهم.

ولقد انتقلت إلى بعلبك لمتابعة دراستي في إعداديتها.

وكان طلبة المدرسة ملزَمين بتمرين عسكري يؤدونه مرة في كل أسبوع، ويستثنَى منه الطلبة الفلسطينيون.

وكان الأساتذة يناصبوننا العداء. فكانوا يقسون علينا في التنقيط.

وكنا نتجمع للمطالبة بتعليم فلسطيني، فكانت الشرطة تفرق تجمعاتنا باستعمال العنف.

ولقد اعتُقلت، ذات مرة، فيما كنت ألقي خطاباً في أحد هذه التجمعات. فاقتادوني إلى المخفر. وضربوني طويلاً. وما كنت لأعود إلى بيتي لولا أن تدخَّل أحد العاملين في المخفر، وكان يعرف أسرتي.

فقرر والدي إبعادي. فانتقلت إلى طرابلس.

وهناك صرت وبعض الطلبة نجتمع في أماكن كان يعتقدها الناس مسكونة بالأرواح الشريرة، حتى لا يجرؤ أحد على مضايقتنا.

ثم قررت وأصدقائي، ذات يوم، أن نتوجه إلى سورية. ولم نكن نحمل جوازات لأننا لم نكن قد بلغنا، بعد، سن الخامسة عشرة.

فدخلنا سورية خفية.

وكنا نخطط للقاء جيش الناصر. وكانت سورية ومصر، في تلك الفترة، متحدتين.

ولقد عثر علينا بعض الجنود ونحن نائمون، قد افترشنا العشب. فأخذونا إلى دمشق. لكن لم يصدق أحد هناك، أننا كنا نريد الالتحاق بجيش تحرير فلسطين[5] في العراق. ولا وافق أحد على أن يحملنا إليه.

فقررنا العودة إلى لبنان.

وكان غيابنا قد طال سبعة أيام. ولم تكن أسرنا تعلم إن كنا أحياءً أو أمواتاً.

ولقد لامني والدي عما فعلت. فرددت عليه بقولي :

«لقد غادرتَ، أنت أيضاً، بيتك. وأما أنا فقد تركتكم أريد العودة إلى فلسطين. وسوف أظل أناضل في سبيل ذلك. فليس لحياتي قيمة بدونه. إنني أريد العيش في بلدي إنساناً حراً».

أم علي أرملة. فقد توفي زوجها. ولها ثلاث بنات. وتعيش مع ابنها الصغير ذي العشر سنوات.

وقد حدثتني، ذات يوم، عن مولِّدة تقليدية، عجوز تسكن غير بعيد عنها.

ولقد قصدناها في بيتها ذات ظهيرة.

فوجدنا أم محمد (وهو اسمها)، تجلس مستقيمة، أرضاً، تقتعد أريكة.

بيتها صغير جداً. ليس يحوي من الأثاث سوى سرير حديدي في ناحية منه، ورف وأريكة.

لكن كل ما فيه منسق أجمل تنسيق.

وعندما اقتربنا من المرأة قامت إلينا، فحييْناها.

إنها امرأة ضريرة.

ولقد تحدثتْ إلينا. فكانت تقطع حديثها بالبكاء.

وتتوقف عن الكلام، أحياناً، عندما يأخذ أبو علي في ترجمة ما تروي لي من أخبارها.

ومما قالت :

«إنني وحيدة في الدنيا. قلما يزورني أحد. وفي بعض الأحيان يأتي بعض الأصدقاء ليسألوني حاجتي.

لي ثلاثة أبناء. وقد انفقت عليهم مالاً كثيراً منذ أن توفي والدهم.

لقد جئت فلسطين أرملة وضريرة.

وكنت، في فترة فراري، قد صرفت ما كان معي من مال في بضعة أيام. فعملت حينئذ، خادمة في أحد البيوت، لأعول أطفالي. ثم زاولت مهناً أخرى كثيرة، كان أهمها صنع الأفرشة والأرائك.

ولي، الآن، بعض الجيران الطيبين. فأم علي تحمل إليَّ الخبز والطعام كل يوم، إذ لم يعد في مقدوري أن أقوم بنفسي على تهيىء ما أحتاج من طعام منذ أن فقدت بصري.

ويقطن أخي وأبناؤه في فلسطين. ويقيم جل أقاربي في الأردن. فلا أستطيع زيارتهم. وقد طلب إليَّ أخي، مراراً، أن أذهب للعيش معه، لكن أنَّى لي ذلك؟ وفي عام 1952 توفيت والدتي.

وها قد صرت قعيدة البيت، تطوقني حيطانه وسقفه. ووحده الله والجيران الطيبون يعينونني على الحياة.

وقد كنت سكنت البصرة، قبلئذ، وكنت لا أزال قوية. فكان في مقدوري أن أطبخ وأقوم بأعمال كثيرة. أما الآن، فقد صرت متعبة ومريضة، وأعاني ألماً دائماً في رأسي بسبب القنابل. وخوفي من القنابل.

وفي عام 1978 تعرض بيتي للقصف، وأُحرِقت أشجار حديقته. لقد دمَّر كل شيء فيه.

فكنت أجلس قرب باب البيت أحياناً، فيكلمني المارة، وقد يضعون في يدي بعض النقود. إنهم طيبون جداً.

وفي فترات القصف يسرعون إلي، ويأخذونني إلى حيث يحتمون. فليس بمقدوري أن ألجأ إلى الحمى بمفردي.

لقد فقدت بصري منذ أربعين عاماً.

ولا زلت أذكر أني غادرت البيت، بعد ولادة آخر أبنائي، في وقت مبكر. وكان الجو عاصفاً. فأحرقت الريح عينيَّ. ولقد استشرت الأطباء أكثر من عشرين مرة، لكنهم أكدوا لي جميعاً، أن عينيَّ قد احترقتا، ولم يبق لي أمل في علاجهما.

وأنا أعمل منذ أربعين عاماً من دون عيني. وأساعد النساء في الوضع، باللمس فقط.

فقد تعلمت فن التوليد في فلسطين، إذ كانت تلك مهنة والدتي، أيضاً. وهي التي علمتْنيها. وكنت، وأنا في فلسطين، أزور أربعاً وعشرين قرية لأولِّد نساءها. وكذلك كانت تفعل والدتي.

ولا زلت، إلى يومنا، أمد يد العون للناس، كلما احتاجوا إليَّ في ذلك. فأطبب الأطفال من آلام الحنجرة، وأداوي الانخلاعات والتواء المفاصل. وأقوم بأعمال التدليك وسواها كثير.

وعندما يحين أوان وضع امرأة، يأتي من يبحث عني. وألبث معتنية بالمولود وأمه مدة أربعين يوماً.

وعندما يولد المولود، أساعد الأم على النوم، قبل أن أقطع حبل السرة.

وإذا وضع المولود غسلته في الماء المالح، وألبسته ثيابه.

وينبغي، بعدئذ، دفن المشيمة، أو غشاء الجنين، في مكان خفي، وإتلاف دم الولادة لكي لا تصل إليه الأيدي الشريرة، فتصنع به رقية تمنع بها النفساء من الحبل مرة أخرى».

وتواصل أم الفرج كلامها، قائلة :

«أنا من قرية أم الفرج، المجاورة لنهارية. وكنا، إذ نحن في فلسطين، نملك حقولا وبساتين. ونعيش في ترف.

وكان جميع أبنائي يعيشون في ذات القرية، قبل أن يضطرهم القصف إلى الهجرة. وأما أنا فلبثت فيها.

ويعيش أحد أولادي، الآن، في بيت صفيحي. وهو حزين جداً لفقد أبنائه في عملية عسكرية، ووفاة زوجته. ولقد تعرض بيته للقصف. ولا يزال عنده أطفال كثيرون. وهو يعيش في فقر شديد. فلا يملك لي نفعاً. والبيت الذي يسكنه من القذارة والضيق، بحيث لو أسكنْته حماراً لقطع حبله وفر منه!

وأما هو فيعيش فيه، لأنه لا يجد مكاناً آخر يؤوي إليه أطفاله».

ثم أنشدتْ من أغاني الولادة :

للمولود الأنثى : «حمداً لله أنها ولِدتْ. وأنها حية. وأنها لا زالت حية في سريرها!».

ولوليدة الرجل الذي جميع أبنائه إناث، ويريد مولوداً ذكراً :

«نامي يا عزيزتي! نامي! وسأرسل إليك طائراً!»،

«أي طائر؟ لاتصدقيه، فلن أدعه يرسله أبداً!».

وتضحك. فنشاركها الضحك. لكنْ سرعان ما تتوقف عن الضحك، وتقول :

«إنني أضحك. لكن قلبي ينفطر ألماً. فحياتي تملؤها الأحزان. وكذلك عيناي وقلبي. لكن ما العمل؟ إنها مشيئة الله».

وتصمت، حيناً، ثم تقول :

«لا يغركما ضحكي!».

كان علي أن أعود إلى بيروت في هذا اليوم؛ 30 مارس.

فتركت المخيم، بعد أن تعرض للقصف طيلة الصباح.

سرت في صور الساحرة. وكان بين أهلها من يبيع السمك في الشوارع.

وكانت رائحة الصعتر تملأ الطرقات.

هو تل الزعتر؛ حيث أبيد 3 000 فلسطيني، بين رجل وامرأة وطفل.

لقد صارت جميع أسماء هذه الحرب وجوهاً.

ففي تل الزعتر فقدتْ مريم زوجها، ودياب أخاه.

ولقد قدِمت أم عماد وأم جيفاكو من قرية أم جبيِّل الواقعة في جنوب لبنان.

وقدِمَ أسد المتهتِّك من عكا الواقعة في فلسطين.

وألجأ بسام أسرتَه صيدا.

وأكلْت سمكاً كثيراً في برج الشمالي.

وفي الرشيدية ...

كتِبَ على حائط : «Welcome». وعندما ودعت بساماً، قائلة إنني سأعود، أشار إلى ما كتِب على ذلك الحائط، ضاحكاً.

الرشيدية : 15 أبريل 1981

عدت إلى الرشيدية ... من جديد.

فوجدت أناسها لا يزالون أحياء.

وقد كنت أخشى عليهم غائلة الموت إذ أنا في بيروت. لكنهم لا يزالون ها هنا قائمين.

ولقد قصِفت المدينة مراراً. فدمِّرت بيوت كثيرة. وأصيبَ رجل وطفل صغير.

قبَّلتني أم علي.

وقال لي بسام إن أسرته لم تتضرر من القصف المتكرر، الذي استهدف صيدا.

لكن كم هم أولائك الذين تضرروا من القصف، ممن لا أعرف؟

كانت فريدة وابتهاج في المطبخ. إنهما يعلمانني الرقصْ.

وكنت إذا جئتهما، أغلقتا الأبواب حتى لا يرانا أحد.

وإذا مررت بقرب بيت أم عماد تناهى إليّ صوتها الجهوري في الشارع.

وغادر أبو علي الرشيدية. فقد أنزل أسرته شاتيلا. وذهب يطلب العمل.

وقد استقللت، في عودتي إلى الرشيدية، سيارة أجرة، يسوقها فلسطيني. ولقد قص علي من حياته :

فقد عمل في ألمانيا، وفي أبو ظبي، وفي العربية السعودية.

ثم عاد إلى البصرة حيث تقطن أسرته. وقد كان دائم التفكير في زوجته وابنته وهو في ديار الغربة.

لم ينجبْ سوى بنت واحدة، بسبب الحرب. ولولاها لكان أنجب اثني عشر طفلاً.

وكانت والدته أنجبتْ سبعة عشر من الأبناء. توفي ثلاثة منهم. ولا يزال ثمانية ذكور وخمس إناث أحياء يُرزقون.

ويعمل اثنان من إخوته مدرِّسين. أحدهما متزوج ويعمل في ألمانيا. وله طفل واحد. والآخر يعمل في الأرض، في الجنوب، قريباً من هنا. فيما تفرق بقية إخوته وأخواته على مختلف الأمكنة.

— كم من الأسر الفلسطينية مزِّقت، وتفرق أعضاؤها إرباً إرباً في كل أنحاء الدنيا؟

وكم من الرجال يفكرون في نسائهم، وإخوتهم، وأطفالهم؟ وكم هي الليالي التي يقضيها الإنسان الفلسطيني وحيداً، وكم من حداد، وكم من فراق، تحمَّل هذا الشعب الذي ليس سوى جسد واحد؟

كم؟

وأما هو فيعمل سائقاً. وكان قد أتى بسيارته من ألمانيا؛ حيث عمل مدة ثلاث سنوات.

وقطع على متنها البلدان التي تفصله عن بلده، في سبعة أيام، لملاقاة أهله.

وهو يعيش، الآن، في البصرة، يسكن بيتاً كبيراً، بمعية والديه وإخوته.

وهم في هذا البيت ستة وثلاثون، بين أبوين، وإخوة وأبناء.

وقد كان والده صياداً. وكذلك كان عمه. (كان فقد إحدى ذراعيه في الصيد). أما هو فقد خشي على نفسه من هذه المهنة الخطرة.

لكن السياقة خطيرة هي الأخرى. فالطرق رديئة. والسائقون متهورون أحياناً.

وقد تقدم السن بوالديه الآن. فالأب في السبعين، والأم في الخامسة والخمسين، أو ربما كانت في الستين. وعليه أن يساعدهما. فهو يعطي أمه عشر ليرات، ومثلهما لزوجته كل يوم. وينفق نفس المبلغ في شراء البنزين للسيارة. وما يتبقى له من نقود ينفقه في شراء السجائر والشطائر عندما يعضه الجوع.

وهو يعمل كل الأيام، باستثناء يوم الأحد أحياناً. فيخرج، حينئذ، للتجول رفقة زوجته وابنته. ولو شاء أن يصطحب معه أسرته كلها، لاحتاج منه الأمر حافلة!

ولكل واحد من إخوته وزوجته وأبنائه في البيت غرفة مستقلة ومطبخ. فالبيت كبير. وجميع إخوته يعطون والدهم نقوداً. ومع أنهم لا يملكون الكثير من المال، إلا أن ما عندهم منه يكفيهم.

وقد حكى لي أن أحد إخوة زوجته، أصبح مُقعداً. فقد قال عنه : «ليس له ساقان. فقد أعطاه الله ساقين صغيرتين لا يقوى على تحريكهما». فهو يحمله، كل يوم، بسيارته في جولة في المدينة. وهو متزوج، وله أبناء.

أهذا كل شيء؟ كلا !

ويقول لي : «تعالي إلى بيتي، وسترين أسرتي. إنني أسكن في مدخل المخيم، بجوار المستشفى. فهل تأتين؟».

ولسوف آتي، بالطبع، لرؤية الأطفال، والأمهات، والأب الصياد. سوف آتي لرؤيتهم وتحيتهم. سوف آتي لأقول لهم نهاراً سعيداً.

لسوف أزورهم.

وكانت أسرته قدمت من قرية صغيرة جداً، في فلسطين، قريبة من الناقورية .

وإنك لتجدني خائفة، أحياناً. عندما ألتقي الناس. وقد صرت، الآن، أفكر : «وماذا لو سقطت قذيفة على بيت ذلك السائق في البصرة؟ وعلى أسرته ذات الستة والثلاثين نفرا فقتلتهم جميعاً؟».

جاءتْ جارتاي الصغيرتان بنتا أمِّ عماد، وِسام وصُبيَّة، لزيارتي في بيتي.

فحدثتاني، في البداية، عن كلب لهما. فكنت أسألهما : «كم عمره؟ وكيف جيء به إلى لبنان؟ وهل يعض؟».

وإذا بالباب يُقرَع، فسمعنا من يقول : «إنه كلب جيد! إذا فتحتِ الباب خرج أولاً».

ثم حكت لي صبية عن مقتل أبيها، قبل خمسة أعوام. ولقد كان رجلاً طيباً. وكان يمتلك كلباً، كذلك.

وكانت وسام، يومئذ، في شهرها السادس، وصبية في سنتها الثامنة، ومحمد أخوهما، في سنته الثانية.

لقد اغتالت والدَهما الكتائب[6] .

ووقع مقتله على الأسرة موقع الصاعقة. فلقد أحس أفرادها كأن يداً تخطفت والدهم من بينهم دونما إشعار.

وكانت الأسرة تسكن بيروت. وثمن رغيف الخبز الواحد فيها، يومئذ، ليرتان.

وكانت أم اعتماد في الخامسة والثلاثين. ولها ثمانية أبناء.

ويعمل ابنها الأكبر طبيباً في السويد. وقد تزوجت كبرتا بناتها. وتسكن إحداهما شاتيلا، والأخرى أبو ظبي. ويعمل ثاني أكبر أبنائها في منظمة التحرير الفلسطينية. أما ثالث أكبرهم فهو الذي قتل خمسة صهاينة، عندما كان في الثانية عشره من عمره.

وصبية في الثانية عشرة، وتدرس في القسم السادس. وهي تلميذة نجيبة.

وأما وسام ففي الخامسة. ومحمد في الثامنة.

وأم عماد في الأربعين. وهي تعمل. وتتلقى، كذلك، معاشاً من منظمة التحرير الفلسطينية.

ولقد أصبحت وسام ومحمد يعيان أنه لا ينبغي لهما أن يلعبا بما يصادفان في طريقهما من أشياء.

فقد مات طفل جيرانهم من اللعب بقنبلة كانت ملقاة قرب بيته. فأطارت ببطنه.

وكانت والدته الحامل قد توفيت قبل شهرين من وفاته.

ومات أطفال آخرون، في مدينة صور، من اللعب بلعب مفخخة، في عام 1978.

فأصبح الأطفال، منذئذ، يحترسون من اللعب بما تقع عليه أعينهم من لعب، خشية أن تكون قنابل مغلفة.

وقد تكون اللعبة، أحياناً، كرة، وتحت الكرة لغم.

وكان أحد أفراد أسرة من ساكني المخيم خرج من مخبئه، بعد توقف القصف، بحثاً عن الطعام.

وكان ذلك في شهر رمضان.

وفيه يتم تناول طعام الإفطار، في اليوم الأول، في حوالي الساعة السادسة والنصف مساء.

وكان بعض الأطفال يلعبون بقنبلة.

فانفجرت.

وأودت بحياتهم جميعاً.

وخرج، ذات يوم، ولد وبنت من أسرة أخرى. فالتقطا شيئاً من على الأرض. وإذا هو قنبلة، فانفجرت، واقتلعت ساقي الطفل.

وأصابت الطفلة بجراح في يديها ووجهها.

ولقد صاحت الطفلة مما أصاب أخاها : «لقد فقد أخي ساقيه!».

وجاء إليها الأب راكضاً. فقالت له، ممسكة شيئاً ما : «كان يلعب بهذا». فصاح بها الأب : «دعي ذلك عنكِ!».

لكن بعد فوات الأوان.

فمات ثلاثتهم.

ثم قالت صبية بالأنجليزية، معلقة على ما روت : «ألا ترين أنه أمر غريب جداً أن يقضي ثلاثة أفراد من نفس الأسرة في نفس المساء؟».

و«غريب» هي نفس الكلمة التي استعملتْها صبية في وصف الشقاء الذي لاقته في حياتها، بعد مقتل أبيها، طيلة الأعوام الثلاثة التي قضتها في بيروت.

و«غريب» هي نفس الكلمة التي استعملها أبو علي، عندما تحدث عن ذلك المتزوج حديثاً، الذي حمله إلى ساحة القتال؛ حيث فقد إحدى ساقيه.

و«غريب»، ها هنا، تعني «رهيب».

وتمطر مدراراً فوق المخيم، هذا المساء. دموع أرامل لم يعدن يبكين. أطفال ونساء حوامل يقتَل أبكارهن.

إنها تمطر فوق الحياة والموت. تمطر هذا المساء ماء.

وستمطر غداً قنابل.

وربما سيكون لسائق سيارة الأجرة الذي أقلني إلى هنا، إثنا عشر طفلاً.

وهو، لذلك، يترقب السلام.

«السلام»، ها هنا، يعني «فلسطين».

لقد مكثت الطفلتان معي طويلاً.

وكنا نتحادث مقتعدات حافة السرير.

وكانت صبية تأكل ليمونة بالملح والفلفل الحلو. إنها تحب ذلك كثيراً. وقد سألتها : «ألا تؤلمك معدتك، أحياناً؟». فأجابتني : «لا. بل كثيراً ما تؤلمني ساقاي وقدماي. أما معدتي فلا».

علمت، هذا الصباح، أن أناساً لاقوا حتفهم أثناء عملهم في حقلهم.

كانوا امرأة، وشيخاً وولداً.

وكان جنود حداد قد وضعوا، ليلة أمس، ألغاماً في الحقول. وهم يعرفون من يعمل في هذه الأراضي. وفيما كانت المرأة، والشيخ والولد يقلبون الأرض، انفجرت الألغام في وجوههم.

لقد أصبحت الأرض تحوي ألغاماً.

بعد أن كانت تحبل حياة.

لقد صارت تستحوذ عليَّ صورة.

يظهر فيها كل الفلسطينيين الأموات، وهم ينهضون، مثل السنابل تنتشي بشروق الشمس.

جميلين، وأشداء.

فيرتعد العالم من شدتهم.

رأيت، اليوم، أن أشجار الليمون الحامض والبرتقال قد صارت مثقلة أزهاراً وثماراً يانعة. وإني لتعجبني هذه الأشجار العنيدة.

إن الجنوب يبدأ، حقاً، برائحتها.

كما تبدأ پروڤنس برائحة الزياتين.

الرشيدية : 16 أبريل 1981

الوقت ضحى.

وقد سمعنا في الساعة الخامسة وقع خطى المارة في طريقهم إلى العمل.

ثم استيقظت أم عماد، وصبية وبقية الصغار في ذات الساعة.

فكانت تتناهى إلى مسمعي أصواتهم الناعسة.

إن البيوت كأنها شفافة، لا تكاد تخفي شيئاً مما يجري داخلها.

وأنت تسمع أزيز أبوابها إذ تفتَح، كأن الصباح يطرقها بيتاً بيتاً.

ثم يبارحها الرجال، فتدب الحركة في الفضاء.

ولعبت وصبية الكرة.

ثم جاءت أم عماد لترى غرفتي الجديدة.

لكنني وجدت الجميع مكتئبين، هذا الصباح.

ثم جاءت أم جيڤاكو، في الساعة التاسعة. وكانت تتنفس بصعوبة. وتبدو متعبة.

وعرفت أن الجميع حزانى لموت ثلاثة أشخاص، يوم أمس، من انفجار ألغام زرعها جنود الاحتلال في حقلهم.

ولقد بكى، أمس، موتَ أولائك الأشخاص جميعُ من في المخيم القديم (أول ملجإ آوى إليه الفلسطينيون، بعد أن فروا من الجليل المدمى في عام 1948).

وجمِعت أشلاء الأشخاص الثلاثة، ودفِنت مجتمعة في قبر واحد.

فما أصعبها حياة هذه التي يحياها الناس هنا! إن كل واحد منهم قد فقد قريباً. وكل واحد منهم قد رأى صديقاً له، وهو يموت.

الأطفال يموتون. والنساء يمتن. كما يموت الرجال في كل يوم. كل يوم.

كان القصف الذي استهدف المخيم ، قبل أيام (في ليلة 8 و 9 أبريل) مهولاً، امتد إلى محيط المخيم القريب. وفي ليلة أمس، قتِل أحد أصدقاء أم جيڤاكو. وكان أباً لأطفال كثيرين.

وقصفت إسرائيل الرشيدية، في الساعة الثانية زوالاً.

ولاذ الأطفال، والنساء والرضع بالمخابئ.

ولحق بهم بعض الأطفال راكضين.

وفي الساعة الثالثة زوالاً، خرج الجميع من مخابئهم. يتقدمهم الأطفال. ضاحكين. مستبشرين.

الرشيدية : 17 أبريل 1981

أمضيت هذا الصباح عند أم عماد.

ولقد جئتها، فوجدتها تدخن سيجارة، وقد اقتعدت درجة من سلم البيت.

وعندما حييتها أومأت برأسها، في تعب، أن انظري إلى الدسوت الممتلئة غسيلاً ينبغي تنظيفه.

وفي البيت بئر وبرميلان من صفيح لحفظ الماء. فهي تأخذ الماء، تارة، من البئر، وتارة أخرى، من أحد البرميلين لتنظيف الغسيل.

ثم تستقيم منتصبة، بين الفينة والأخرى، فتعلق ما نظفت من غسيل أبيض في حبال. ليتقطّر.

وأما الملون منه فتحمله إلى ترعات الري، التي تخترق الحقول، وتمتد على طول الطريق؛ حيث اعتادت أن تغسله.

وهي ترفض أن أساعدها في غسله. فإذا هممت بمساعدتها قالت لي : «انظري فقط!». ثم تنزل الترعة حافية القدمين. فتبتل أطراف سروالها. وتشرع في تنظيف قعر الترعة، لتزيل ما فيه من الطحلب. ثم تشرع في الغسل. بحركات قوية، وثابتة.

ثم تحمل الغسيل فوق رأسها. وتقفل عائدة إلى البيت.

فإذا جاءته، شرعت، من توها، تقشر البصل الطري، قائلة لي : «لم يعد عندنا مال ... المدرسة، والأولاد، والثياب». وهي تتكلم، لكنني لا أفهم جيداً ما تقول.

وأثناء ذلك، تصل مسامعَنا، من بعيد، فرقعات القصف. أهي صور، الآن، تُقْصَف؟ وفي الثانية صباحاً خلدت صبية وأمها للنوم، بعد أن أمضيتا سحابة يومهما تساعدان جارتهما، التي تعيش وحيدة، وتملك فرناً، في تهييء أقراص الحلوى.

الرشيدية : 18 أبريل 1981

التقيت، هذا اليوم، امرأة.

وكانت قد فرت مع والديْها من فلسطين، في عام 1948، عقِب مذابح دير ياسين.

وقتل الصهاينة زوجها قبل سنتين.

وقتلوا ابنها، كذلك.

وقد سكنت البصرة، حتى عام 1966. ومنذئذ، تسكن الرشيدية.

ولن تبرح الرشيدية إلا إلى فلسطين.

إن فلسطين لنهر من الدموع، والتعب والدم.

إنها الوليد ذو الشعر الأسود. وعينا هذه المرأة الكبيرتان. إنها البرتقالات ثمار العمل الفلسطيني.

فلسطين بسمة جيڤاگو، وبهاؤه. ويدا أم عماد.

فلسطين أربعة ملايين رجل، وامرأة وطفل.

فلسطين الصيف الأصهب، والريح الحبول، والحياة الجميلة.

إن فلسطين هي السلام، والحرية والشرف.

ثم ذهبنا لمعاينة الخسائر التي ألحقتْها القذائف، التي أُلقيتْ على بستان رأس العين.

فوجدنا أرض البستان قد اخترقتها خمسة ثقوب هائلة. والأشجار اقتلِعت. وطوح بها عصف الانفجارات على بعد عشرين متراً.

ثم رأينا داراً كبيرة دمِّرتْ في عام 1978.

لا سبيل للمرء إلى النجاة بنفسه من مثل هذا القصف المدمِّر. وفلسطين على مبعدة كيلومترين.

ثم رأينا بيتين آخرين.

إنهما على ساحل البحر. فلم نستطع الدنو منهما، إذْ توجسنا أنهما ملغومان.

لقد كان هذان البيتان، من قبل، روضتين.

كانا يشرفان على البحر، الذي لا يزال الواقفُ على أطلالهما يسمع تنفُّسه.

وكان يكتنفهما أريج أشجار البرتقال.

وقد مُدَّتْ أمام البيتين سكة سريع الشرق القديمة.

تحت أشجار الليمون الحامض المزهرة.

فما أعظمها سكينة تنبعث من هذا المكان!

ربما كان يعتري راكب القطار، إذ يجتاز هذا المكان، شعور أنه يجتاز الجنة!

ثم تطالعنا صور. المدينة الأثرية. تلك المقبرة الفينيقية القديمة.

مقبرة يحرسها الفدائيون.

وقد نصبوا المدافع المضادة للطائرات، تحمي صور.

صور القديمة. صور الجديدة. صور المهدمة.

صور بكاملها. والعصور المسروقة من تاريخها.

وكانت المقبرة الفينيقية قد أمطِرت، من قبل، قنابلَ.

فأصبح الفدائيون يخصونها بالحراسة، باعتبارها أقدم عصور صور، وهديةَ المدينة للحياة الحاضرة.

الجمال والشرف، ممتزِجان، يمدان المقاتلين بما يعينهم على خوض ما يخوضون من صراع من أجل البقاء.

وها هنا النساء باذخات.

ومن هؤلاء النساء أم علي، وأم عماد. وهما أرملتان.

إن النساء متجذِّرات في تربتهن لا يتركنها. ولو بقين وحيدات.

وأنت ترى أطفالهن، يشبون، ويلعبون في أزقة الرشيدية وشوارعها، وتلفح وجوهَهم الريح التي تهب عليهم من فلسطين القريبة.

محملة بأريج فلسطين.

فتهيج في أنفسهم الحنين إلى الوطن.

وتفعم قلوبَهم بالحماس للعودة.

وتدفئهم كلما شعروا بالوحدة.

فإذا فلسطين قد صارتْ أباهم الذي لم يروه.

الرشيدية : 19 أبريل 1981

قصف جنود حداد البلدة، هذه الليلة.

فدمروا بيتاً مجاوراً لبيتي.

وبيتاً آخر يبعد عنه قليلاً. ولقد سقطت القذائف فوق بيت ليلى فور مغادرتها له. فوجدناها واقفة عند بابه، في الشارع.

لم يبق للبستان أثر.

ودمِّر البيت، إلا جدرانه الخارجية، فقد بقيتْ متشبثة بالأرض، وتلوح كأنها معلقة في الفضاء. تخترقها ثقوب.

وكانت شظايا القذائف منتثرة في كل الأنحاء. يلتقطها الأطفال.

ولقد أمضيت ليلتي عند أم جيڤاكو.

وعندما هممت بدخول حجرتي في الصباح وجدت زجاج جميع النوافذ مكسراً.

ووجدت، داخل غرفتي، كذلك، شظية قذيفة.

وقيل لي إن الأطفال يلتقطون شظايا القذائف. ليذيبوها، ويصنعوا منها بعض الأدوات.

فإذا أنت رأيتهم، أدركت مشقة السبيل إلى فلسطين.

الرشيدية : 20 أبريل 1981

قتل حداد والإسرائيليون عشرين شخصاً، أمس، في صيدا.

وأصابا ستين آخرين بجراح.

وأطلقا صاروخاً على أحد المطاعم في المدينة. واليوم أحد.

وقصفا الشارع، أيضاً، بعيْد الزوال.

وأضرم أحد العملاء النار، بعدئذ، في كنيستين، بغرض الإثارة.

ويجري دفن الأموات، هذا الصباح، في صيدا.

وقد حضر مراسيم الدفن 50 000 شخص.

وأغلقت المدينة دكاكينها.

وكان بين الأموات صديق لي كان قد انتقل إلى صيدا، قبل شهر.

وقد لقي حتفه عندما كان يتبضع لمنزله.

الرشيدية : 21 أبريل 1981

توجهت، ذات يوم، إلى بيروت.

فقد كانت الرشيدية، يومئذ، تحت القصف.

ولقد استمر القصف من زوال ذلك اليوم إلى زوال اليوم الموالي.

فأتت القذائف على زجاج منزل أم جيڤاگو، إلا أقله.

وسقطت قنبلة فوق منزل يوسف، فأحدثت في سقفه ثقباً كبيراً.

وذهبت آمال تصحبها عالية، في صباح اليوم الموالي، وكان يوم ثلاثاء، لرؤية منزلها عند شاطئ البحر.

بعد أن توقف القصف.

فبدا لهما سليماً من الخارج.

ثم نظرتا من الداخل ...

فوجدتا الجدار الذي علِّقتْ عليه آية قرآنية، كانت طرزتها آمال، لا زال قائماً.

وفي أسفل الجدار ثقب هائل.

فالقنبلة قد استقرت في باطن الأرض من منزل يوسف.

ولن يكون في مقدور يوسف وآمال أن يدخلا منزلهما أبداً.

وسيظل المنزل كما هو. وستظل القنبلة حيث هي.

ولقد مرضت آمال من حزنها على منزلها.

وتمنيْت ليوسف أن يحصل، في القريب، على بيت جديد. فقال : «في فلسطين!».

ثم حدثني عن التقاليد الفلسطينية المتبعة في تسمية الأطفال.

فقد سماه شخص ما «أبو مصطفى». وقال لي إن والده كان يسمى «مصطفى»، وإن حفيده سيسمى «يوسف».

فسألته إن كان أخوه الأكبر قد سمى ابنه الأول مصطفى. فقال إن ذلك ما كان يجب عليه، لكنه لم يفعل.

ثم قال لي، في تفسير ذلك :

«إن بعض الأطفال يكونون، عند ولادتهم، في حالة صحية سيئة. فيحمَلون إلى الشيخ. فيقرأ هذا في كتاب، ويكتب تميمة للوليد. وقد يقول أحياناً : «ليس ما هو عليه من سقم بسبب اسمه. ولسوف يتعافى قريباً». وربما قال : «لا يلائمه هذا الاسم. وينبغي تغييره، وإلا مات!».

ولذلك يقول يوسف إن ابن أخيه يحمل اسمين. وكذلك عالية، وأحد إخوته.

والطفل من هؤلاء يسمى باسمه الثاني.

وهذا تقليد قديم عند الفلسطينيين.

وقال لي يوسف، كذلك، إنه يُمنَع على الأب أن يسمي ابنه باسمه. مثلما يمنع على الأم أن تسمي ابنتها باسمها.

ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا عندما يتوفى الأب، ويترك زوجته حاملاً بذكر. أو تموت الأم، عند وضعها بنتاً.

ويوسف ذو وجه صبوح، دقيق القسمات. وهو لا يتورع عن الضحك ما وجد إليه سبيلاً. وإذا ضحك فبجميع أعضائه. فهو يتمايل أماماً ووراء. وقد يقهقه، لكن في اعتدال.

غير أن يوسف لا يضحك، هذا المساء. فالرشيدية غارقة في حداد وألم.

ثم أضاف، قائلاً :

«تمتلك أسرتي بعض الأراضي في فلسطين. وكان والداي قد جاءا، منذ أمد بعيد، من قرية أم الفرج. وكانت تملأ أرضَهما أشجار الزيتون والفاكهة والزروع.

ولا نزال محتفظين بكل وثائق ملكيتنا لتلك الأرض.

وهي وثائق تعود إلى ما قبل الانتداب البريطاني. بل إلى ما قبل الاحتلال التركي.

وذات يوم زارنا صحافي أمريكي. وتحدث إليَّ وإلى والدتي.

ثم التقط صوراً من عقود ملكيتنا. وهي كثيرة.

وكذلك حدثناه، ولا سيما أمي، عن الحياة في فلسطين، وفي أم الفرج. وعن حياتنا منذ أن كنا هناك.

وصوَّرنا له جمال حياتنا في فلسطين.

ثم توجه هذا الصحافي إلى فلسطين المحتلة.

وهناك بحث عن قرية أم الفرج.

لكن كانَ كل شيء قد تغير.

فلم يعد للقرية وجود.

ورحّل عنها من بقي فيها. وأُجبِروا على الاستقرار في مكان آخر.

وفي الأخير، التقى الصحافي شيخاً، فسأله أين توجد قرية أم الفرج.

لكن الشيخ تهيّب، أول الأمر، من الحديث إلى ذلك الصحافي. ثم ما لبث أن أشار بأصبعه، يحدد له موقع القرية على بعد ثلاثة كيلومترات تقريباً.

ولقد غيِّر اسم القرية. فهي، الآن، «بناني».

وعندما بلغها الصحافي، سأل شاباً في نحو الخامسة والعشرين : «ماذا تعرف عن أم الفرج؟». فرد الشاب : «لا شيء!».

وكان في أم الفرج!».

ثم استطرد يوسف قائلاً :

«نحن لا نضمر عداء لليهود. فقد كان طبيبان يهوديان يعملان في مقربة من قرية أم الفرج. وعندما كان يمرض أحد إخوتي، كانت أمي تمضي به إلى أحد هذين الطبيبين. فقد كانت العلاقات فيما بيننا ودية.

وعندما فر اليهود من أوروبا، واستقروا بيننا، فتحنا لهم بيوتنا. فأنتم تعلمون أن ثقافتنا توجب علينا استقبال الأجانب في بيوتنا. وينبغي أن يكون عندنا، دائماً، شيء نقدمه للأجنبي» .

—— ولعمري إنه عين الصدق. فلكم رددت أم جيڤاگو على مسمعي قولها : «ليس هذا بيتي، بل هو بيتك!» ——

«لكن الصهاينة استغلوا ضيافتنا. وانقلبوا علينا.

غير أن ذلك لم يؤثر في معاملتنا للأوروبيين بالحسنى. فلا زالت على حالها.

أولاً، لأن الضيافة واجب ثقافي علينا.

وثانياً، لأنه يهمنا كثيراً أن يغير الأوروبيون رأيهم في الشعب الفلسطيني، وموقفهم من حقوقه، هم المتأثرين في أغلبهم، بالدعاية الصهيونية.

وكذلك استقبلنا صحافيين من ألمانيا الغربية. فوقفنا بهم على خرائب بيوتنا. وتحدثوا إلى الأرامل. ورأوا الأطفال الذين فقدوا آباءهم. وقدمنا لهم أبناءنا الذين كنا نعدهم للتدرب على استعمال السلاح.

وعندما عاد أولئك الصحافيون إلى بلدهم، كتبوا سلسلة مقالات بعنوان «مدرسة القتلة».

وما كنا نطمح إلى أن نجعل من أولادنا قتلة.

فالقدس مدينة السلام.

إن بيت لحم تعني «مدينة السلام».

ولقد تحدث ياسر عرفات في مجلس الأمن الدولي، في عام 1974، فقال قولته : «لقد جئتكم أحمل بندقية في يد، وغصن زيتون في يدي الأخرى. فلا تسقِطوا غصن الزيتون من يدي».

وأما إسرائيل فقد اقتلعت ما في البلد من زياتين، زرعها الفلسطينيون.

وينكل الإسرائيليون بنباتات فلسطين بسقيها سموماً. وقد يسقون حيواناتها أيضاً».

عندما ودعت يوسف تذكرت قصة كانت روتها لي أم جيڤاگو :

«يتحدث الله ومحمد في الجنة. وينظران صوب الأرض. فيريان الناس ينعمون داخل بيوتهم؛ أولئك هم السوريون واللبنانيون.

ويريان آخرين قد افترشوا العراء. فيسأل الله نَبِيَّه : «من هؤلاء؟».

فيجيبه : «الفلسطينيون. فقد حُرِموا، من قبل، بلدَهم، وهم، الآن، محرومون من سكن يأويهم».

وفي يوم الأحد الماضي (في ليلة السبت وصبيحة الأحد)، ألقِيَتْ قنبلة على بيت أم مصطفى، فدمرتْه.

وللمرأة ثمانية أطفال. أصغرهم في ربيعه الثاني. وأكبرهم في الخامسة عشرة.

ثم أعاد زوجها بناء البيت، بمعية ثلاثة من أصدقائه.

ولقد استوى الآن.

الرشيدية : 22 أبريل 1981

تمضي الحياة، ها هنا، ثقيلة. كأن اليوم فيها قد استحال شهراً.

بسبب القصف المستمر، والموتى اليوميين. والبصق في وجوه الإسرائيليين القذرة. وكلها تعتبَر أعمالاً يومية. كالأكل، والشرب، والخياطة، والإنجاب ومشاهدة التلفاز.

ويفسر لي جيڤاگو، ذو الأربعة عشر ربيعاً، ما أسمع، بين الفينة والأخرى، من ضجات. فيقول إنها أصوات القذائف والصواريخ التي يرسلها حداد على الرشيدية. فيسمع لها المرء أصواتاً ويحِس أنفاسها حارقة.

إن ضجات إسرائيل تتناهى إلينا بعيدة.

والطائرات تأتي، دائماً، من إسرائيل.

وأما الضجات التي نسمعها قريبة، فهي تصدر من المكان الذي نحن فيه.

ويقهقه جيڤاگو ضاحكاً من جهلي.

وتمر الطائرات. ولا يتوقف الغسل.

وتستمر الحياة على سكينتها. ضداً على الطائرات التي يطلقها الموت. وضداً على الصواريخ التي تحصد البيوت. ويتجلى إصرار الشعب الفلسطيني في كل نظرة منه، وفي كل حركة يأتيها، وكل كلمة.

«بلدْنا فلسطين».

ما أروعها أسرة هذه التي أعيش بين أحضانها.

فلارا، التي هي في ربيعها السابع، تحكي، بجمالها، فلسطين مجازاً. ورَضى مفعمة دهاء. وعالية مدوَّرة كتفاحة. وهي دائمة الضحك.

وجيڤاگو فدائي. ورامي غائب وساه في الخارج. ويهديني وروداً كل صباح.

وتعنَى أم جيڤاگو بنساء فتح وروض الأطفال.

ويعنَى أبو جيڤاگو بالنادي، الذي يستغرق وقته كله.

زرت أم عماد فحكت لي صبية، قائلة :

«تزوج جدي مرتين. وكانت زوجته الأولى لبنانية. وهو فلسطيني. وقد أنجبت له ذكرين، هما أبي وعمي. ثم توفيت.

وكانت زوجة جدي الثانية فلسطينية. وقد أنجبت له، هي الأخرى، أطفالاً.

وفي عام 1948 قدِم أبي إلى لبنان، واستقر في قرية بنت جبيل. وهناك التقى والدتي.

وقبل أن يغادر جدي فلسطين، أوصد باب بيته فيها بإحكام، واحتفظ بالمفاتيح. فكان يريناها في كل وقت وحين. أما الآن، فقد دفِنت في الفناء».

والتقيت امرأة في هذا البيت. وكانت حاملاً بولدها العاشر. وقالت لي إنها تتمنى أن تضع في بيتها، وليس في المخبإ، بسبب القصف.

فقد مكثت، وأطفالها، خلال هذا الشتاء، طيلة أربعة شهور، في المخبإ، اتقاء القنابل.

وقالت : «أجد عناء كبيراً، في فترات القصف، في إلباس الأطفال، والنزول بهم على وجه السرعة إلى المخبإ. ولا يكون الهواء صحياً في الخارج».

ثم دخلت علينا فتاة في غاية الملاحة.

وضحك الجميع عندما دنت منا.

فقالت المرأة : «إنها ابنتي. والناس يسمونها «بقرة لندن» لفرط سمنتها».

وضحكتْ هي أيضاً.

وكانت شقراء.

فكانت كأنها الشمس حين تضحك.

الرشيدية : 23 أبريل 1981

عدت هذا الصباح إلى بيت أم عماد، صحبة أم جيڤاگو.

فوجدنا عندها سامياً، ووساماً وصبية.

وحكت أم عماد، قائلة :

«نحن في الرشيدية منذ ثمانية عشر عاماً. وكنا، قبلئذ، نقطن بعلبك.

وقد تزوجت في عام 1956. وغادرت، رفقة زوجي، قرية بنت جبيل، إلى بعلبك. وعندما وصلت الرشيدية، كان سامي لا يزال، بعْد، رضيعاً».

وأم عماد ذات عينين زرقاوين، بالغتي الزرقة، وأنف دقيق، وصوت رخيم.

فكنت أحب سماع حديثها.

ولقد سألت سامياً كيف كانت الرشيدية في صغره، فقال :

«كانت جميلة، بكل ما فيها.

الشعب والثورة والناس».

وأضافت صبية :

«كانت الحياة أجمل في الماضي. فلم نكن، حينئذ، عرضة للقصف».

ثم استطردت، قائلة :

«ولِد أبي في قرية تسمى دير القاسي، قرب مدينة عكا.

أما عمي، فقد لبث في فلسطين. وهو يسكن، الآن، عكا.

وتعمل إحدى عماتي ممرضة في عكا.

ويعمل اثنان من أعمامي في العربية السعودية.

وكان جداي يعملان في زراعة التبغ والحبوب. وكانت لديهم خراف. ودير القاسي منطقة جبلية.

وقد توفي جداي اثناهما، في عام 1974.

فقد قضت جدتي، والدة أمي، في مطلع شهر مارس، وقضى جدي، والد أبي، في أواخره.

وتنحدر والدتي من قرية بنت جبيل.

وكانت فقدت أباها وأمها، من بعده، وهي، بعْد، في الثانية عشرة.

ولأمي أختان وأربعة إخوة.

وعندما فقدت والديْها، أخذ إخوتها في مساعدتها على القيام بأعباء البيت. وكذلك كان يفعل جداها.

وكانت أسرة والدتي تعمل في زراعة التبغ، أيضاً».

ثم قالت لي أم جيڤاكو إنها اكتشفت، في الرشيدية، أنها وأم عماد بنتا عم، وإنها كانت صغيرة جداً عندما تزوجت أم عماد.

ويقيم يوسف وزوجته في الرشيدية منذ ست عشرة سنة. وكانا، قبلئذ، قد سكنا البصرة.

وتقيم أم جيڤاكو فيها منذ أربعة عشر عاماً. وكانت قد تزوجت في بيروت.

ثم قضت ستة شهور في النبطية. قدِمت بعدها إلى الرشيدية.

وقطعْت القزبرة، لفرْمها. فصارت ليديَّ رائحة ذكية ... أحببْتها كثيراً.

وأثناء ذلك كانت طائرات الصهاينة تجوب سماء المخيم. تلتقط الصور أو تنشر الموت.

وأينما حللت من بيوت هذه الناحية، رأيت الناس يتداولون شظايا القنابل، التي يعثرون عليها في النوافذ، وفوق السطوح، وفي الساحات، وداخل الحجرات.

إن البيت هنا، مملكة الفتيات.

فالأولاد يمضون إلى النادي، أو إلى التداريب، أو للعب الكرة، أو للتسكع ... ولا يعودون إلى البيت، في الغالب، إلا مساء.

مثلما يغادر الآباء بيوتهم في الصباح الباكر، ولا يعودون إلا وقد جن الليل.

وغالباً ما تغيب أم جيڤاكو عن بيتها، بسبب من أعمالها واجتماعاتها.

وفي الأيام التي يشتد فيها القصف، تتعطل المدارس. فتأخذ الفتيات إخوتهن الصغار إلى المخابئ.

وعندما تعود أم جيڤاكو إلى البيت، تجد عملاً كثيراً في انتظارها، من إصلاح سخان الماء، ورتق الأفرشة، وتنظيف الأطفال، وتهييء الأسِرة، وتنظيف الأطفال وإعداد العشاء.

وتلبث بنات أم جيڤاكو في البيت.

فهن يعملن، أو يتعاركن، أو يتشاجرن، أو يلبِسن أختهن الصغيرة، ويلاعبْنها ويطعمنها. أو يحملنها على خاصراتهن ويطفن بها في البيت.

وتنادي عالية لارا : «ماما»، وتنادي رَضى «رضى».

إن لارا هي أم عالية الثانية. تلوذ بها إذا خشيت مكروهاً.

فإذا حان موعد عودة أمهنّ عم الهدوء والنظام أرجاء البيت في لمح البصر. فإذا دخلت الأم وجدت البيت على أتم نظام وأكمله.

والآن تجلس الفتيات من حولي.

فلارا تتمرن على كتابة الأنجليزية، ورضى تجهد لنقل ما أكتب، فلا تكاد تفلح.

وهي تلتصق بي، فتضطرني للتراجع إلى الوراء (إنها لتكاد تجلس فوق ركبتي!).

*** *

سوف نمضي، هذا المساء، لعيادة امرأة حامل توفي عنها زوجها من مرض ألم به. وقد لفظ أنفاسه، قبل ثمانية شهور، في مستشفى الحمرا، في بيروت.

وكانت المرأة الشابة حاملاً عندما توفي زوجها، مما منعها من العودة إلى أهلها.

فلبثت في أسرة زوجها. وهي تتمنى أن يكون مولودها ذكراً ليحمل اسم أبيه.

إذْ هو أول مولود لها.

وكنا نتفرج على التلفاز.

أم الرجل الشاب المتوفى، والمرأة الحامل، وصغرى بنات الأم، وأم جيڤاگو وأنا.

وقد وضعنا جميعاً غطاء فوق أرجلنا.

ثم جاء الأب، فاقتعد السرير. ولقد أفسحْتُ له ليجلس، لكن أم جيڤاگو قالت لي إنه لا يتحرج من الجلوس حيث هو.

فقلت لها إنه لا يستطيع مشاهدة التلفاز من موضعه.

فردت : «لا بأس. فهو لا يهتم بالصور».

ولقد استغربت لجرأة أم جيڤاگو، وهي الضيفة.

ونظرت إلى الرجل، فإذا ملامحه تشي بالقسوة. ثم أخرج مسدساً من تحت الفراش وجعله تحت مخدته.

ولقد تنبهت لمجلسي هذا، فسألت أم جيڤاگو هل في جلوس النساء إلى جوار الرجال من عيب. فأجابتني : «إذا كن غريبات عن الأسرة. ونحن لسنا بغريبتين».

ثم قالت لي إن الشيخ ينوي الزواج ثانية. فهو يقول إن زوجته تقدمت كثيراً في السن. وأردفتْ، قائلة : «لكني أعتقد أنه أصبح، هو أيضاً، متقدماً في السن».

ويبدو، على كل حال، أن الرجل لم يعد له حظ في التزوج ثانية. فهو لا يملك نقوداً.

وسألتني الأم كم ولداً عندي. ثم قالت إن لابنتها تسعة أطفال، وإن ذلك لا يبدو عليها، لفرط رشاقتها.

ثم استطردت، قائلة إن في صور امرأة فلسطينية أنجبت ثلاثة وعشرين ولداً، لا يزال تسعة عشر منهم على قيد الحياة.

وهي لا تزال، بعد، في ريعان الشباب. وقد وضعت طفلها التاسع عشر منذ أيام. فقررنا، أنا وأم جيڤاگو، أن نمضي لزيارتها في يوم من الأيام.

سألت أم جيڤاگو، بعدئذ، كيف تفعل في شراء الحاجيات اليومية. فأجابتني، قائلة :

«إنني أستدين من البقال.

وأؤدي له ما عليَّ في بداية كل شهر عن الشهر الماضي. وأبدأ في الاستدانة من جديد. وحده اللحم أشتريه كل يوم من صور.

أما الفاكهة، فأشتريها مرة كل يومين».

الرشيدية : 24 أبريل 1981

استيقظ الجميع، هذا الصباح، مبكرين.

وفي الساعة التاسعة ذهبنا لتوزيع الثياب في المخيمات.

إننا نوزعها على الأسر الفقيرة، التي فقدت عائليها.

في الرشيدية. والبصرة. وبرج الشمالي.

لكن لم تكن تكفي الأكياس التي معنا، وعددها ستة وسبعون. فقد كان يلزمنا أن نحمل قدر ما حملنا من الثياب مضاعفاً ثلاث مرات.

إن الكثير من الأسر تعيش في فقر شديد.

وحميدة حزينة لذلك.

وكنت وأم جيڤاگو نقتعد رزم الثياب، في مؤخرة الشاحنة المكشوفة. مستغرقتين في الضحك.

وكانت الشاحنة تهتز بنا كثيراً. وكانت الطريق كثيرة المنعرجات.

وعندما عدنا إلى الرشيدية، لزمنا أن نقوم بالغسيل. ثم جاءت امرأة إلى أم جيڤاگو تستشيرها في بعض الأدوية.

وذهبت عالية وأم جيڤاگو لحضور اجتماع.

فقد بدأت التعبئة العامة. وجميع النساء يجاهدن لتعلم كيفية استعمال السلاح.

ويعتبر تعليم النساء استعمال السلاح أولى مهام اتحاد النساء[7].

ولقد وجب تنظيم تداريب للنساء في المخيم.

أما الرجال فهم يتدربون مدة خمسة عشر يوماً، خارج المخيم. جميع الرجال المتراوحة أعمارهم بين خمسة عشر وخمسين عاماً.

ومنذ أن جئت إلى الرشيدية، لم يكد يخلو اجتماع واحد، من الاجتماعات التي حضرْتها، من الحديث عن القصف.

فقد أصبح القصف وسواساً يومياً.

وكذلك لم تخل المحادثات كلها، من ذكر فلسطين.

وذهبنا، في مساء نفس اليوم، لزيارة إحدى الأسر.

فوجدنا الرجال يتفرجون على التلفاز، وسمعنا أحدهم يعلِّق، قائلاً :

«لقد افترقتْ عن زوجها وابنها. وانظر، أي منقلب انقلبت. فقد أصبحت ترتدي السراويل الضيقة. وتلعب الورق. وتنام مع رجال آخرين ...».

....

وعلَّق آخر، بقوله : «إن الحكم بخمسة وعشرين عاماً سجناً على امرأة تركت زوجها وطفلها، وتنام مع رجال آخرين، ثم تقتل رجلاً كان يريد مضاجعتَها، ليس حكماً قاسيا في اعتقادي».

....

وعلّق ثالث : «ينبغي لها أن تخجل من إتيان هذه الأفعال. فوالد خطيبة ابنها هو أكبر طبيب في المدينة».

ورد عليه رابع : «ليس في عملها لإعالة طفلها ما يدعو إلى الخجل».

فرد عليه آخر : «لكن الابن سيستحي، في نفسه، من أن يصبح خادماً لابنة ذلك الطبيب».

عندما كنا ننتظر الشاحنة، لننقل أكياس الثياب، هذا الصباح، إذ توقفنا أمام بيت في برج الشمالي.

تسكن هذا البيت إحدى صديقات أم جيڤاگو.

وعندما دخلنا البيت، وجدنا المرأة راقدة، تحف بجبينها خرقة حمراء.

ولقد رجوناها أن تدع خرقتها كما هي، إلا أنها أزالتها، ثم أعادت عقدها على نحو مختلف.

إنها وسيلة تستعملها أم جيڤاگو، كذلك، كلما تشعر بصداع في رأسها.

ثم انخرطت الاثنتان في الحديث، مع مدرِّس تابع لمكتب اللاجئين في برج الشمالي عن الشيخ الذي ينوي الزواج، من جديد، متعللاً بإهمال زوجته له. فهي لا تأتيه بكوب الماء عندما يطلبه منها.

وسمعت منهم من يقول : «إن الفلسطينيين شبقون».

وتحدثوا، كذلك، ساخرين، في العادات السائدة في المجتمع.

فقد سخروا من المتزوجين حديثاً، فيذهبان عند الشيخ لسماع تكهناته بخصوص مستقبل زواجهما. فيكون على الزوج، أحياناً، أن يغير اسمه لكي ينجح الزواج.

وعندما يولد طفل في يوم الجمعة، يثقبون له أذنه اليسرى.

ثم عقبت أم جيڤاگو، ضاحكة : «أما البنت، فلا يحتاجون لأن يفعلوا ذلك بها. فهم يثقبون لها، بعدئذٍ، أذنيْها الاثنتين».

وذهبنا، اليوم، كذلك، لزيارة محمود، في بيته.

فوجدناه مقتعداً سريره، يستمع إلى الموسيقى.

وهو في الثامنة عشرة.

بالغ الجمال.

ذو نظرة ثاقبة، وبسمة عريضة!

وعندما يضحك، ترتسم في خديه غمازتان طفوليتان.

وإنك لتحبه من أول نظرة.

من فرط ما هو واضح شفاف.

وفي العام الماضي أطارتْ قنبلة بساقي محمود في صيدا.

وحكى أخوه، فقال :

«إسمي الحسين. وكانت أسرتي تعيش في دير القاسي، في فلسطين. ثم انتقلت بعدها، إلى بعلبك، فإلى الرشيدية.

وكان والداي يعملان بالفلاحة في فلسطين.

وكان عدد أفراد أسرتي سبعة عشر، موزعين على بيروت، وصيدا، وصور والرشيدية.

وتتكون أسرتي الصغيرة من عشرة أفراد، بين أب، وأم وإخوة وأخوات.

وقد توفيت أمي، منذ تسعة أعوام. وتوفيت أختي أمينة منذ أربعة أعوام.

ويعيش، الآن، في البيت والدي، وأخواي محمود وشاوي، وأختي جميلة».

ثم حكى محمود، قائلاً :

«ذهبت إلى صيدا رفقة بعض أصدقائي الشباب، لزيارة بعض الفدائيين. وكان في نيتنا أن نكون لهم عوناً في ما قد يطرأ من أحداث.

وطال بنا النقاش حتى شعرنا بالجوع.

فجيء إلينا بالفطور.

وفيما كنا نتهيأ للأكل، إذْ سمعنا انفجار قذائف كثيرة في الخارج.

فأخذ كل منا بندقيته، وهممنا بالخروج لاستطلاع الأمر.

لكن لم نتمكن من ذلك. فقد اخترقت قذيفة الحجرة.

وحاول جميع أصدقائي الهرب، يتملكهم الخوف.

فأصيب تسعة منهم. وفقدت، أنا، ساقي. وبعد خمسة عشر دقيقة، جاءت سيارة إسعاف، فأقلّتني إلى المستشفى؛ حيث بتروهما.

وقد استغرقت العملية ثلاث ساعات.

لبثت، بعدها، فاقد الوعي، لوقت طويل.

ولقد بقيت، مدة خمسة عشر يوماً، رافضاً رؤية أي شخص.

ثم ما لبثت أن تراجعت عن ذلك.

ووعدت أصدقائي بالذهاب للعمل معهم، بمجرد أن أحصل على ساقين حديديتين».

وقالت أم جيڤاگو :

«عندما ذهبت إلى المستشفى، في مساء ذلك اليوم، لرؤية محمود لم أتمالك نفسي من البكاء. ولم يحب محمود أن يراني باكية، فقال لي :

«لا تبكي، ولا تدعيني أرى دموعك. إنها مشيئة الله. لقد أردت مساعدة الفدائيين والعودة إلى بلدي، ما بقي دم في عروقي. وسوف أعود للعمل معهم. فأنا فلسطيني. وأريد العودة إلى بلدي، ولو بقيت بذراع واحدة».

وقد التقى محمود بأبي عمار في بيروت، منذ أسبوعين. فقال له : «أريد الذهاب إلى الخارج من أجل الحصول على ساقين اصطناعيتين. لكن أبا عمار أجابه، قائلاً : «أعتقد أن من الأفضل أن يُصنعا لك هنا. فإذا زاد وزنك، أو نقص، كان بإمكانك استبدالهما، متى رغبت في ذلك، وهو ما لا يكون بإمكانك لو ذهبت إلى الخارج.

وأنا أعدك بفعل كل ما تريد.

فأنت ابني وأخي.

وتستطيع المجيء إلى مكتبي كلما احتجتني».

إن ساقي محمود حربتان.

في جوف إسرائيل الكريه.

* * *

يقام، في الرشيدية، هذا المساء، حفل زفاف.

زفاف ضد الصهاينة. وضد حداد.

زفاف ضد الموت.

زفاف من أجل فلسطين.

وقد حضر الحفلَ الكثير من الشبان والشابات.

وهم مختلطون ببعضهم، على غير ما جرت به العادة.

لكن وحدهم الشبان يرقصون.

فالكثير من الفتيات والنساء يتهيبن من الرقص بوجود الكثير من الشباب.

ويرقص الشباب فرادى.

إنهم يرقصون رقصاً جميلاً.

وقد جيء بدربو كتين.

وكان أحد الشبان يرقص بعصا. وكان مشيق القوام.

ثم قررت أحدى الفتيات أن ترقص مع أخيها. إنها أخت العروس.

فكانت كأنها شعلة، تزيد الموسيقى من تأجيجها.

ثم أرادت أن تراقص أختها العروس. فأخذت تجذبها من يدها. لكن الجميع صاح بها : «كلا!». وكأنها بالغت في جرأتها.

فتخلت عن العروس، وعادت هذه للجلوس في مكانها.

الرشيدية : 26 أبريل 1981

عندما تتزوج امرأة، وتنجب ولداً، تسميه حسناً، فإن اسمها يصبح أم حسن.

ولو انفصلت هذه المرأة عن زوجها، واحتفظت بالولد، فإن اسمها يظل أم حسن.

ولو تزوجت من جديد، وأنجبت، من زوجها الثاني ولداً أسمتْه علياً، وكان أول هذا الرجل، فإن هذا الأخير يصبح اسمه أبا علي، أما هي، فيظل اسمها أم حسن.

وكذلك يظل اسمها، بعد أن يتوفى ولدها حسن.

بذلك أخبرني فاضل، هذا الصباح.

وكنا نشرب الشاي. وكان فاضل يأكل الزيتون.

وكانت أم جيڤاكو تعمل على آلة الخياطة.

فهي تخيط قطع القماش إلى بعضها.

لتصنع منها غطاء للسرير.

وكانت لارا ورامي يزيلان ما يعلق بقطع القماش من خيوط.

وأمس، ذهبْت وأمُّ جيڤاكو لزيارة أسرة فلسطينية تقطن في صور.

وكانت هذه الأسرة تقطن الرشيدية قبل أربعة أعوام. ثم رحلت عنها، بعد القصف بيتها.

وهي تسكن، الآن، حجرة في بناية كانت، قبلئذٍ، مدرسة.

وكانت قد سكنت هذه الحجرة عندما كانت المدرسة مكتظة باللاجئين.

وظلت مكتفية بها، حتى بعد أن أصبحت صور شبه فارغة.

إنها تؤثر السكن مجتمعة.

وقد أنجبت الأم تسعة عشر ولداً (وليس ثلاثة وعشرين، كما قيل لي في الرش وثلاثة عشر منهم هم الذين لا يزالون على قيد الحياة.

وأما الستة الآخرون فقد ماتوا قبل ولادتهم، أو من أمراض ألمت بهم وهم، بعد: (وماتت إحدى بناتها في سن الثامنة).

ولا زالت المرأة في ريعان شبابها (فهي، مما يبدو، لا تتجاوز السادسة والثلاثين) لا تجد غرابة في كونها أماً لثلاثة عشر ولداً.

ويعمل ابنها الأكبر في العربية السعودية. لكنه عاد إلى صور بسبب التعبئة العامة.

وكان الأب يعمل مزارعاً في الرشيدية. لكنه تخلى عن هذا العمل، عند مجيئه إلى صور، وأصبح يعمل في البناء.

وهو يتكلم بتمهل، وفي صوت هادئ رصين.

أما الأم فمتوفّزة، مرحة.

وعندما استقرت الأسرة في هذه المدرسة، أطاحت قنبلة بسقف الحجرة التي سكنتْها.

وفي ذلك قالت المرأة، ضاحكة :

«أينما يكن الفلسطينيون، تسقط عليهم القنابل!».

وكلما لاح للأسرة في المساء ما ينذر بالقصف ليلاً، لجأت للنوم في المخبإ. أما الأب فلا يفعل إلا عند الضرورة القصوى.

وقد سألت أم جيڤاگو في ذلك. فأجابتني : «لأنه رجل».

وهو ما لاحظته في أكثر من مناسبة. فالرجال لا يلجأون إلى المخابئ. أو يلجأ إليها الشيوخ منهم فحسب.

وقالت لي أم جيڤاگو، كذلك، إن أم حسن ونساءً أخريات قلن لها : «لا يحق للمرأة التي أنجبت خمسة أطفال أو ستة، أن تقول إنها كوَّنت أسرة!».

وبينما كنا جالسات، إذْ دخلت علينا أم وابنتها، وكانتا قادمتيْن في زيارة إلى الرشيدية. وكانت البنت متزوجة حديثاً.

ثم بدأ الجميع يتكلمون.

فقالت لي أم جيڤاگو، مشيرةً إلى فتاة صغيرة : «انظري. إنها تشبه ابنتي لارا. إلا أن عيني لارا كبيرتان».

ثم قالت الأم إنها وجدتْ، منذ أيام، كيساً و بداخله حافظة نقود .

وأرتْنا حافظة النقود. قائلة إنها سوف تنتظر لبعض الوقت، عسى أن يظهر صاحبها. فإذا لم يطالب بها أحد، مضتْ بها إلى المسجد.

وكان الأبناء يجلسون هادئين، ينصتون إلى حديث الأب والأم، مستصوِبين ما يقولان.

وفي زاوية من الحجرة يتأرجح سرير حديدي صغير للرضع.

وعلى الأرض مُدَّتْ حصائر للجلوس، وبضعة كراس أيضاً.

وعلى الجدران صور الأسرة، وشهادة مؤطرة، وصورة أبي عمار.

وقد أُسْنِدتْ إلى أحد الجدران أرائك، تبسطها الأسرة ليلاً للنوم عليها. وإلى جوارها وضِعت بعض الحقائب.

وكان الأطفال يدخلون ويخرجون.

قد مشِّطتْ شعورهم، وجعِلتْ في مفارق مستقيمة.

وأُلبِسوا صدارات بيضاء، فاقع بياضها.

ويعلو محياهم الانشراح والاطمئنان.

والهدوء.

ويظهر على السقف، غيرَ بعيد من السرير الصغير، أثر بارز، قد انتفخ قليلاً، تحف به دائرة في نحو متر ونصف.

فالقذيفة التي اخترقت السقف، وسقطت في البيت، ما زالت آثارها بادية، برغم الترميمات.

ومساء أمس اصطحبني جيلال في جولة.

وكنت التقيْته خارجاً من عند الحلاق، وقد مشط شعره، على غير عادته.

وكان الوقت مساء.

فاستعار سيارة من أحد أصدقائه. فزرنا صور والميناء. ثم توجهنا إلى الريف.

ورأيت الحقول، بين أبيض، وأخضر وأحمر. ورأيت أشجار السرو السوداء.

ورأيت عنزات، وراعياً وكلبَه.

وقد امتدت أمامنا براحات شاسعة، حتى البحر.

لم تكن بنا رغبة في انتظار غروب الشمس، الذي كان وشيكاً.

وجيلال يعرف سكان صور جميعاً. فكان إذا مرَّ بأحدهم، حياه، أو استوقفه للحديث.

مما حتم عليه أن يتوقف بسيارته لا أقلَّ من عشرين مرة، ليرد على تحية من صادف على الطريق من أهل المدينة.

وقد كان كلما لمح سيارة أمامه، ضاعف من سرعة سيارته، لكي يتجاوزها. وبعد ذلك، يعود للتخفيض من السرعة. فقد كانت تتملكه رغبة في أن يكون وحيداً على الطريق.

وفي الريف قال لي : «هنا توفي صديق عزيز علي كثيراً. وأنا لم آت إلى هذا المكان منذ وقت طويل. وقد كان يجدر بي أن أزوره في كل يوم».

وجيلال يتكلم الأنجليزية من السرعة بحيث كنت أطلب منه أن يعيد علي أقواله كرات كثيرة، لكي أفهم كلامه.

ولأن هذا قد أتعبنا معاً، فقد أصبحنا قليلاً ما نتكلم.

ثم عدنا إلى الرشيدية.

وقبل أن ندخلها، أراني جيلال فلسطين، غير بعيد عنها.

من خلف التلال.

وفي الطريق، بين الحقول، التقيْنا فتاتين في مقتبل العمر.

فتوقف جيلال.

وقال لإحداهن : «اصعدي!».

فنظرت إليَّ، قائلة : «طاب نهارك!». ثم صفقت الباب، في عنف، قائلة : «كلا!».

ولم يرد جيلال بشيء. ثم تابعنا سيرنا.

ذهبت وأم جيڤاگو، في زوال اليوم، لنحضر عرس حميدة. في يومه الثاني.

وهو يوم الزفاف الحقيقي.

ولم يكن في البيت، هذه المرة، سوى الفتيات والنساء.

فكن يرقصن!

وكانت الفتاة الصغيرة بينهن.

قد أحاطت شعرَها الطويل بشريط أحمر.

ثم دنت مني. فأحسست بعينيْها ساخنتيْن.

ولقد أبدت اهتماماً كبيراً بي. وأبعدت الأطفال، لتجلسني في مكان يمكنني منه أن أرى جيداً.

ثم أحاطت كتفي بيدها.

وجلسنا متحاذيتيْن، نتفرج على الرقص.

وإذا هي تسألني أين كنْت أمس، رفقة جيلال. فأجبْتها : «في صور».

وظلت تحيط كتفي بيدها.

في ود. ودفء.

الرشيدية : 27 أبريل 1981

ذهبت اليوم لزيارة أبي الحبيب الغزال.

إن أبا الحبيب الغزال رجل عجوز.

في حوالي الخامسة والسبعين. ينحدر من سعسع، مثل أبي علي.

وأبو الحبيب رجل قصير وسمين. ذو يدين لم يعد يستطيع بسطهما تماماً. كما هي أيدي الرجال الذين أمضوا حياتهم في العمل اليدوي الشاق.

وأبو الحبيب رجل طيب. ويغضب مني عندما أعزف عن الأكل، ويجبرني عليه.

وقد جلسنا إلى مائدة، فأكلنا البسكوت. ثم أُديرتْ علينا القهوة، وورق العنب واللبن.

وكانت زوجة أبي الحبيب، وهي امرأة عجوز، كذلك، تجلس إلى جواري. وقد قالت لي إن كتفيها يؤلمانها، وسألتني «ماذا أفعل؟».

فقالت لها أم جيڤاگو إنني لست طبيبة. لكنها عادت تسألني، بعد ذلك، نفس السؤال.

وكانت تجلس بيننا، كذلك، ابنتاها حميدة وآمال (التي لا تكاد تتوقف عن الضحك مع أم جيڤاگو، لأنها على وشك أن تتزوج)، والأبناء.

ثم جلس الأب إلى جواري. وأخذ يحدثني في بعض الوصفات الطبية. ويمسك بذراعي، ويشرح لي.

إنه طبيب تقليدي.

ومما قال لي : «خذي غرقد بيضة تكون قد باضتها دجاجة في البيت — وليس البيض الذي يباع في الحوانيت — وقليلاً من الصابون، والدقيق. واخلطي الكل، دون ماء، ثم مددي الخليط فوق قطعة قماش بيضاء، واجعليها حول الكسر، ثلاثة أصابع من فوق وثلاثة أصابع من تحت».

ثم أمسك بمعصمي، ووضع يده فوق ذراعي. ودعاني إلى استعمال هذه الطريقة في التجبير.

وقال لي : «قبل أن تضعي الضمادة مسدي مكان الكسر بالماء الساخن، للتخفيف من حدة الكسر. لكن عليك أن تفعلي في أناة، لكي لا تتسببي في كسر أبلغ.

وكانت أم جيڤاگو تترجم لي ما يقول، وهي تقهقه ضاحكة.

وسألته عما أفعل في كسور الأضلاع. فأجابني : «اتبعي نفس الطريقة. ويكون على المريض أن يلزم الفراش. فيُحمّل إليه الأكل، إلى أن تتحسن حالته.

وينبغي الإبقاء على الضمادة مدة خمسة عشر يوماً، على الأقل، بحسب الأحوال».

وذات يوم انكسرت ساق أبي الحبيب العجوز، نفسه.

فصنع ضمادته، وداوى نفسه. لأنه لا يثق في أحد.

ثم سألني :

— ماذا تفعلين لمداواة دمل؟

فأجبته :

— أجعل قليلاً من الكحول والماء الساخن في كمادة، وأجعلها فوقه.

فإذا هو يصيح بي :

— كلا! ليس هكذا! (وبدا عليه الغضب)، بل ينبغي أن تسخني قطعة بصل، بأن تجعليها على الرماد، ثم تضعيها ساخنة، فوق الدمل. وبعد نصف ساعة، يمكنك أن تزيلي البصل (فيكون الجلد قد «طاب»)، فتفتحي الدمل، ويخرج القيح».

ونظرت إلى أم جيڤاگو، فإذا هي قد قطبت وجهها.

«وهناك طريقة أخرى لإخراج القيح. وتتمثل في إحداث ثقب في ناحية من الدمل بواسطة حديد ساخن، ليتسرب منه القيح».

فزادت أم جيڤاگو مما يقول تقززاً.

وحكى لي، كذلك، أن زوجته تشعر بآلام في كتفيها، وأنه ينوي علاجها، بكيها بالنار، لكنها ترفض.

وقال : «رغم أننا في الشهر الأخير الذي يمكننا فيه فعل ذلك. فلا يمكننا أن نفعل ذلك سوى مرتين في السنة؛ في الشهر الذي يسبق فصل الشتاء، وفي الشهر الذي يسبق فصل الصيف. وإلا كان الجو حاراً، أو بارداً جداً، مما لا يساعد على نجاح العملية».

لكن أم جيڤاگو قالت إنها لا تؤمن بهذه الخدع.

بيد أن أبا الحبيب واصل كلامه، قائلاً : «لقد استشارت عدداً كبيراً من الأطباء فكانت جميع أدويتهم لها مجرد مسكنات».

وعندئذٍ سألني : «ما العمل يا ترى؟».

ويقول أبو الحبيب إنه طبيب عربي.

فقد لقنه أبوه هذا الطب. وكان أبوه أخذ الطب عن شخص آخر في القرية.

ويكرر أبو الحبيب على مسامعي قوله : «إنني أعمل بالطب منذ وقت طويل».

ولقد قلت له إن أبا علي، من سعسع، قد أُدخِلَ، وهو طفل صغير، جلدَ عنزة، ثم خيط عليه.

فقال لي إن ذلك صحيح (وهو ما لم أكن أشك فيه). وقال، كذلك، إن من أشفاه ليس هو، بل طبيب عربي آخر.

ثم عاد إلى عمله، وهو لا يتوقف عن الحكي. ومما قال، أيضاً، إنه فقد السمع منذ أن ابتدأ القصف، ودخلت إسرائيل جنوب لبنان.

وسألته إن كان قد فقد السمع كلياً.

فقال : «تقريباً».

وتحدث، كذلك، عن زوجته، فقال :

«عندما رغبت في الزواج منها رفضت. فكان علي أن أدفع الكثير من المال للحصول عليها. وفي بداية زواجنا كانت تبدو أكبر مني سناً. أما الآن فقد صرتِ أبدو أنا الأكبر».

ثم خلع عنه كوفية من لونيْن أحمر وأبيض، وارتدى، بدلها، كوفية جديدة، من لونين أسود وأبيض. قال لنا إن شخصاً أهداه إياها، بعد أن داواه.

الرشيدية : 28 أبريل 1981

حلقت، زوال أمس، ثلاث طائرات تجسسية إسرائيلية في سماء الرشيدية.

فكان الجميع يشخصون بأبصارهم إلى السماء، منتظرين سماع دوي المدافع المضادة للطائرات. ثم أخذوا يطلقون هتافات الحماس.

وفي المساء رد الفدائيون لإسرائيل وحداد الصاع صاعين.

وردت إسرائيل، هذه الليلة، على قصفهم، مقنبلةً بطائراتها المخيمَ. فقتلتْ شاباً، كان بقرب المخبإ.

لقد توفي مما أُصاب جبينه وصدره من شظايا القذائف، ومن نزفهِ دماً كثيراً.

ويعم المخيم، اليوم، حِداد.

أما الأطفال، فلم يسمعوا شيئاً، إذ كانوا نياماً.

لم ينبههم من رقادهم اهتزاز البيوت من حولهم.

ورأيت الناس، هذا اليوم، أيضاً، متعبين.

فلياليهم في المخابئ أرق.

ثم أصبح مدارَ أحاديثهم في سيارات الأجرة وفي الشارع الشابُّ القتيل.

فعرفت أنه كان في الثالثة والعشرين. ويدعى عبد الله.

وفي الزوال حلقت طائرات في سماء المخيم.

فبصقت رضى في وجه السماء، ضاحكة.

وتعطلت المدارس، هذا الصباح، خوفاً على الأطفال من القصف.

الرشيدية : 29 أبريل 1981

مرضت أم جيڤاگو.

فقد آوت إلى فراشها، أمس، بعد ما أحست من ألم في رأسها.

وهي ترفض استقبال الطبيب.

وكانت تقيأت في المساء. فبعثت لارا لتأتيها بقليل من «المرامية» من عند عالية.

فشربت منها جرعة واحدة.

وظلت تتوجع طوال الليل، لا تستطيع إلى النوم سبيلاً.

ولو ساءت حالتها، فإنها ستقصد الطبيب خليلاً في مستشفى البصرة.

وفي حوالي الساعة السابعة والنصف، جاءنا رجل، فحدثها عن أم محمود، وقدرتِها على شفاء جميع الآلام، مستعينة في ذلك بالقرآن.

فطلبت إليّ أن أرافقها عندها.

فأجبتها إلى ما طلبت.

وأم محمود هي المرأة العجوز الضريرة التي سلف حديثي عنها.

وبعد أن تبادلت المرأتان عبارات الترحيب والسؤال عن الحال، جلستا متحاديتين، أرضاً.

ثم سألت أمُّ محمود أمَّ جيڤاگو اسمَها. فأجابتها هذه : «فريدة». وعاودت أم محمود سؤالها : «فريدة ماذا؟». فردت أم جيڤاگو :

— فريدة

— فريدة ماذا؟

— فريدة ....

ثم تلت أم محمود دعاء، كانت تردده بعدها أم جيڤاگو.

وأثناء ذلك، كانت أم محمود تضغط، بشدة، بإبهامها وخنصرها، باسطةً كفها، على المفصل الصدغي في كل ضلع. وتضغط بيدها الأخرى، مبسوطة، على القذال.

وكلما زادت من ضغطها ازداد أنين أم جيڤاگو.

وبعد أن أنهت دعاءها، أعادت رفع ذقن أم جيڤاگو إلى الأعلى، ثم وضعت يدها الأخرى فوق جبينها، وعادت تشد عليه بقوة.

ثم وضعت إبهامها على جبين أم جيڤاگو تتحسس به مكاناً معلوماً. وأخرجتْ خصلة شعر من تحت الخرقة التي حفت بها أم جيڤاگو رأسها، فبرمت الشعر بين أصابعها، وأخذت تجذب الخصلة في قوة.

ودمدمت، حينئذ، بكلام غير مفهوم.

ثم مسدت رأس أم جيڤاگو.

وانتهى كل شيء.

ثم تحدثت، قليلاً، إلى المريضة.

ودخلت علينا، حينئذ، امرأتان في مقتبل العمر.

إحداهما صديقة جيلال.

وقد جلست بقربي، في ود.

ثم حان وقت انصرافنا.

فضمتني أم محمود، بقوة، بين ذراعيها.

ولقد سألْت أمّ جيڤاگو، في طريق عودتنا :

— كيف تشعرين الآن؟

فأجابتني :

— كالذي كان ينوي أن يرمي بنفسه في البحر، ثم أصبح، بعد خمس دقائق، يرى الحياة جميلة.

وفي حوالي الساعة التاسعة والنصف، ذهبنا إلى صيدا.

وهنالك زرنا أسرة الشاب الذي توفي في أحد أزقة المدينة يوم عيد الفصح، وكان يوم أحد.

فوجدت، هناك، عالية، وآمالاً وفتاة أخرى.

ووجدت بينهن، كذلك، أبا جيڤاگو، وجيلال و«حجي»

ووجدت شابين آخرين لا أعرفهما.

وكان الجميع جالسين.

فقدمنا تعازينا.

وجلسنا صامتين.

ثم دار علينا رجل بأكواب فيها قليل من القهوة المرة.

إنها القهوة التي تقدَّم طيلة أيام الحداد الأربعين.

وكانت الأم تتحدث عن ابنها الفقيد.

فكانت كثيراً ما تكرر : «الحمد لله».

وغلب أمَّ جيڤاگو البكاء.

ثم انصرفنا.

هم باتجاه الرشيدية.

وأنا باتجاه بيروت.

* * *

جئت بيروت. فلبثت فيها بضعة أيام، في ضيق. عاجزة عن الانخراط في إيقاع غيرِ إيقاع الرشيدية، وناسها، وأطفالها ...

أنتظر الأخبار، لأتذوق طعم الصمت.

ليس لي من رفيق سوى كلبي. يضج رأسي بضحكات الناس في الرشيدية وأصواتهم ودموعهم كذلك. فكل رجل منهم، وكل امرأة هي فلسطين.

وفي كل واحد منهم تحيا فلسطين ... إن فلسطين لهي الأذرع، والقلوب، والعيون والضحكات.

أذرع ممدودة طلباً للعناق.

يا أيها الفلسطينيون المكبلون بالحديد الصهيوني. ويا أيها الفلسطينيون في المنفى، إنكم تبنون فلسطين الخالدة.

وإنني لأسأل نفسي لو قدِّر لي أن أعود إلى منفاي في فرنسا، وأن أعيش فيها أحملكم في حنايا قلبي، منفية عنكم، ومحرومة من صوركم.

وهل يمدني ألم غيابكم بما يقويني على تحمل الغربة، في فرنسا، أعيش على أمل لقياكم؟

وأراني أنادي عليكم أن ادخلوا، ادخلوا بيتي، فهو لكم!

تعالوا لأحضنكم كما تحضنونني.

أنى لي أن أعيش في فرنسا، أحملكم بين ضلوعي؟

وأنى لي أن أعيش من دون عالية الرقيقة، ويوسف الذي يلقنني تاريخكم، ومن دون أم جيڤاكو، وفاضل، وصديقة جيلال، المتوفزة في كل لقاء؟

وكيف لي أن أعيش في فرنسا أحملكم في حنايا قلبي، بعيداً عنكم، منفية في ذاكرتي، وتمضي على الأيام، والشهور والأعوام محرومة من ابتساماتكم؟

وأعلم أني لو تركتكم، فلا أكاد أحزن لمفارقتكم حتى يتملكني شعور غامر بالسعادة من التفكير في ملاقاتكم.

فأنا لا أغادركم، وإن فعلت.

وألبث بينكم، ما حلَّقت بي طائرة، وتبدلت فوق رأسي سماء، وطرقت أذني أغان غير أغانيكم. وما عصي الزمن إرادتي وإراداتكم.

وأنىَّ لي ذلك؟ وكيف؟

الرشيدية : 30 أبريل 1981

شيد أبو علي، في العام الماضي، بيتاً في بيروت، لإيواء أسرته.

وإن شاتيلا لمختلفة كثيراً عن الرشيدية.

فالمخيم فيها مشيد فوق الرمل الأحمر.

وساكنته كثيرة جداً.

وتنتشر في الرمل وفي الطرقات فضلات الطعام وحطام الأشياء.

وتقوم من حول المخيم صنوبرات تقيه حر الشمس.

أما المخيم في الرشيدية، فيكنَس في كل يوم.

وأرضيته من الإسمنت والتراب.

فكيف يفعل سكان المخيم، في الرشيدية، في خضم هذا الرمل؟ وهذا الحشد الكبير من القاطنين؟

إن المخيم، هنا، قذر، وكئيب.

ولقد شيد أبو علي بيتّه، بمفرده، في عام كامل.

فجعل جدرانه من القيرون، وسطحه من الصفيح، وجعل وسطه فناء مبلطاً، وحوله أربع دكات مربعة.

إن كل شيء في بيت أبي علي نظيف.

وفيه، كذلك، حمّام.

ومطبخ قد جعل له حوضاً من معدن «إينوكس». ومد إليه الماء.

وجعل حنفية أخرى قرب خزان الماء.

والبيت مؤلّف من ثلاث غرف. إحداها صغيرة جداً.

وقد شيد أبو علي بيته فوق أرض كانت، من قبل، مزبلة.

فأمضى في تنظيفها أياماً.

حتى إذا فرغ من ذلك شيد فوقها بيته.

بمفرده.

ولم يخبر أبو علي أحداً في الرشيدية بما كان يفعل.

ولأنه كان يتابع دروساً في علم النفس في الكلية في صيدا، كلما وجد الوقت لذلك فقد كان يتذرع بالذهاب إلى الكلية، فكان يأتي لبناء بيته.

وهو ما لم يمنعه من النجاح في معظم المواد التي امتحِن فيها، بعدئذ.

ولأبي علي ستة أطفال.

وكان إذا اضطره العمل للبقاء في الرشيدية وقتاً طويلاً، يأتي بأسرته إلى مخيم شاتيلا حيث يسكن أحد إخوته، وبعض أعمام مريم.

لكن أبا علي لا يحب شاتيلا كثيراً. ولا يعرف ناسها.

ويعيش في شاتيلا كثير من فتيات الرشيدية ونسائها.

ونلتقي فيها، كذلك، أهل الرشيدية، الذين تركوها في فترات القصف الشديد.

وتقيم فيها، الآن، منى، أخت مريم، عند أحد إخوتها.

لكنها ستعود عما قريب إلى الرشيدية.

وقد سألتها إن كان لها أصدقاء في شاتيلا، بعدد أصدقائها في الرشيدية. فابتسمت ابتسامة عريضة، وأجابت : «بل وأكثر!».

فقلت لها إن أخويْها لا يزالان على دأبهما، في الرشيدية، يغرسان الورود في سطح بيتهما، ويجددان صباغته.

وتنحدر مريم، زوجة أبي علي، من أسرة كبيرة العدد.

فهي تتألف من :

— أم ابتهاج

— وثلاثة أولاد، كنت قد رأيتهم في الرشيدية، هم الحسين الذي ازدان فراشه حديثاً، ببُنيَّة، وأخواه اللذان يمضيان وقتهما في غرس الورود فوق سطح بيتهما.

— ومريم، ومنى.

— وأخ آخر يسكن شاتيلا.

وآخرين لا أعرفهم.

ولقد قدمت أسرة مريم من فارا (وتضحك مريم كلما نطقْنا هذا الاسم، الذي يشبه «فأرة»)، على بعد ثلاثة كيلومترات من سعسع.

ومريم في السابعة والعشرين. وقد ولِدتْ في جارون، بالقرب من بنت جبيل، على الحدود مع فلسطين.

فعندما فر الناس من فلسطين، في عام 1948، آثر معظمهم البقاء عند الحدود.

وجاءت مريم، وهي بعد صبية، رفقة أسرتها، إلى الرشيدية.

فسكنت أسرتها، في البداية، المخيمَ القديم. ثم رحلت عنه في عام 1964، إلى المخيم الجديد.

وتتألف أسرة مريم من أربعة عشر طفلاً.

فكانت تعيش في شظف.

وكانوا ستة عشر نفراً، يوم أن كانوا يسكنون بيتهم.

ويعول الأسرةَ الأب وحده، مما يذر عليه عمله.

في حقول البرتقال المحيطة بالرشيدية.

ولم يكن لمريم، عند خروجها من فلسطين، سوى طفلين (توفي ثالثهما، وهو، بعد صغير).

ومريم لا تعرف القراءة ولا الكتابة.

وهي حزينة لذلك. وتعتقد أنه السبب الذي يدفع أبا علي إلى التفكير في الزواج من جديد.

ولقد تفرجْت على ألبوم صور الأسرة، فإذا أكثر صوره لمريم. وبعضها لأبي علي ومريم، وحدهما.

وليس فيه صور زفافهما.

وقد ضم الألبوم، كذلك، صوراً لبعض الحفلات، فيها أعياد ميلاد علي، وصور بعض أصدقائه وصور جيلال.

وحدثني أبو علي قائلاً :

«إنني أحب ابني علياً حباً كثيراً. فهو حاد الذكاء. وهو أكبر أبنائي.

ولذلك تريْنني أفعل كل شيء لأجله.

وأقيم حفلاً كلما كان عيد ميلاده.

وأذكر، ذات يوم، أن أزيد من مائة شخص حضروا عيد ميلاده. وفجأة ابتدأ القصف.

فنزل كثير من المدعويين إلى المخابئ.

لكني رفضت، وبعضهم النزول، مصرين على مواصلة الحفل.

فعيد ميلاد ابني أهم عندي، من أن تكدره القذائف الإسرائيلية».

وقال أبو علي، كذلك، إن الحب الذي يكنه لابنه مصدره، كذلك، أن هذا الأخير كان يعرف كيف يفكك سلاحاً، ويعيد تركيبه، وهو، بعد، في العاشرة.

ويجيد، كذلك، استخدامه.

وقد سألت مريم أبا علي الهديةَ التي يفضل أن تهديها له، في الغد، بمناسبة عيد العمال.

فرد عليها، بقوله : «لكني لست عاملاً، بل أنا مقاتل!».

فقالت له : «إن القتال أيضاً عمل».

وكانت محقة. فالقتال هو عمل أبي علي.

ثم حدثني أبو علي عن زوجته، وعن النساء. فقال :

«ذات يوم، جاءتني امرأة، في بيروت، تعرض عليَّ بعض مشكلاتها.

وكنت في مكتبي. فطلبتْ إلي أن نتحدث في الخارج.

فخرجنا. وتابعتْ ما كانت فيه من حديث.

وكنا نسير جنباً إلى جنب.

وفجأة، استدرْت، فوجدتني وجهاً لوجه مع زوجتي، وكانت تتنصّت علينا. وقد شمرت كميْها، تغطي يديها رغوة الصابون.

فصاحت في وجهي : «نهارك سعيد!».

وعلمت، بعدئذ، أن شخصاً ما ذهب ليخبرها أني أتحدث مع امرأة أخرى، فتركت الغسيل، وعهدتْ بالطفلين إلى إحدى جاراتها (فلم يكن لنا من الأبناء، وقتئذٍ، سوى مورا وعلي)، وجاءت تستطلع الأمر، وهي على هيئتها تلك.

ولقد عضبْت لذلك. وقلت لها إذا كان الأمر قد بلغ بيننا هذا المبلغ، فليكن الطلاق.

ولقد كان ذلك الحادث مصدر اضطراب كبير في حياتي.

وللرجل، عندنا، أن يتزوج أكثر من مرة. فخشيتْ زوجتي أن أتزوج امرأة ثانية.

لكن ما الذي يدفعني إلى الزواج ثانية. فزوجتي ترعى الأطفال جيداً، وهم نظيفون دائماً.

وهي رقيقة. وذكية.

وأنا أعمل في عمل يستغرق جل وقتي. وسيكون افتراقي عن زوجتي وبالاً علي».

ثم أضاف، ضاحكاً :

«إنني أخشى غضب زوجتي علي، أكثر من خشيتي إسرائيل».

وحدثني أبو علي، كذلك، عن علاقاته مع المسيحيين.

وقد كان أنقذ حياة الكثير منهم خلال الحرب الأهلية.

وكان يمد الساكنة المسيحية والمسلمة، في أحد أحياء بيروت، بالمؤونة. (500 كيلوغرام من الخبز في كل يوم) . ولقد توسط، أثناء أدائه عمله، شخصياً، للإفراج عن كثير من المسيحيين، بعد تلك الليلة الدموية التي اغتيل فيها 150 مسلماً في بيروت على يد الكتائب.

وبذلك أنقذ جاره.

وأحد الأطباء.

وغيرهما كثيراً.

وحكى لي، أيضاً، عن زواجه، فقال :

«كنت، في شبابي، أرفض الزواج، فلم أكن أفكر في البنات. لكن، ذات يوم، نجوْت من الموت أثناء تنفيذي، ورفاقي، عملية في فلسطين، قتِل خلالها جميع رفاقي. وكان أبواي يظنانني من القتلى. فقال لي أبي : «بُني، عليك بالزواج!». فقلت : «لكني لا أعرف فتاة». فرد علي : «عليك بالزواج. فإن مت، تركتَ لنا ابنَك من بعدك». فقلت : «إنني لا أرغب في الزواج». فقال : «دعني أختر لك زوجة، يكن لك منها ولد». قلت له : «افعل ما تشاء».

وبعد أيام، قال لي : «لقد وجدت لك زوجة، بيضاء البشرة، ناصعتها (وجميع أفراد أسرتي ناصعو البشرة بياضاً)، وطويلة الشعر. ستواتيك».

فقلت : «ليكن».

أما زوجتي، التي حدثتها أسرتها في الزواج (وكانت في السادسة عشرة)، فقد طلبت أن تراني، أولاً. فلم تكن تعرفني.

وكان أبي يعمل بالتجارة، وكان له فيها حانوت.

فجاءت عنده، متذرعة بالسؤال عن شيء ما، ولم تكن ترغب في شراء شيء.

وعندما رآها أبي، نادى علي، قائلاً : «تعال، لتساعدني في إزاحة هذه الطاولة!».

وما كانت له حاجة في إزاحتها، وإنما كانت تلك منه حيلة ليجعلني أرى تلك الفتاة.

ثم عادت هذه إلى بيتها فرحة بكونها رأتني.

ولقد جاءها، بعدئذٍ، من يقول لها : «إنهم يبحثون عنه. فهو مقاتل، ومعرض للموت في كل حين».

فردت عليهم بقولها : «ليس لي رأي في الموضوع. فأبي هو الذي قرر. فليس لي أن أقبل أو أرفض. بل علي إطاعة أبي».

وقضيت الليلة عند أبي علي ومريم، في شاتيلا.

فنمت في حجرة مع مريم والأطفال.

ونام أبو علي وشقيقه في حجرة أخرى.

ويعيش أخو أبي علي، في هذا الوقت، عنده. بعد أن سافرت زوجته لقضاء أسبوعين في طرابلس، عند أخيها الأرمل، المصاب بخزع الرغامي.

فكانت مريم تستيقظ في الصباح الباكر، فتهيء الفطور لأخي زوجها، الذي يخرج للعمل في الخامسة صباحاً.

أما في بيت أم جيڤاگو، فالأمور تجري على خلاف ذلك. فأخوها سمير يستيقظ صباحاً، فيهيء قهوته بنفسه. ويحمل إليَّ القهوة بالحليب، في سريري، حتى عندما أنام في الحجرة الملاصقة للمطبخ. فنفطر معاً.

ولقد استيقظْت، هذا الصباح، في مخيم شاتيلا، على صوت أبي علي، يوقظ زوجته : «أم علي! أم علي!».

ثم غادر أخوه البيت، والتحقتْ مريم بزوجها في الحجرة الأخرى.

وينام أفراد الأسرة، في العادة، لصق بعضهم. فإذا استيقظ الرضيع، أخذته مريم بين ذراعيْها، وأعطتْه ثديها. وبين الفينة والأخرى، تستند على مرفقها، وتأمر الأطفال بالنوم. وقد تدخل ذراع أحدهم تحت الغطاء، أو ترفع رأس آخر.

وتسمى رضيعة مريم لاميساً.

وعندما يحين وقت نومها، أكان ذلك في المساء، أو في غيره، تلفها أمها، من رجليْها إلى رأسها، في غطاء ، لكي تستقيم ساقاها في الكبر.

ولقد رأيت، ذات يوم، عالية تنام في فناء بيت أم جيڤاگو، عارية العجيزة، ورأسها مسند إلى كنزة. وكذلك تحب أن تنام.

الرشيدية : 2 ماي 1981

غادرْت، هذا اليوم، بيروت، في التاسعة صباحاً.

ولقد استقْللت سيارة أجرة في قولا.

وكنت أعلم أن الجيش الإسرائيلي وحداداً ظلا يقصفان الجنوب والرشيدية طيلة يوم أمس.

وعندما بلغت الرشيدية أخبرني أبو جيڤاگو أن نيفاً وخمسين بيتاً دمِّرت، أو لحقتْها أضرار بالغة من جراء القصف.

ورأيت بيت محمود قد تحطم زجاج نوافذه.

ورأيت البيت المجاور له مخرباً.

وكان الناس قد اجتمعوا لشرب الشاي. وعندما ابتدأ القصف، هرعوا إلى الخارج تاركين إبريق الشاي قرب المرآة.

فوجدوا المرآة، بعد القصف، قد غطَّاها التراب، وفي وسطها ثقب مستدير، من اصطدام غطاء إبريق الشاي بها.

ووجدوا السقف محطما، والدولاب منخلعاً.

ووجدوا الثياب، التي كانت فيه، أسمالاً.

فلم يكن بد من التخلص من كل ما في البيت.

وعندما رآني جيلال أحمل حقيبتي المتسخة المهترئة، صاح بي : «الحمد لله أن عدتِ!». وعندما سألته بماذا أجيب، قال : «قولي : الله ينجِّيك!».

ثم ذهبت عند أم جيڤاگو.

ولقد تملكني شعور من يدخل بيته.

وأبصرتني لارا ورضى، من بعيد، فابتهجتا.

أما أنا فقد كنت متوترة مما أحمل من توت الأرض، قد ضممته إلى صدري، ومن حقيبتي التي أخشى أن تنفتح في كل خطوة أخطوها.

وكم كنت أود أن أضم البنتيْن إلى صدري، لولا ما كنت أحمل بين ذراعيَّ من توت الأرض.

ثم جلست بينهما. فإذا أنا قد انتقلت إليَّ عدوى الفرح والطمأنينة منهما!

وهل أملك دفعاً للفرح؟

ثم جاءت أم جيڤاگو، فأخذتْني لنزور أسرة أم خليل. وهناك تناولنا طعام الغذاء.

وكان طبقَ لحم مخلوط باللبن، والأرز، والبصل، ونواة الصنوبر، والكبة النية والمخلل.

فكان جميع من إلى المائدة يقدمون لي الطعام، على طريقة الملوك، ويزيدونني منه.

ولقد جلسْت إلى المائدة وأم جيڤاگو، واثنين من جيرانها (رجل وامرأته) كانا يعملان معاً، لبناء حجرة إضافية في بيتهما، والجار الذي يعمل كهربائياً، وزوجته وابنه الصغير، وأم خليل، وصغرى بناتها، واثنان من أولادها.

وفي ذلك اليوم، علمتني بنت أم خليل أن أقول أسماء الشعَر، والعينين، والأنف واللسان، والأذنين، واليد والأصابع باللغة العربية. فكان درساً جيداً لا زلت أتذكره.

وكانوا جميعاً (وهي على الخصوص) يضحكون من نطقي الكلمات العربية.

وقد دعتْني بنت أم خليل إلى قضاء الليل عندها. ودعاني جميع من في البيت إلى المجيء للغذاء في البيت كل يوم.

ثم افترقنا. وكانت أم خليل مجهدة من عملها طوال النهار في تنظيف المخبإ، بمعية جاراتها.

وكان كل ما دار بيننا من أحاديث، في تلك الزيارة، في القصف الذي استهْدف تل الزعتر[8].

ولقد أدركْت مدى الخوف الذي يأخذ بنفوس الناس في المخيمات من أن يحيق بالرشيدية ما حاق بتلّ الزعتر.

وترسخ لدي هذا الشعور طيلة مدة إقامتي.

وأراني لا آني أداعب، في ذهني، كل تلك الوجوه التي لا يعرف التعب ولا الملل طريقاً إليها، ولا هي تنشد الراحة ما طال بها الكد والعناء.

وعدت إلى البيت في حوالي الساعة الثالثة زوالاً.

فكانت الفتيات قد فرغن من الأكل.

واستيقظت عالية، فإذا هي تدمدم، متذمرة.

وكانت قد هوت، أمس، من على السطح، فأصيب صدغها ونزف أنفها.

ويبدو رسغها، اليوم، منتفخاً، يُخشى، أن يكون مكسوراً.

ولقد قررت أم جيڤاگو أن تمضي بابنتها عند أبي الحبيب الغزال للعلاج.

وفي طريقنا إليه عرّجْنا على محمود.

ففرح لرؤيتنا.

وما كان أشد تواضعه وبساطته!

كسائر الرجال والنساء الذين ألتقيهم هنا.

ولقد أخبرني محمود أن حفل زفاف سيقام غداً في برج الشمالي، وأنه سيحضره. ودعاني إلى حضوره.

فلم أجزم بقبول الدعوة.

وجاء شاوي أمّ جيڤاگو ببيضة من بيت محمود، لتستعملها في علاج ذراع ابنتها. فالبيض الذي يباع في الحوانيت لا يكون جيداً.

ثم عرّجنا على امرأة في مقتبل العمر، على وشك أن تضع حملها.

فوجدنا حماتها منهمكة في تهييء ورق العنب. فكانت تزيل سويقاته، وتسويه في عناية، ثم تحشوه في كيس پلاستيكي.

وقد سألتْني المرأة هل يهيء الناس في فرنسا ورق العنب على نحو ما تفعل هي. فأجبتها أنْ لا. وأردفْت قائلة إن منهم من يصنع المصبرات من الطماطم والبازلاء وسواهما.

فقالت إن نساء أوروپا محظوظات، أما النساء الفلسطينيات فدفينات المطبخ، ليس لهن من تهييء الأكل مفر.

ووجدنا عند المرأة، أم حسن، قد جاءت لزيارتها، يرافقها أصغر أولادها.

وقد سبق لي أن رأيت أم حسن، ذات صباح، إذ جاءتها أم جيڤاگو تستعير منها حذاءها، في سفر كان لها إلى صور. (فلم تكن أم جيڤاگو تملك، وقتئذ، حذاء لائقا فكانت تستعير حذاء إحدى صديقاتها، كلما أزمعت الذهاب إلى مكان). وفي المساء رافقْت أم جيڤاگو عند أم حسن، فأعادتْ إليْها الحذاء. وقدمت لنا أم حسن القهوة وحبات الفول.

وكانت تعطي ولدَها الأصغر ورق الكرنب. فكان يلتهمه في تلذذ.

ولا زلت أتذكر لقاءاتي السابقة مع أم حسن. وهي لا تزال على دأبها في تهييء الخبز صباحاً، وكيِّ الثياب أرضاً في المساء.

ويعمل زوجها في البساتين.

وقد دعاني إلى زيارة بعضها.

وقال لي إن ما تغله الأراضي من فاكهة يعود الفضل فيه إلى مهارة الفلسطينيين.

ولقد أكدتْ لي الأيام صحة ما قال. ومنذئذ زاد إقبالي على الفاكهة، إذْ صارت عندي ثمار الجهد الفلسطيني.

ولقد قررت أن أرافقه إلى بعض البساتين، ذات صباح.

وعندما أبلغْته نيتي، قال لي : «فلتستيْقظي باكراً!».

وكانت النساء يتحادثن في بيت المرأة الحامل.

ولقد جيء لنا بالقهوة.

وبعد أن فرغنا من شربها، ذهبنا عند أبي جيڤاگو، في النادي، ليمضي بنا إلى مستشفى البصرة؛ حيث سيُجري أحد الأطباء صوراً بالأشعة لذراع عالية.

ولقد كان.

فتبين لهم كسر في رسغها.

وحيث إن عالية لا تزال صغيرة، فقد جُعلت لها ضمادة، تزيلها بعد خمسة عشر يوماً.

ثم عدنا إلى الرشيدية.

نستقل سيارة. فبكت عالية قليلاً، ثم غلبها النعاس. فنامت.

وعندما وصلنا البيت، جعلت البيضة في المبردة.

(إذ لم يُحتج إليها في المستشفى).

ووجدت في البيت أبا علي ويوسفُ، وكارين (وهي صحافية نرويجية)، وحجي ومصطفى وشخصاً آخرَ لا أعرفه. وكان أبو جيڤاگو جالساً يتوسط الجميع. ثم قام فشغَّل التلفاز.

وبعد ذلك، ذهبنا جميعاً لمعاينة بيت يوسف، بعد ما لحقه من تخريب من جراء القصف بالقنابل.

فوجدناه في حال أفضل مما كنا نتصور. فقد انفجرت القنبلة التي أُلقيت عليه قبل أن تصطدم به، فأمكن إزالة ما علق به من شظاياها ومن ركام الأتربة، للشروع في أعادة بنائه.

ولقد كانت شظايا القنبلة كبيرة، تحمل على الجزم بأن وزن القنبلة لم يكن يقل عن 85 كيلوغراماً.

الرشيدية : 3 ماي 1981

غادر جميع الزوار البيتَ هذا الصباح.

وبعد حين، قدِم أخو دياب، رفقة زوجته الحامل.

وكان دياب في النادي.

وقال لي أخو دياب إنه عمل في إسپانيا طيلة عشرة أعوام.

وهو يقيم، الآن، في بيروت.

ولم يمكث الزوجان طويلاً. فقد خشيت الزوجة الطيران الإسرائيلي الذي لا يكل من التحليق في سماء المخيم، تطارده مدافع الفدائيين.

ثم اتجهْت وأمّ جيڤاگو إلى صور.

إن أم جيڤاگو ترغب في رؤية الشيخة التي تسكن صوراً، والتي سمعتْ عنها كثيراً في الرشيدية. فقد كانت ترغب في معرفة بعض ما يخبئ لها المستقبل. وتوقفنا، في صور لزيارة بعض صديقات أم جيڤاگو، وهن من جيران الشيخة.

فلم نجد في البيت غير النساء والأطفال.

وقد أرتْني إحدى النساء بعض العظاءات على الحائط. وقالت لي إنه كلما سقطت قذيفة قرب بيت، تحطم هذا البيت من عصْفها.

فقلت لها : «ستنفق العظاءات لا محالة».

فردت : «إن لم يرحمنا الله، حينئذ، كنا جميعاً أمواتاً».

وأكبر النساء سناً هي أولى أزواج الأب. وهي ضئيلة الجسم، صموتة.

أما المرأة الأخرى، الأصغر منها، فهي زوجته الثانية. وهي التي تبادلْت معها الحديث قبل قليل. وهي أم لولدين يعملان في ألمانيا، وثالث هو في الرابعة عشرة، وبنت في السابعة عشرة.

والمرأة صلبة العود، خدومة.

وقد طلّق الزوج المرأتين معاً، وتزوّج ثالثة، أسكنها صيدا.

وكانت أم جيڤاگو تحكي لي عن كل ذلك، تتملكها سورة الغضب.

ويعيش مع المرأتين أزواج أولادهما، وصُغرى بناتهما، وأصغر أولادهما.

فكنت، وأنا أراهما رؤوفتين ببعضهما، متعاونتيْن، ونشيطتين، أستحي من بلدي.

حيث يظلل الدلب الكنائس.

ويأوي الناس إلى مضاجعهم آمنين مطمئنين.

وأنا أرى الأطفال الفلسطينيين يؤدون من حياتهم وراحتهم في سبيل تحقيق أحلامهم.

ولم تكن أم جيڤاگو قد رأت صديقتيْها منذ وقت طويل. فكانت تحادِثهما.

ثم شعرتْ بالتعب، فتمددت على السرير.

وأخذت الزوجة الثانية تصب لها الماء البارد المملَّح في إحدى أذنيها. وعندما يصير الماء الذي فيها ساخناً، تصب لها ماءً بارداً مملحاً في الأذن الأخرى.

وهي طريقة تقليدية في علاج آلام الرأس وضربات الشمس.

ثم جاء من يخبرنا أن الشيخة غير موجودة.

فكان علينا أن نعاود المجيء صباح اليوم الموالي.

في الثانية زوالاً ذهبنا إلى حفل الزفاف الذي يقام في برج الشمالي.

وقد أقيم في طابق من بيت كبير. ورأيت في غرفة، في الأرضية، إبريقاً نحاسياً فوق مجمر.

وكان الرجال جالسين على أرائك رُصَّتْ إلى حائط، يتحدثون.

وكانوا يدخنون، أيضاً. ثم انصرف بعضهم، واحتل آخرون أماكنَهم.

وكان يصلنا ضجيج الطابق الأول.

وكان المتزوجان جالسيْن. وبعض المدعويين يتناوبون على الرقص، واحداً تلو الآخر.

وتساءلت في نفسي كيف يكون في مقدورهم أن يرقصوا وسط هذا الجمع الحاشد من الحضور.

ثم رأيت الحسين، فسألته عن محمود.

فأجابني : «في السيارة». وظننْت أني لم أسمع جيداً ما قال. فعاودت سؤالي : «أين محمود؟». وكرر : «في السيارة».

فاستأذنْت أم جيڤاگو في الخروج لرؤيته.

وكانت مغتاظة، تبحث عن الحسين، فإذا جاء إليها استفهمتْ منه، ثم عنَّفته، قائلة له إنه كان عليه أن يصطحب معه أخاه إلى الحفل.

ثم خرجنا لرؤية محمود.

ولقد بدا لنا غير متحرج من الجلوس في السيارة. فكان يتكلم إلى المارة. ودخلنا السيارة وأكلنا صحبة محمود الحلوى التي اشتريناها من صور.

ثم أقلّنا الحسين في سيارته إلى البصرة. ومنها ركبْت وأم جيڤاگو سيارة أجرة إلى الرشيدية.

وهناك التقينا جميلة التي كانت قد عادت إلى المدينة.

وقد كانت قبل قليل في البرج، محلولة الشعر، تضيء محياها ابتسامة كالتي يفتر عنها ثغر محمود.

وهي الآن، قد غيَّرت ثيابها، وعقدت شعرها. لكن لم تفارقها ابتسامتها.

وبعد ذلك مضينا إلى بيت أم جيڤاگو. فوجدنا من فيه منهمكين في فك سدى ركام من الثياب، ليصنعوا منها أرائك. وتريد أم جيڤاگو أن يصنعوا لها خمس أرائك. واحدة لكل طفل.

ويُحتاج في صنع أريكة إلى كيلوغرامَيْن من الصوف.

وجميع النساء في الرشيدية يصنعْن الأرائك بهذه الطريقة، مستغلات الكنزات الصوفية البالية.

وقد انقطع التيار الكهربائي عن المخيم منذ خمسة أيام.

وكان أبو جيڤاگو يعالج عطباً في بطارية سيارته، ويتفرج على التلفاز.

وفي الظهيرة جاء أبو علي ليصْطحبني لزيارة أبي الحبيب الغزال.

فلم نجده.

واستقبلتنا زوجته، وكانت تشكو من ألم شديد في كتفيْها.

فما العمل؟

وقد بدأت تشعر بهذه الآلام منذ شهرين.

إن نساء المخيم كثيراً ما يشتكين من آلام في الكتفين.

والسبب في ذلك الليالي التي يقضينها في المخابئ، طيلة شهور.

وكذلك تسبب القنابل آلاماً في العظام.

ثم جلست المرأة العجوز قربنا، وأخذت تحكي لنا :

«قدمْت وزوجي من سعسع. وكذلك أسرتانا.

وعندما كان الأنجليزيون يساعدون اليهود، لم يكن الفلسطينيون يملكون سلاحاً.

لكنهم ظلوا متشبثين بأشجارهم، وأرضهم وبيوتهم.

وما كنا نظن أن ذلك سيدوم طويلاً. ولو علمْنا، ما ترك أحد منا أرضه.

فقد كنا نعيش فوق أراضينا، وكانت لنا فيها أشجار زيتون.

وكنا نزرع الأرض، ونعيش منها سعداء، مغتبطين بما نلقى في خدمتها من عناء.

وكان الجميع يملكون أراضي في سعسع ، فكانوا يعملون فيها.

ولقد تزوجت منذ خمسين عاماً. وكان زوجي يرعى الماشية. لكنه لم يكن يرحل وراءها، كدأب البدو. بل يعود إلى البيت كل مساء.

فكان يعمل نهاراً، ويخلد إلى الراحة ليلاً.

وكنت أفلح الأرض فتنتج زيتوناً، وطماطم، وذرة.

وقد عرفْت زوجي يعين الدواب ويساعد الإنسان كلما احتاجوا إلى علاج.

ولم أكن أستطيع مشاطرته ذلك، لكثرة أشغالي».

ولم تكن المرأة تتحدث إلي بطيبة خاطر.

فقد أحسسْت، فجأة، أنها تستحي من الكلام.

فلماذا؟

ولماذا يستحي الفلسطينيون من فرارهم من المذابح؟ ولا تستحي أية أمة من الأمم التي خلقت الدولة الصهيونية؟

لماذا يستحي الفلسطينيون أن فروا من الجليل المدمى؟

ولا تستحي الدول التي كانت تؤيد مناهضة السامية، فصارت تشجع الصهيونية؟

لماذا؟

والفلسطينيون لم يكونوا، أبداً، من مناهضي السامية. ولا بين الفلسطينيين ذابحو اليهود.

ولا شيدوا مخيمات الاعتقال.

ولا أقاموا المحرقات.

وهم يعيشون مبعدين عن بلدهم، منذ ثلاثة وثلاثين عاماً. وفلسطين تصطخب في كل دقة من دقات قلوبهم. وقد حملوها معهم إلى المنفى، ونقلوها إلى أبنائهم، بحيث أصبح كل واحد منهم فلسطين قائمةَ الذات.

لقد صنعوا من أطفالهم مقاتلين.

أيتها الشعوب معدومة الشرف، هل يكون لك، في يوم من الأيام، أن تعي شرفَ أن يكون المرء فلسطينياً؟

ثم فارقْنا، أنا وأم فؤاد، وأبو علي، المرأةَ العجوز.

لكنني سأعود إلى زيارتها.

ومضت بنا أم فؤاد لرؤية مجبر آخر.

إنه عجوز نحيف.

يسكن بيتاً صغيراً، وكئيباً.

ولقد جلسْنا إليه. فحكى لنا :

«كنت، في شبابي، واسع الثراء. وقد صرت، الآن، فقيراً. لكن لا يزال في مقدوري مساعدة الناس.

فأنا أطبب من يصاب منهم بكسر في أصبع، بأن أبدأ بتحويل الكسر. ثم أجعل عليه جبيرة، وألف الأصبع بضمادة، أجعل فوقها دقيقاً وبيضاً.

كذلك يكون التضميد العربي.

أما في المستشفى، فيستعملون الجبص. وليس ذلك جيداً، لأن الجبص يسخن في الصيف.

ولقد قدِمت من فلسطين.

ولم أكن قد اتخذْت لي فيها بيتاً أستقر فيه. فقد كنت من البدو الرعاة، أرحل بقطيعي في طلب الكلإ.

وكان قطيعي يتألف من أربعة جمال، وسبعين خروفاً أبيض، وخمسين عنزة سوداء.

ولم أعد أملك، الآن، من ذلك شيئاً.

وتوفيت زوجتي. وتزوج أولادي، ورحلوا عن الرشيدية.

ولست أعرف لهم، الآن، مستقراً.

وقد كانت أسرتي وزوجتي من البدو.

وكنت تزوجت امرأتين. ولقد توفيتا هما الاثنتان.

وكانت إحدى زوجتيَّ فقط، هي التي أنجبتْ لي ولدين وبنتاً.

ولقد تزوجوا جميعاً.

وكان جميع أقربائنا قد فروا من فلسطين».

ثم حدثّنا عن حياته الآن، فقال :

«أصبح جيراني يعتنون بي. ويأتون لاستشارتي كلما اشتكوا ألماً. فبمقدوري مداواة التواءات المفاصل، والانخلاعات والكسور».

وقد أراه أبو علي قدمه، وكانت تؤلمه. ففحصها. ثم قال له :

«لا بأس بها. فالعظم سليم.

وعليك أن تغسل قدمك، مساء، قبيل النوم، بالماء الساخن المملح. ثم تدلكها بالماء والصابون.

واحرص على أن تكون حركاتك سليمة.

فإذا لم تتحسن حالك، بعد أيام، عد لزيارتي».

إنه رجل «بدوي» يسكن بيتاً صغيراً، ووسخاً. رجل يخبر إيقاعات رياح الصحراء.

وها قد أصبح، الآن، منطوياً على نفسه، يقتعد سريراً خشبياً، بعد أن كان يجوب الصحراء، تحوم فوق قطيعه النسور حتى المساء.

فأين جِماله، وعنزاته، وأين حريته وزوجتاه؟

وأين كلماته التي كانت في مهب الريح. والريح تسكن جلده وطاقيته.

يا للصهاينة !

لقد أرادوا أن يقصوا أجنحته النسرية. لكنني رأيته يسير، فكان، برغم سنه المتقدم كأنه أمير صحراوي.

ذهبت، رفقة أبي علي، عند أم فؤاد، التي دعتنا لشرب القهوة في بيتها.

فوجدناها في البيت مع زوجها، وإحدى بناتها ورضيعها، وولد صغير، وأكبر أولادها، وصغرى بناتها وصهرها.

وحملت إلينا إحدى جاراتها برتقالاً قطفتْه من بستان غير بعيد عن البيت. وأم فؤاد في حوالي الأربعين. جميلة. قد لفتْ شعرها في خرقة. وكذلك تفعل معظم النساء في الرشيدية. وارتدت، مثلهن، فستاناً وسروالاً. وهي ذات عينيْن براقتين، ووجنتين عاليتين. فإذا ضحكت افتر ثغرها عن أسنان بيضاء.

وتشبهها ابنتها ذات الرضيع، تمام الشبه.

وزوجها جميل، كما هي جميلة. وقد علت وجهَه بعض التجاعيد. وله قليل من الشعر، لكنه لامع. وإنك لتراهما فتنشرح نفسك.

وكانت البنت الصغرى لأم فؤاد تجلس صامتة. إنها شقراء، رقيقة.

ثم أرتْنا أم فؤاد بيتها، الذي دمره القصف، وأُعيد بناؤه. ثم دمِّر بعضه ثانية.

تظهر في فناء ذلك البيت غرسة كانت أم فؤاد تزرع فيها بعض الخضراوات.

ثم حكتْ لي قائلة :

«توفي أكبر أولادي منذ أربعة أعوام. وكان في الثالثة والعشرين. وتزوج ولداي الآخران، وكان أحدهما في الخامسة والعشرين، والآخر في السادسة والعشرين». ولم تحدثني عن بناتها ...

وكان الأطفال جالسين ينصتون، في انتباه، إلى ما يتفوه به الكبار من تعليقات على «القصف»، وما يحكون عن «فلسطين»...

وعندما عدت إلى البيت، جاءت أم جيڤاگو تصطحبني لزيارة المرأة الحامل التي توفي عنها زوجها. فقد وضعت حملها، هذه الليلة.

ولقد جئناها فوجدناها مجهدة.

وكانت تلف جسدها بمئزر وردي جديد. وقربها وضِعتْ علبة.

وسألت أم جيڤاگو أين وليدها. فأجابتْني : «بقربها، مغطى!».

وكانت المرأة قد وضعتْ حملها في البيت. وعانت كثيراً في ذلك. لكنها الآن سعيدة، بأن أنجبتْ ولداً سيحمل اسم أبيه : بسام.

وبعد ذلك، ذهبْت، رفقة أبي علي، لزيارة محمود.

ولقد جلست إليه، يترجم لي ما جاء في شريط، أُنجِزَ في 17 أبريل، يصوِّر قصف صور، والبصرة، وبرج الشمالي والرشيدية.

وعندما عدت إلى البيت وجدت فيه يوسف، وأبا خلدون، وأبا علي.

وجدتهم جالسين إلى مائدة وضِعت عليها أطباق البطاطس المقلية، والقنبيط المقلي والباذنجان، والزيتون، والبيض، والجبن ومأكولات أخرى.

وكان الجميع ينتظروننا لمشاركتهم الأكل.

وكان بينهم بعض الأطفال، قد جلسوا للأكل في أبهى ثيابهم.

فغداً يبدأ الدخول المدرسي. ويكون على الأطفال أن يناموا باكراً.

ولقد دار الحديث عن ابن خلدون، باعتباره أول عالم اجتماع في التاريخ.

ودار الحديث، كذلك، حول ما يحب المتحدثون، وما يكرهون.

فكنت أحسني أقرب إلى جميع هؤلاء الأصدقاء المجتمعين. وأقرب إلى أطفال أم جيڤاگو الذين ينهضون بأدوار متعددة. فما أكبر اعتزازي بهم! وما أكبر حبي لهم!

وكم أتمنى أن أصبح مثلهم!

وسمعت من أحاديث الأصدقاء ما يفيد أنهم يتوقعون قدوم لجنة ڤييتنامية، هذا المساء تزور الشعب الفلسطيني، وتتفقد أحواله.

وسمعت أن الزوار إذا جاءوا، سينزلون بيتَ أم جيڤاگو. فتستقبلهم، وتحدثهم عن الاتحاد النسوي، وعن عمل النساء وحياتهن.

وتحدثهم عن حياة الناس في الرشيدية.

لكن تأخرت اللجنة الڤييتنامية في المجيء. وقد يكون منعها من المجيء كثرةُ مهامها.

فانفض الجمع.

الرشيدية : 4 ماي 1981

فتحت المدارس أبوابها، من جديد، هذا الصباح.

فكان الصغار، بنات وأولاداً، يهيئون حاجياتهم، ثم يفطرون. وقد مُدَّتْ مائدة عليها بيض مسلوق، ولبني، وخبز، وشاي بالحليب وزيتون.

وكانت أم جيڤاگو تفحص شعر البنات. ففي يوم الإثنين، من كل أسبوع، يُفحَص في المدرسة، شعر الأطفال، وأظافرهم وثيابهم.

فإذا وُجِد في رؤوسهم قمل أعيدوا إلى بيوتهم.

وأطفال الرشيدية يعتنون بنظافتهم. ومعظم الأولاد ذوو شعور قصيرة.

وتتفحص أم جيڤاگو شعر أولادها، أيضاً. لكن جيفاگو تهرب منها ضاحكة. إذ كيف يُعقَل أن يكون في ضفائرها السوداء القصيرة قمل ؟

ويذهب أبو جيڤاگو، كذلك، إلى المدرسة. فهو يُدرس التاريخ، والجغرافيا والعلوم الطبيعية.

وتمضي رَضى بعالية إلى روض الأطفال.

وقد أُلبِستْ عالية فستاناً أحمر، وتبدو مفتتنة به. لكن وجب تغيير ملابسها ثلاث مرات، قبل أن تغادر البيت. فهي تلعب بالماء، وتأكل، وتلوث ملابسها من اقتعادها الأرض.

إن عالية تقترب من عامها الثاني. لكنها غير راضية عن كونها صغيرة.

فهي تشتري المثلجات من عند أبي نبيل بليرة.

وتصعد الدرج. وتنط فوق السطح.

وتذهب لرؤية صديقة لها في زقاق آخر.

وتبعثر مشبكات الغسيل.

وتفرغ المنفضات.

وتعدو وتقفز. وتطلب قارورة الرضاع.

وتأكل مع إخوتها. ثم مع أبيها. ثم تعود فتأكل مع إخوتها.

وهي تحب الناس كثيراً.

وكذلك تحب الطماطم.

وما وقعت عليها عيناي إلا رأيتها لاهية تعبث بشيء. فهي لا تخلد للراحة رمشة عين.

وهي لا تتوقف عن الضحك.

وعن النقاش.

صغيرتي عالية الحيوية.

صغيرتي الرقيقة. ذات العينين المرحتين.

عزيزتي التي تتكلم، فتقول : «فلسطين».

وتعرف أن تقول : «عودة».

فلتكوني حرة!

إنهم يبغون اغتيالك.

وفي الساعة العاشرة، عاد بعض الأطفال إلى البيت بحثاً عن شيء يُؤكل، قبل العودة إلى المدرسة.

فدخل رامي، وفتح المبردة. وجعل بيضة مسلوقة في خبزه. وغادر البيت.

أما أنا، فقد ذهبت، بمعية أبي علي، عند أم فؤاد، التي كانت تنتظرنا هذا الصباح.

ولقد جلست إليها، تحدثني عن حياتها. فقالتْ :

«كان أبي فلاحاً. وكانت له أشجار زيتون. فإذا حان موسم القطاف، لصنع الزيت انقطع إلى العمل، لا نكاد نراه في البيت. فهو يقضي الليل عند أحد أبناء أخواله، في قرية أخرى. إذْ كان بيتنا بعيداً عن بساتين الزيتون.

وذات يوم زاره خال أمي في البيت.

فجعلْت خشباً في الفرن، وجلست أهيء الخبز.

وجاءت أمي الضيفَ بالقهوة.

وعندما رآني قال لأبوي :

«إذا أجبتموني إلى ما أطلب شربت القهوة، وإن رفضتم رفضتها، ورفضت أن أشربها في بيتكم ما حييت».

وهذه من العادات العربية في طلب العروس.

فقال له أبي : «إن كنت تطلب أحد أولادي، فهم جميعاً طوع أمرك. ولن أرفض لك شيئاً أبداً».

وعندئذٍ، طلبني خال أمي زوجة لابنه.

لكن أجابه والدي بقوله :

«ذلك مستحيل. فهي ما تزال صغيرة».

فرد الخال : «إذن فأنا أرفض شرب القهوة».

وإذا بأبي يقول له : «يمكنك أن تشرب قهوتك. فأنا موافق. وبعد ثلاث سنوات، أو أربع، ستصير كبيرة، وسنرسلها إليك، فتكون زوجة لابنك».

فقال الخال : «اطلب المال الذي تريد، فالأمر عندي سيان. فليس لي سوى ابن واحد وأنا أريدها زوجة له».

فاتفقا فيما بينهما، وحددا المهر في مبلغ 250 ليرة فلسطينية.

ولقد دفع الخال نصف ذلك المبلغ، وقرر أن يدفع الباقي يوم الزفاف.

وبعد عشرة أيام، مرضت أمي، ولزمنا حملها إلى المستشفى.

ولم يكن للسيارات وجود، وقتئذ، فأركبوها بغلاً، وجازوا بها قرى كثيرة، للبلوغ إلى المدينة حيث كان المستشفى.

ولم يكن في مقدورنا أن نقطع كل تلك المسافة في يوم واحد.

وحتم أن نقضي الليل في مكان ما.

وعندما وصلنا إلى بيت خال أمي دعانا إلى المبيت عنده، فقبلْنا.

ولقد جاء جميع الجيران يسألون عن علة أمي. ثم انتقلوا للحديث عن الزواج.

فقال الخال لوالدي : «لقد دفعت لك 125 ليرة فلسطينية، ولا يزال عندي الكثير من القطع الذهبية. فإذا كان يوم السوق دفعت إليك بها استكمالاً للمهر».

لكن أبي رفض، قائلاً :

«ربما يكون ثمن الذهب، الآن، منخفضاً، بما يقل عن الباقي من المهر، وربما يكون مرتفعاً بما يفوقه. وعلي أن أسأل عن قيمة القطعة الذهبية، وكم يكون قدرها بالليرة».

وبدآ في التجادل. فقال أبي لأمي أن تخرج النقود من جيبها، وتعيدها إلى خالها. وقال له : «لن أعطيك ابنتي. فستظل في بيتي. وسيظل ابنك في بيتك. ولا حظ في تزويجهما».

وعندما تحسنت حال أمي، عدنا إلى قريتنا.

ولقد علم خال آخر لي بفسخ الزواج، فجاء يطلبني لابنه. وقال لأبي : «إن رفضت طلبي انتزعتها منك بالقوة».

ولكي تتلافى أسرتي هذه الفضيحة، قررتْ تزويجي.

وكان لنا جيران من أبناء عمومتنا. فاجتمعوا، وقرروا الذهاب عند القاضي لتسجيل الزواج.

لكن القاضي رفض. فقد سألني سني. ثم لاحظ أن سني لم يكن يتجاوز يومئذ عشر سنوات ونصف السنة.

وجاء أبي وأب جارنا الشاب بأوراق مزورة، تثبت أني في الرابعة عشرة.

وذهبا عند قاض آخر. فطلب مني أن أفتح فمي ليرى هل اكتملت جميع أسناني، إذ كنت صغيرة جداً.

ثم رفض ،كذلك ، أن يصدق على الزواج. لكن رجلاً ثرياً قال للقاضي :

«فلتسجِّل عقد الزواج، وأنا أضمن لك أن لا يرسلوها إلى بيت زوجها قبل ثلاث سنوات، أو أربع».

وكان ما طلب. ولقد دفعت أسرة العريس للقاضي مبلغ 25 ليرة فلسطينية. وهو مبلغ كبير. ووعده أبي أن لا يرسلني إلى بيت زوجي قبل مضي أربع سنوات.

لكن في نفس العام، أُرْسِلت إلى بيت زوجي. ولم أكن قد أتممت سنتي الحادية عشرة (كان سني عشر سنوات وعشرة أشهر).

وقيل لي إنني لو تزوجت في القرية، فإن أسرتي سيكفونني عملَ المطبخ، وأشغال البيت، «فأمك ستكون قريبة منك، تساعدك متى احتجت إلى مساعدة. ولن يكون الأمر كذلك إن تزوجتِ في المدينة».

ولم يكن في وسعي أن أرفض ذلك الزواج. ولو أني نبست بكلمة لكان أبي قتلني.

فقد كان رجلاً حاد الطبع.

ثم كان أن فرَّت أسرة زوجي بأكملها من فلسطين. إلا إحدى بناتها.

ولبثتْ أسرتي بأكملها في فلسطين. ولاتزال.

فهي ترفض مغادرتها، آملة أن تتحسن الأوضاع، وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى.

ولقد لبثت أعيش في بيت أسرة زوجي إلى أن غادرنا لبنان، في عام 1948.

وأنا أنحدر من سيرالين في الجليل. تلك هي قريتنا.

وكان قد مضى على زواجي، يومئذ، عام كامل. لكنني كنت ما أزال صغيرة، بحيث لم أكن أعرف كيف أغسل شعري. فكانت حماتي تتولى غسله لي، كما تفعل مع الأطفال.

وكان حمواي يخفيانني، لأنني كنت بالغة الجمال.

وإذا أردت الخروج للسقي، أو الحديث إلى أحد، كانا يرافقانني، ويخبران زوجي بما أفعل.

ولقد أحزنني ذلك، وبلغ بي إلى المرض.

فنُقِلت إلى المستشفى؛ حيث مكثت عدة أشهر.

كنا نسكن الخيام.

وقد سكنا، في البداية، برج الشمالي، مدة سبعة أشهر.

ثم سكنا مخيمَ أنصار، بالقرب من نهر الليطاني. ولقد أحزننا ما كان عليه المخيم. وزاد من حزننا أننا كنا بدون أطفال.

ولذلك رحلنا إلى قرية العباسي، حيث بقينا مدة سبع سنوات. ثم رحلنا إلى رأس العين. ومكثنا فيها خمس سنوات.

وقدِمنا إلى الرشيدية في عام 1964، تاريخ بناء المخيم الجديد، إذ كنا بدون بيت».

في تلك الأثناء، جاء «حجي» للبحث عنا، أنا وأبي علي، لأن الڤييتناميين كانوا قد وصلوا إلى بيت أم جيڤاگو.

وعندما وصلنا، وجدنا أم جيڤاگو تحدثهم عن النساء في فلسطين، وعن عملهن.

ونضالهن.

وقالت لهم، كذلك، إن الرجال يأمرون أزواجهم، أحياناً، بالتزام البيت، مع التدرب على استعمال السلاح.

وقد تحدث الڤييتناميون إلى الحاضرين. ثم عبّروا عن تضامنهم مع الشعب الفلسطيني. وانصرفوا.

وبعدئذ، ذهبت وأم جيڤاگو إلى صور، لزيارة الشيخة.

لكن لم نجدها في بيتها.

فلبثنا في بيت إحدى صديقاتها. ولقد وجدنا عندها جارتين تتجاذبان أطراف الحديث. إحداهما مصرية متزوجة من لبناني.

ولمحت، في الخارج، فتاة صغيرة تمشي مرتدية في إحدى رجليها حذاء رجالياً ضخماً ورجلها الأخرى حافية.

إنها صبية فلسطينية، تدعى مريم.

وكم كانت جميلة. تلك الطفلة الفلسطينية.

إنها تسير في صور. بمحاذاة المقبرة الفينيقية.

والبحر الأزرق لا يكل من كنس الشاطئ.

والشاطئ مقفر وسخ.

وبعد عودتنا إلى الرشيدية، ذهبْت لزيارة محمود، ترافقني رضى.

وما كدنا نلج بيته حتى جذبتْني رضى خارجاً.

ولسوف نعود، في الليل، لزيارة محمود.

وقد يرانا فينزل الطريق المحدودب بسيارته، متجهاً نحونا. فنفتح له أذرعنا.

وكنا نتفرج على فيلم في جهاز ڤيديو استعاره دياب من النادي.

وقد كان المتفرجون كثراً. وكان الفيلم بعنوان «رسالة محمد».

لقد كانت الصور غاية في الجمال.

إن للقرآن أهمية كبرى في الحياة اليومية الفلسطينية. وما أكثر ما رأيت أم جيڤاگو تتوضأ قبل أن تصلي. ولقد استأذنتْ آمال في الانصراف، لأن وقت الصلاة قد حان. وكذلك فعل كثيرون. والناس يذهبون إلى الصلاة مستبشرين، بعكس ما هم عليه عندنا. فالناس هنا، يقولون : «أريد أن أصلي»، وليس : «علي أن أصلي».

وتعتقد أم جيڤاكو وأشخاص كثيرون أن بيت آمال ويوسف محفوظ، تقيه الشهادة التي طرزتها آمال، وعلقتها على الحائط : «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

الرشيدية : 5 ماي 1981

ذهبت، وأم جيڤاكو، هذا الصباح، لرؤية الشيخة في صور، آملتين أن نجدها، هذه المرة في بيتها.

ولقد جلسنا ننتظرها عند بعض صديقاتها.

وكانت الأم تقرأ لإحدى الجارات في ثفل القهوة، والجميع ينصتون.

ولقد سألتها أين تعلمت ذلك، فقالت إن بائعة لبن سألتْها، ذات يوم، إن كانت تعرف أن تقرأ في ثفل القهوة.

فأجابت بالإيجاب، رغم أنها لم تكن تعرف ذلك.

ثم قرأت لها في ثفل القهوة. ولقد تحقق لها كل ما أنبأتها به.

فواصلت هذا العمل منذئذ. وصارت الجارات يأتينها بانتظام للسؤال عن مستقبلهن.

ولقد جيئني بكأس قهوة، فشربْته، وحركت الثفل في قاع الكأس.

ثم أفرغت المرأةُ ما في كأسي، وبعد بضع دقائق، أخذت أنظر في الكأس. فقالت لي المرأة التي كانت تجلس بقربي إن كأسي مثل وجهي : واضح.

ولم يبد لي شيء في الثفل. فكنت أنتظر قراءةً لما بين يدي، عندما جاء من يخبرنا بقدوم الشيخة.

فانتقلنا إلى حجرة منزوية. واقتعدت الشيخة إحدى الأرائك.

وكانت امرأة عوراء، ذات ملامح قاسية.

وكانت ترتدي ما يشبه كاغولية، تغطي رأسها.

والشيخة لبنانية.

ثم أجلستْني بقربها.

وطلبتْ من الأم أن تحضر خرقةً، فجعلتْها على وجهها ورأسها، ثم جيء لها بكأس فيه من زيت الزيتون.

فنظرتْ في الكأس من تحت خرقتها، وهي تبسمل.

ثم سألتني عن اسمي واسم أمي. واسم زوجي. واسم أمه. ثم حدث شيء لم أستوعبْه. فسألتني الفتاة فادية : «هل صحيح؟». فقلت : «نعم». وحينئذ، قصت عليَّ الشيخة نتفاً من حياتي الحالية.

وكانت أم جيڤاگو تترجم لي ما تقول.

ثم جاء دورها.

فتحدثتْ إليها الشيخة قليلاً. وانتهى كل شيء.

فأدت كل منا عشر ليرات، وانصرفنا، حانقتيْن.

وعندما أصبحنا خارج البيت، قالت أم جيڤاگو : «عشرون ليرة في دقيقتين! لن أصدق، أبداً، أن في مقدور إنسان أن يخمن المستقبل. إنها لم تخبرني بشيء على الإطلاق!...».

ثم تجولنا، قليلاً في صور. وتوقفنا، ككل مرة، عند بائع عصير الفاكهة، فطلبنْا كأسين من عصير قصب السكر. وإذا بأم جيڤاگو تشير إلى امرأة قد ركبت دراجة، وأردفت خلفها فتاة صغيرة. وقد راقها هذا المشهد، الذي يستحيل أن تراه في الرشيدية.

الرشيدية : 21 ماي 1981

كان حسن يسكن بيتاً، على الشاطئ، في الرشيدية.

فكان قريباً من البحر.

وذات مساء كان يقام حفل زفاف في بيت مجاور.

فكان صوت الدربكات، والموسيقى وصياح الراقصين يشق صمت الليل.

وكان حسن صغيراً. فآوى إلى بيته يغلبه النعاس.

وكانت في البيت أمه وأخته الصغيرة.

ثم سمع قرع على الباب. وذهبت أم حسن لتفتحه.

وعندما فتحت الأم الباب، دُفعتْ بقوة حتى اصطدمت بالحائط.

واقتحم الجنود الصهاينة البيت.

وفتحوا نيران رشاشاتهم على من فيه. ولبثوا يطلقون النار وقتاً طويلاً.

ولقد أصابوا الأم. وقتلوا أخية حسن.

وركزوا طلقاتهم على ذراع حسن اليمنى. فتماوت للتخلص منهم.

ثم غادروا البيت.

وقد استغرقت تلك العملية زهاء خمس عشرة دقيقة.

وعندئذٍ خرج حسن راكضاً، للمناداة على الفدائيين. لكنهم وصلوا متأخرين، بعد أن فر الصهاينة على متن قارب.

لقد مرت ستة أعوام على هذه الحادثة.

ومنذئذ، جرى تلغيم الشاطئ، ولا يزال.

وحسن، الآن، في التاسعة عشرة.

إنه فارع الجسم، رقيقه.

(أعتقد أن جميع الفلسطينيين يحبون أن يكونوا كذلك).

وهو يحمل مسدساً في حزامه.

وقد سألته كيف يستعمله. فأراني ذلك، قائلاً:

«إنني أخرج المسدس بيدي اليسرى، بسرعة، وأخفض الديك بفخدي الأيسر، أو ركبتي اليمنى. وأكون مستعداً لإطلاق النار».

وكان يعرضُ عليَّ طريقته مبتسماً.

ولقد اغتبطت جداً لقدرته على إطلاق النار بيد واحدة!

ثم ذهبت إلى مكتب الفدائيين؛ حيث كان ينتظرني أبو نبيل وأم جيڤاگو، وحسن ومحمود، قد اقتعد كرسيه المتحرك.

إنه 21 ماي. وقد جئت لتوديع أصدقائي، على أمل لقياهم في شهر يوليوز.

وقد دار الحديث بيننا.

فقلت لأبي نبيل إنهم استوقفونا، ونحن في سيارة الأجرة، كرات كثيرة، للتحقق من أوراق هويتنا. فأوضح لي أن الجيش الفلسطيني يبحث عن جميع الرجال الفلسطينيين لتدريبهم، استعداداً للتعبئة العامة.

وقال لي حسن إنه يرغب في الزواج بأجنبية. فهو يرى الأجنبيات جميلات. لكنه يريد أن تأتيه للاستقرار معه؛ حيث هو، في الرشيدية، فهو لن يغادر المدينة أبداً، لأنه فلسطيني.

فقلت له إنني أشاطره رأيه.

وعندئذ سألني لماذا تحب الأجنبيات السُّمرَ والزنوج من الرجال.

فضج الجميع ضاحكين.

وأجبته بأن دوافعهن إلى ذلك هي نفس دوافعه هو، إلى الرغبة في الزواج من الأجنبيات.

فارتفع ضحك الجميع بأكثر من الأول.

وبعد ذلك، ذهبت ومحمود إلى بيته .

وكان حزيناً جداً.

فأبوه يرقد في المستشفى، في صيدا. فقد كان بقرب الشاطئ؛ حيث سقطت قذيفة فأصابتْه شظاياها في ساقه.

ولقد اضطر الأطباء إلى بتْر جزء من ساقه.

وأراني محمود كتاكيته الخمسة التي يقوم على تربيتها في بيته.

وكانت الدجاجة الأم تهاجمنا كلما همَمْنا بالاقتراب من فراخها.

فنضحك، قائلين : «كالأمهات الفلسطينيات!».

وأراني محمود، كذلك، بعضاً من صور أسرته. وفيها صورة له على الشاطئ، وصورة لأخيه أحمد، يحمل كيساً مليئاً بالسمك، وصورة لطبيبة سويدية، وصورة لأبيه، وصورة لشاوي، وصورة أخرى له، بشعره المبلل، ضاحكاً، وهو، بعد، بساقيه الاثنتين .

وقال لي، معلقاً على هذه الصورة، إنها التُقِطتْ له قبل عامين.

وسألته :

— هل أنت حزين؟».

فأجابني :

— نعم، قليلاً. فقد عانيْت كثيراً، كما تعلمين. فقد توفيت أمي، منذ تسعة أعوام. وتوفيت أختي أمينة، محترقة، منذ أربعة أعوام. وكان طال احتضارها خمسة عشر يوماً. وسُجِن أخي، للاشتباه فيه في جريمة، هو بريء منها. ثم أخلي سبيله. واغتيل أخي حسن في تركية. وكان عائداً من ألمانيا. وسرِقتْ سلسلته التي كان يحملها في عنقه. وسرِقتْ نقوده. وقد كان يجيد العربية، والأنجليزية، والألمانية، والفرنسية والروسية. وصرت أنا مقعداً. وها إن أبي قد أصيب كذلك».

وجاءتنا جميلة بالقهوة. وسألتْ محموداً :

— متى تتزوج؟.

فأجابها :

— لن أتزوج، قبل أن يشفى والدي !

ثم جاءتنا جميلة بعدئذ، تحمل بين ذراعيْها بنيَّة أحمد ذات الستة أشهر.

وقد طلبتْ أن أهديها صورة لي. لكنني لم أكن أحمل معي صوراً شخصية. ثم أهدتْني قلنسوتين حمراوين لأقي بهما شعري حر الشمس.

وانصرفت إلى ملاعبة الرضيع.

وأذكر أني قلما رأيت جميلة لا تحمل رضيعاً بين ذراعيها.

وكان محمود يستبدل أشرطة الكاسيت كلما انتهى أحدها. وبعد أن تقدم الليل وهممت بالانصراف، ألح علي بالبقاء، لخطورة الطريق إلى بيروت، والقصف المتبادل بين الكتائب والإسرائيليين.

بيروت : ماي 1981

محمود.

تنمو ساقاك، إلى أن تطالا سماء فلسطين.

فهما شجرتان قد حرَّرتا الأرض، بما أنفذتا فيها من جذور، وحرستاها به من وارف الظلال.

إنك لمتماهٍ مع فلسطين.

وإن فلسطين لمتماهية معك.

وإن ساقيك لشمسان.

تدوران حول فلسطين.

فتتغير ألوان فلسطين بما تشرقان عليها أو تغربان عنها.

محمود، إنك ستسير في فلسطين. ستسير فيها.

فتتنفس عبق الأرض ينبعث من آثار قدميك فيها.

وتتنفس آلافاً من العطور المختلفة بتناوب الصيف والربيع.

ولأنك جذلان.

ولأن عينيك تفتحان العالم.

ولأن العالم كامن في بسمتك.

وفي نظرتك.

وفي مجاهدتك الحياة.

فستفتح بابَ فلسطين الحرة.

وأنت، أنت ستحطم الأقفال.

وتمد يدك.

فتنبثق الزروع.

وتطلع الزياتين.

لأنك القوة والحياة.

ولأنك فلسطين.

الرشيدية : ماي 1981

أما هو، فقد وُلِد في السنة التي أُنشئتْ فيها الدولة الصهيونية.

لكنه وُلِد فلسطينياً.

أرأيت؟ لقد خلقوا دولة إسرائيل يوم 14 ماي، ويومئذ، قرروا أن فلسطين ليس لها وجود.

لكنه فلسطيني.

وكذلك أبواه، وأخوته، وأخواته، وأبناؤه.

وعندما ولِد، بعد شهرين من إنشاء دولة الصهاينة، ولِد فلسطينياً.

والآن؟

يقول : «إنني أتذكر كل الشوارع، وكل بيوت الأصدقاء».

ثم يغرق في تفكير.

يقطعه بقوله : «سوف نعيد بناء فلسطين من ذاكرتنا».

ثم يشرق محياه فرحاً، فيقول : «ولن نحتاج في فلسطين إلى الكثير من الأطباء. فنبعث منهم إلى البلدان العربية الأخرى».

ثم يفتر محياه عن ابتسامة، وهو يقول : «أنا فلسطيني، وأنا ملك».

ويضيف، ضاحكاً : «عندما تفقدين صديقاً، في المرة الأولى، تبكين. ثم تمضين إلى حال سبيلك.

وكذلك تفعلين في المرة الثانية. وبعدئذ، تصيرين كلما فقدت صديقاً، تهيلين تراباً فوق قبره، وتنصرفين».

ويقطب وجهه، حينئذ.

وأحسه يبتعد عني.

الرشيدية : 1981 ـ من الربيع إلى الخريف

... على بعد خمسة كيلومترات، إلى الجنوب من صور. بين البحر والتلال.

وأنت تقف على الشاطئ. فتلوح لناظريْك المدينة التي كانت، من قبل، فينيقية فإغريقية، ثم صارت عربية، تتكوم في حضن مينائها.

أو تسير بمحاذاة الشاطئ، تجوس في الرمل، من الرشيدية إلى أن تبلغَ صوراً. فهذا أقرب الطرق إليها. لا يستوقف ناظريك من شقرة الرمل وشقرة المدينة، التي تتوسط صفحة الماء الزرقاء، سوى ما ألحق القصف بالبيوت من جراح، وسواد وضياع.

وتولي بصرك بعيداً، جهة الجنوب، فإذا الأفق قد امتلأ تلالاً.

في مقدمتها التل الذي يسيطر عليه الفدائيون وقوات الأمم المتحدة للتدخل في لبنان. ثم يلوح من ورائها الجبل الذي يحتله حداد. وتلوح من ورائها كتلة غير واضحة من جبال فلسطين والجليل، جبال الوطن المفقود، يوماً بعد يوم، وهو على مرمى حجر. الوطن المحبوب يوماً بعد يوم، وإلى الأبد. الوطن المتعدد المعطر بكل النسائم. الوطن المنتظر.

والرشيدية بين البحر والجبل. أقرب إلى قذائف سعد حداد، وإلى العمارات الصهيونية. تقصفها إسرائيل يومياً تقريباً ...

الرشيدية : مشهد 1982

في الجوار، وعلى الجانب الآخر من المخيم، والجانب المقابل للبحر، وأينما وليت وجهك رأيت أشجار البرتقال. ويغدو شذاها، في الربيع، هو الهواء، وحر الظهيرة ورطوبة المساء.

والدخول إلى الرشيدية يكون من طريقها الأوحد، الذي يمر بين بستانين. فيتلقاك، في المدخل، الفدائيون بتهليلات الترحاب. وتكون الطريق مستقيمة، ثم تنحرف، فجأة، فإذا أنت في حضرة مخيم الرشيدية.

وعلى يسارك «المخيم القديم»، لا يزال متشبثاً بالجبل؛ عرائشَ عنب وتين، وأكواخاً مصبوغة بالجير. وعويل البيوت الممزقة يخترق كتلة البيوت البيضاء الهادئة.

وأمامك، إلى اليمين، المخيم الجديد، وبناية المدرسة، وبناية مكتب غوث اللاجئين والنادي الشعبي، والبيوت المتلاصقة في شوارع مستقيمة، على هيأة أحياء، تحدها عرصات القصب والخيزران، التي تحف بالشاطئ. وخمائل الرند المبرعمة.

والبحر يطالعك من كل فرجة بين شارعين. البحر الهائل. الأخضر. البنفسجي. الأزرق. الجميل!... تطرزه، أحياناً، صخور مستديرة صغيرة.

وتبرز فوق البحر، على بعد كيلومترين من الساحل، سفن الصهاينة. ليكون الموت كذلك، جزءاً من مؤثثاته.

وتحيط بالشاطئ بيوت دمّر معظمها في عام 1978، وأضحت، الآن، مهجورة، منتجعاً لآلاف المآسي ...

وعلى طول الطرقات، تزف قدومَ الصباح شفاه مبتسمة : «صباح النور!». «صباح الياسمين». «صباح الورد». وتزف الصباحَ ضحكات من جمع إلى آخر. ومن بيت إلى شارع. وكل بيوت صباح النور دمِّرت. وكذلك دمِّر حانوت أبي عطيف. ودكان أبي رياض. ولم تعد تستبين الشوارع مما تراكم فوقها من حطام البيوت المهدمة.

وحفيظة حامل. ورانية لا تزال صغيرة. وأحمد سجين ... حفيظة مهاجرة تقيم في حجرة خرافية. تقوم فيها قماشة شُدَّتْ إلى السقف، مقام الجدار والباب.

فمتى يشرق على الرشيدية صباح فلسطين!

ومتى تشرق على الرشيدية صباحات الحرية!

القســـــم الثاني

الـرشيديـة ... حبيبتي

«صباح النور!»...

حياتي في الرشيدية

يجدون في أنفسهم حرية لا تُقهَر. غريزية. كاحترام الإنسان، في إنسانيته. وكالوضوح المشع لأشيائهم المستقبلية.

ويجدون في أنفسهم انشغالاً بأدق تلوين من تلوينات المعيش، وأصغرِ دقيقة من دقائقه، وإنصاتاً إلى أدق اهتزازات الجسد واعتمالات الروح. ويختزنون معرفة عميقة بتشابك الأحاسيس، وبالحالة البشرية التي محورها الحياة، تدور حوله مشدودة بين السماء والأرض، وبين الحياة والموت.

الموت الذي تتخلص به من حتمية المحور. متغيرين بتغير أضواء النهار والليل. لا يبدّل مما في أنفسهم ما يلاقون في أتون العذاب الرهيب، وما يعانون من انفجار القنابل ورؤية الموتى. نافذين، في كل ذلك، إلى أدق جزئيات الحياة. ومشعين من تحت السيل الجارف الذي يراد به إطفاء كل شيء، وإبادة كل شيء.

كأنما كانت إسرائيل تغتال نور الشمس في قطرات الندى على الأوراق، وفي رذاذ البحر، وعلى خصلات أمواجه المتلاطمة. لتمكّنْ لهم ربي حياة يفجرون فيها ما يطوون عليه ضلوعهم من حب لا تحده حدود.

باسم الله الرحمن الرحيم

بيروت أجمل مكان للعزلة. لا تأتيك فيها الأخبار ما لم تبحثْ عنها أو تسع إليها.

اتخذت طريقي بين البقال في القبالة، وبائعة الورد في زاوية الشارع، ووسط أغصان اللبلاب والجهنميات المتهدلة من فوق حائط حديقة الجامعة الأمريكية، وسفارة فرنسا. ويخترق الطريق المنتزهات الكبرى، مؤدياً إلى عين المريسة؛ حيث تقوم مدرسة بيبرو. كان ذلك في عام 1981.

كانت الحياة عند آلاف الناس تمضي هادئة آمنة. فهم في منأى عن الجنوب وقنابله. وقد لا يعرف المرء منهم بما يجرى فيه.

لولا ما كان فندقا «سان جورج» و«هوليداي إين» يشهدان عليه من مآسي الماضي القريب، ويذكران بها المارين بهما.

وكانت حدائق الأوب مزهرة، ومياه شلالاتها الخضراء إذْ تسقط في البحر، تحكي حية تسعى وسط أشجار الصنوبر، وأعشاب بخور مريم البرية وشقائق النعمان.

فإذا بلغتَ شارعي فولا والفاكهاني واجهتْك بيروت سافرةً، لا قناع ولا زخرف. فلاقاك حشد هائل من مبتوري الأذرع والسيقان. واكتنفك رمل وغبار. وغرقت في بحر من صنوف سيارات الأجرة، تزمجر في انتظار زبنائها للنزول إلى الجنوب.

فركبتُ إحداها. وكنت ركبت عشرين منها، أو يزيد.

فهل تراني عدت؟

كان السائقون ينادون بأعلى أصواتهم : «الصور! الصور!».

فهل أبدأ الحكي؟ تنفتح في وجهي الطريق، فإذا أنا أتعرف نفسي فيها. لكن تتأبى عليَّ الكلمات. وحده الطريق كان يسلس القياد..

أسلم عينيَّ وذاكرتي للمدى الشاسع شساعة الرعب، الواسع سعة اليأس.

فوقنا على الدوام الطائرات.

وقد كان يقوم في هذه الناحية مخيم.

فأصبح، الآن، أثراً بعد عين.

فإذا بلغت هذه الناحية تجمدت كلماتي، كأنما يتجمد فيها دم القتلى. بالمآت.

بل بالآلاف.

لقد كانت تلك تصفية عرقية.

معذرة.

أستسمح الرشيدية عن كل ما لن أقول.

وعن كل ما سأقول، فلا أُحسن فيه القول.

وعن كل ما لم أعد أعرف.

اليوم 27 يوليوز من عام 1983. يُغتال الناس في هيرون.

وهذا المساء، لا أعلم إن كنتم لا زلتم أحياء في الرشيدية.

الجنوب

أسلمتْنا صيدا إلى الجنوب. كان ذلك واضحاً من شذى أشجار البرتقال المزهرة.

فأوقفَنا جنود القوات الأممية في ما نصبوا من حواجز. ثم في ملتقى الزهراني.

إنهم جنود «القوات الأممية» : «كان الله معكم!».

بين البحر وأشجار الموز.

وبين البحر وأشجار البرتقال.

يمضي الطريق.

إلى الشمال أبو الأسود تعلن عنه أشجار الموز.

وعلى بعد كيلومترات، جيْل البحَر إلى اليمين.

مخيمان يقطنهما البدو.

ونساء يمشين مستقيمات.

والماء يجرى. وهن يحملنه.

نساء نافورات منتصبة. يمشين كأنما هن يمضين إلى طرف الحياة.

في هدوء.

ثم تلوح صور.

فإذا هي ملء النظر. صفراء ساكنة. أجمل مدينة بين مدن العالم.

المدينة الأجمل. وكفى!

عند طرف البحر. مشرعة الميناء لاحتضان ما يأتي.

وكنت رأيت صور في العام الماضي؛ 1982، ركامَ أنقاض لا تستبين منه.

إسرائيل ماذا صنعتِ بصور؟

وماذا صنعت بكل تلك الأعصر المختلطة فيها، من فينيقي، وإغريقي وروماني وعربي؟

وماذا صنعت بالرشيدية، والبصرة، وبرج الشمالي، وجيل البحر، وخزمية، وأبي الأسود، وعين الحلوة، وبطية، والمية مية، وصيدا، ودامور، والفاكهاني، وبرج البراجنة وصبرا وشاتيلا؟

كان يا ما كان

قال فتحي لروشي، وهو يمزق صحيفة بالية عثر عليها في السوق، بعيْد القصف :

«كان يا ما كان، قبل شهر (وكان منير قد توفي قبل يومين). كان يا ما كان قبل عشرة أيام. كان يا ما كان قبل ساعتين. لقد صرنا، اليوم، في خبر كان!».

تحول الحرب — (كل الحروب، منذ ثلاثين عاماً)— كلٌ دقيقة نعيشها، وكل ابتسامة تلوح على محيانا وكل مداعبة تأتيها أيدينا ذكرياتٍ لا خلاص لنا منها. فبيوتنا وأصدقاؤنا وأطفالنا ذكريات.

ولسنا، نحن أنفسنا، سوى ذكرى.

وأمل.

«ولقد أعيتنا الذكرى وأعيت الكرمل ...».

منذ عام ونيف، ألزم الصمت.

لكنني أريد لهذا الصمت، الآن، أن ينثقب. واليوم؛ 26 دجنبر، يقطع عليَّ خلوتي وشرودي هدير طائرة.

وصور رحبة، صفراء اللون، في خاتمة هذا السفر. منبسطة للقاء الماء الأزرق. وصور مشرعة، وحيوية بعصورها المتعددة. بيوت حجرية صفراء، ناعمة الملمس. وصور وأزقتها مسارات لا مرئية للخطى العاشقة، تنضح ضجيجاً، وتختنق من روائح الدجاج والأسماك، والقزبرة، والمشمش، تتلاقى في الواجهات وفي ملتقيات الطرق الجانبية.

صور مفتوحة على مينائها. صور الفينيقية. صور الإغريقية. صور العربية. أجمل مدن العالـم، وأدفـؤها وأرحـمها ...

صور!

أتمنى أن أظل فيها بعد مماتي، مثلما تمنيت أن أمكث فيها طيلة حياتي. صور الساحرة والدافئة، والناعمة والحنونة. كم تمنيت أن أُمضي حياتي متجولة في دروبها. وملامسة أحجارها في زوايا الشوارع. ومتحسسة مماشيها التي أبلتْها خطى سكانها من غابر العصور. أتنفسها طوال ساعاتها. من صباحاتها التي يميزها طنين الذباب، إلى مساءاتها الهادئة التي تعمرها طيور البحر. وأغوص في مائها الهادئ على السطح، اللاسع في العمق، من المريق والتوتياء. الناعم، بين السطح والعمق، من الطحالب.

وكما ترى، فكل شيء قد اختلط في رأسي. فصور حية. وصور دُكتْ. والرشيدية ...

....

لن يعرف العالم، أبداً، هذا السيل من الدموع. فلماذا البكاء ؟

هذا المساء يغتال السوريون إخوتي، في طرابلس، وفي بداوي، وفي نهر البرد.

«الصور! الصور!»، « الصيدا!».

هل تسمع؟

قالت امرأة لرجل :

«ادخل أنت أولاً. فلا يصح أن تجلس امرأة بين رجلين!». وعندما يكتمل عددنا خمسة، تنطلق السيارة. وعندما تمتلئ السيارة بسرعة، فذلك يعني أن الجنوب يقصَف بكثافة. فهل حتم علي أن أكون، طيلة حياتي، على موعد مع الرشيدية، أكنت في عكا، أو في ألما، أو في دير ياسين، أو في صفد، أو في سعسع، أو في أم الفرج، أو في فارا، أو في نهر الدمبة. تتلاشى الأمواج خلف عينيّ، على طول الطريق. ويتحمس قلبي لكل اللقاءات، والوجوه والحيوات، والضحكات، والحنان المتجدد دائماً، والنظرات.

وكان السائق يشغل أشرطة كاسيت من الأغاني البدوية، أكثرها تنهدات مموسقة لا تنتهي. وبين الدموع والموسيقى، أسلك بك دون ماء، في شموس الصحاري؛ حيث يموت الإنسان ... وترفع أم كلثوم عقيرتها : «أعطني حريتي ...!».

....

ويفسر لي أبو جيڤاكو الأغاني : «إنها عاشقة لا تستطيع اللحاق بخطيبها». أو «هو رجل يحب فتاة، لكنها على وشك الزواج من آخر». أو «هي فتاة تحب شاباً، لكنه هجرها». فكنا نضحك! وكان أبو جيڤاكو يضحك من فضولي الذي لا يفتر.

وسرنا بمحاذاة البحر.

وبعد أن خرجنا من المدينة، وتجاوزنا السوق، صارت طريقنا بمحاذاة المطار. ها هنا لا يعود في مقدوري تحمل الرائحة. فنحن في مبتدإ الطريق السيار، الذي يمر منه الجزارون صباحاً، قاصدين السوق.

وغير بعيد عن ملتقى وادي خالد، طالعتنا مخيمات يسكنها مسلمو الشمال، من اللبنانيين الذين ما زالت الحكومة اللبنانية، منذ انتهاء الأنتداب(*)، تضن عليهم بالجنسية

*- الوصاية التي جُعِلت لفرنسا على لبنان من 1920 إلى 1943 .

اللبنانية. ويتراوح عددهم بين 000 30 و000 50 ، يعيشون في الجبال، دون ماء ولا كهرباء ولا بريد ولا مدارس. وقد دفعهم ما هم عليه من فقر إلى الهجرة إلى بيروت.

وعندما دكت الكتائب أحياء الصفيح، في عام 1976، جاءوا يبنون أكواخهم على الساحل. ولقد هاجروا إلى بيروت بالآلاف، وأصبحوا يكونون قسماً مهماً من حتالة المدينة. ويربي بعضُهم خرافاً في وادي خالد.

ثم تجاوزنا خالدي.

فلاحتْ لنا دامور وسط الجبال.

دامور... كنت أُرَجِّع في نفسي اسمَها الرخيم. فأحسبها مدينة سعيدة.

لكن دامور مدينة الأرامل. مدينة النساء اللائي اغتيل أبناؤهن، وأزواجهن وإخوتهن في تل الزعتر في عام 1976.

تل الزعتر : شهران من الحصار بدون طعام، ولا ماء ولا أدوية.

وكانت قناة الماء الوحيدة التي سلِمت من القصف موردَ الجنود المرتزقة من فرنسيين وإيطاليين، وكتائب وسوريين. وكان بعض المتطوعين من السكان يخرجون في طلب الماء فيسقط أكثرهم عند النافورة، صرعى القنابل أو الرصاص.

فصار من عادة الفلسطينيين في تل الزعتر أن يقولوا : «في تل الزعتر يساوي كأسُ ماء كأساً من الدم !».

واستقرت النساء اللائي نجون من مذبحة تل الزعتر في دامور، مع بناتهن. وشيدن مغارس وروضات، وقمن على فلاحتها، فوق التلال حتى الطريق، وفي أسفل الطريق حتى البحر.

وفي عام 1982، قصف الطيران الإسرائيلي دامور.

فدمر بيوتهن، وأتلف مغارسهن وروضاتهن. وفقدن، من جديد، أبناءهن الذين ولِدوا بعد مذبحة تل الزعتر. وقُتِلن مع بناتهن في دامور. فأين هن، الآن، أولئك منهن اللائي لم يمتن؟

وبعد ثماني وعشرين ساعة من القصف المتواصل (تلك هي التقنية الصهيونية) أصبحت دامور مجرد ذكرى، ونحيب ترجِّعه الجبال والبحر، على المدينة المدفونة تحت أنقاض مساكنها وحدائقها.

فهل تعلم بهذا يوماً ما؟

....

وفي اليوم الموالي، دخل 000 15 جندياً أمريكياً جزيرة گرانادة الصغيرة.

ومن السهل تصور ما فعلوا هناك.

وبقيْت أفكر في صبرا، وشاتيلا والرشيدية ...

وذات يوم، قلت لصديقة التقيتُها في أحد شوارع نيس الهادئة : «هل رأيت ما يحدث في گرانادة؟».

فأجابتني، ضاحكة : «نعم. إنها حرب ضد مناهضي النزعة الأمريكية».

لقد أرهق الشعوبَ ما تؤدي من دمها ليوجد الاتحاد السوفييتي وأمريكا، وتعبتْ من تسخير أوروبا لها في دعايتها.

فهل تعلم أنت بهذا يوماً ما؟

إن هذا لهو ذاكرتي التي لا تفارقني أبداً .

......

لا ينِي البحر يلتطم بصخور الرملة، على الطريق إلى صيدا، ويداعبها. وأبحث عن حسن هناك. أبحث عنه؟ كلا، إنه هنا. نحن هنا معاً.

هل تذكر يا حسن؟

يوم شعرنا بالحرارة بعد مسيرنا في بيروت، فتوقفنا للسباحة.

وبعد ذلك أخذتَ تبحث عن جوربيك في كل مكان من الشاطئ، وتحت الأحجار الصغيرة المنتشرة في مواضع منه ... ثم غضبت مني إذ ركبْت سيارة الأجرة وأنا مبتلة الثياب...

كان الوقت صيفاً. وقد انقضى شهر يوليوز، وكان شهرَ رمضان، شهر القصف. في عام 1981. كثير من أصدقائنا الأثيرين ماتوا. وقد أتاحت لنا أسفارنا إلى بيروت أن نزور عماداً وأم منى (توفيت منى في يوليوز، بعد أن أطارت الطائرات الصهيونية برأسها)، اللذيْن أدخِلا المستشفى هناك.

وبعد هذه الأيام، سبحت وحسناً في البحر، كأننا نسبح في الحياة، في حميا!

ثم سرت بدونك في بيروت، أخي حسن. وركبتُ سيارة الأجرة (لقد مكنني الله من رؤيتك هناك حياً، بل ومبتهجاً أحياناً). وغادرت الرشيدية بدونك إلى بيروت. وإنني لفي شوق إليك يا أخي. يا عْيوني.

رمضـــــان ـ 1981

حسن، قليلاً ...

لقد أعطاني كل شيء.

كل شيء.

يدَه الوحيدة عندما لزمنا، أحياناً، أن نتسلق الحيطان والحدود.

وبيته.

وإخوته وأخواته.

وساعاته وصداقته.

وثقته.

إن حسناً لهو فلسطين التي تضحك وتصارع.

ها هنا. حيث لا يكاد يستبين فرق بين الكلمات والرصاص.

..... وساعات المسير

توقفتْ أصوات الطبول التي كانت تُقرع في رمضان. وما عاد جيڤاگو يجوب وأترابه، الأزقة الناعسة، موقظين الناس بصياحهم.

«يا نايم!...». صوت ساخر مرح، يرسله الصبي الصغير عالياً. ثم يمر بقرب البيت ويزداد صوته ارتفاعاً، وهو يضحك.... إن جيڤاگو يحيِّينا في ليل الرشيدية، التي عدت إليها.

ولم يعد يُسمع صرير الأواني، ولا صفير الماء.

هل تذكر يا حسن تلك الاحتفالات الليلية؟

كان الناس يبدون، في النهار، فاتري الهمة، ناعسين. وجوههم شاحبة، وخطواتهم متعبة. كأنهم أشرعة انقطعت عنها الريح. والحرارة على أشدها!

فإذا كانت الساعة الرابعة، أو الخامسة، تناهى إلينا من الأفنية صوت اصطدام الأواني المنزلية، وصفير الماء، يعلنان عن الشروع في إعداد العشاء.

وقبل أن يرتفع صوت المؤذن في المساء، يملأ جيفاكو وأبوه مغرفتيهما حريرة، منتظرْين سماع أول كلمة يتفوه به المؤذن!

وكان المساء يوقظ كل الضحكات.

ثم يأتي الليل، فإذا هو يضحك من كل الأطراف؛ في ضرب الدفوف وصرير أواني الأكل. وفي البطيخ الأحمر منفجراً في البيوت.

وذات ليلة، فتر صوت الدفوف.

وإذا الجو طائرات. والبحر غواصات. والبر مقنبلات. وإذا الموت في كل مكان.

وإذا الرشيدية سرداب.

والطرقات صمت.

وفي المستشفى كانت فطومة تنظر إلى يدها المبتورة. وفطومة بنيّة، في ربيعها الثاني.

إنه رمضان ...

طويلة كانت ساعات الصوم. وقد بدأ الناس يخوضون في حديث العيد.

فإذا هم يتلقون القذائف في أوقات الإفطار، تحديداً. فلم يفطر منهم أحد.

لقد عاد الموت بكامل عدته. فإذا هو يلتهم الأذرع والسيقان، ويحصد الرؤوس. إنه الموت الصهيوني.

وكان عدنان، يومئذ، يجوب أزقة الرشيدية، بشاربيه الصغيرين وساقيه الطويلتين.

وفي قلبه فلسطين. والفتيات أيضاً، دون شك.

لقد كان يسير في أزقة فلسطين. فربما احتاج مساعدته أحد.

ثم سمع أماً تسأل عن ولدها : «أين علي؟».

فتوقف باحثاً بنظره في الشارع.

وحينئذ، سقطت قذيفة.

أودت بحياته.

ولقد بكينا عدنان. مثلما بكينا منى. وفيروزاً. وغيرهم كثيرين.

من أجل فلسطين حرة. تعلو صباحها الضحكات.

ويواصل الناجون طريقاً سيِّدها الموت. من أجل ذكراهم، كذلك. ومن أجل الأزقة الهادئة في فلسطين الحرة.

وأسأل عن امرأة : «من تكون؟».

فيجيبونني :

— فلسطينية.

— ولكن ما اسمها ؟

— فلسطينية.

أيتها الأم الفلسطينية ما أشبه أبناءك بحسن!

وأراني أقول لأصدقائي :

— أمّا أنا أفلست فلسطينية، كما تعلمين. فأنا بذراعي الاثنتين. وأبي لم يُغتل. ولا اغتيلت أخواتي، أو أمي. وما زال ابناي حيين يرزقان....

فيقولون لي :

— إنك مخطئة. ففلسطين في القلب. وأنت فلسطينية.

كنت شاركت حسناً دعاءه فوق قبر أُخيَّته.

أخيته التي اغتيلت وهي بين ذراعيه.

وفقد هو إحدى ذراعيه ...

.....

وأذكر أن حسناً قال لي، ونحن في الرشيدية، بعد أن قصفتها إسرائيل :

«اذهبي إلى حال سبيلك. فلا ينبغي أن يعلموا أنك هنا».

والآن فقط أدرك مقصوده من كلامه. الآن، بعد مضي عام ونصف.

«إن فلسطين... في القلب»... وجواز سفري فرنسي.

ثم افترقنا. وظننته فراقاً إلى الأبد. أخي حسن.

لأنني لست فلسطينية، فأنت تجازف بحياتك إذ تبتسم لي، أو تنظر إلي. وكأننا عضوان في عصابة إرهابية عالمية، متعددة الفروع، دموية العمليات.

لأنني أجنبية.

فأنا أعرضك — وأسرتك وأصدقاءك – للتعذيب والموت بمجرد إشارة مني إليك ...

وانظر، أنت الذي تقرأ، كلّ ما تدمر إسرائيل ...

....

لم نعد نعرف للوقت نظاماً. فقد أصبح يسير على إيقاع القنابل.

إن حدّاداً يطلق قذائفه. وإسرائيل طائراتِها. وغواصاتها.

صباح

استيقظت منذ دقائق. وفتحت عيني.

ومددت عنقي، فإذا فوق رأسي شجرة تين. والشجرة ثابتة لا تتحرك. لكنها تتغير لوناً، وتنعقد ثماراً، وتتفرع غصوناً وأوراقاً.

وتتدلى منها عناقيد لا تطالها الأيدي.

وينام أبو حسن. ومحمود كذلك.

وفي البيت جميلة وشاوي.

والدجاجات النائمة تحت المنقلة المنقلبة، لن تتحرك قبل أن تُرفع عنها المنقلة.

وأصيخ السمع.

فإذا البحر حاضر بهديره، على الدوام.

والمخيم لا يزال غارقاً في الصمت. إنها اللحظة التي تتحيّن فيها جميع الأشياء والكائنات الحركة.

في هذه الساعة، يكون للقهوة التي أشربها في الدكان، في فجر الرشيدية الذي يكون لا يزال يخيم عليه الصمت، مذاق من الصفاء والهدوء، والكثافة، بعكس مذاقها في بقية النهار، كأنه جزء من الأبدية.

ويكفي أن يسمَع هسيس خطوة، أو رنين ضحكة تصدر من أحد البيوت، لكي تنطلق جميع الأصوات، من بيت إلى آخر، ومن البيوت إلى الشارع، فإلى الحوانيت، والطرق المؤدية إلى الحقول. ثم تسمع جلبة المستيقظين، وضحكاتِهم وأُصواتَهم، وقرقرة ماء الغسيل.

— صباح النور!

— صباح الورد!

— صباح الياسمين!

وإذا الجميع قد نهضوا. وإذا هم قد ملأوا أفنية البيوت، وانتشروا في الأزقة والشوارع. ثم يغادرون بيوتهم، متصايحين. يدعو بعضهم بعضاً.

وقد يراني أحدهم أمشي حافية، فيحييني، قائلاً :

— صباح الخير يا البدوية!

ثم، ...

على حين غرة، يُسمع صفير طائرتين.

فإذا الشوارع والأزقة قد أقفرت. وساد صمت ثقيل. ثم يُسمع صوت انفجار قوي.

ويُسمَع تطاير شظايا وقطع حديد غير مرئية.

ويهرول الجميع نحو المخابئ. ويسمع نفس الأزيز من جديد. وتعقبه طلقات المدافع المضادة للطيران، وصراخ وعويل وسباب، وصوت سيارات الإسعاف، وانفجارات قوية ...

كم دام ذلك؟

عايدة

أم عاطف امرأة سمينة. ويقول الناس في الرشيدية إنها إذا ركبت سيارة أجرة احتجزت المقاعد الخلفية بمفردها. وهي تجلس في دكان صغير قريب من بيتها، عندما يتغيب زوجها.

وأم عاطف امرأة نشيطة. فهي تنتقل بين البيت والدكان. وتعمل. وتذهب للتّبضع. وأمرُّ، بين الفينة والأخرى، لرؤية ابنتها عايدة الساخرة. فهي تعلن الحرب على العالم أجمع مبادئه، ورجاله، وعلى المدرسة. وكل شيء.

وكانت أمها تزين لها سلوكها. وتسمح لها بارتداء ثياب تبدو غريبة جداً في الرشيدية؛ حيث لباس الفتيات السروال والتنورة. فكانت عايدة تجوب شوارع الرشيدية، مرتدية سروالاً قصيراً، ضيقاً عند الساقين، وقميصاً يكشف عن كتفيها.

وكان أخوها عاطف قد عاد من ألمانيا، ممتلئاً مبادئ منها ما يتصل بتصرفات النساء وما يتصل بأدوارهن في المجتمع. فكان دائم الانتقاد لتصرفات أخته. وكانت عايدة ترد على ملاحظاته في عنف.

وكانت تلجأ إليّ، أحياناً. فكنت أدافع عنها. فلم أكن أحب عاطف . فأنا أعلم أن البلد الذي هو عائد منه لا يأخذ بكل تلك المبادئ. ولأنه كان ينعت أهل الرشيدية بالبدائيين.

ولقد فعل عاطف ما هو أسوأ. ففي عام 1982، شوهد وهو يدخن سيجارة يتوسط جنديين صهيونيين، ويبلغ بالفدائيين الذين يمرون أمامه، وكأنه قاضي القضاة. فيما أمه تصرخ فيه أمام الملإ، وقد فقدت صوابها من العار والغضب : «إن من تبلغ عنهم بتنفيذ عمليات في فلسطين المحتلة هم إخوتك. ولقد شاركتهم أنت، أيضاً، تلك العمليات، قبل أن تسافر إلى ألمانيا».

ثم قيل، بعدئذ، إن عاطفاً قُتل في سجن أنصار على يد السجناء. وقيل إن الصهاينة من قتله.

حسن

حسن على حاله، دائماً، لا يتغير.

إنه فارع الطول جميل. كأنما يؤدي في الحياة رقصة هي الصفو والسكينة.

ومنذ أن صار بذراع واحدة، وهو لا يُرى إلا حزيناً. ومتعباً.

لكنه لا يكف عن الضحك.

ويرفض أن يساعده الآخرون.

وقد يلزم الصمت أحياناً. وإذا أزعجته حينئذٍ يغضب مني.

إنه غاضب على الدوام أن بتروا إحدى ذراعيْه.

إنه أخي،

لقد مشينا معاً. وركضنا.

وسبحنا — حتى عندما كان محمود، من مقعده المتحرك على الشاطئ، يطلق علينا رصاصه الوهمي لكي نموت في الماء معاً. وتحادثنا، وبكينا، وركبنا سيارات الأجرة والحافلات المجنونة. وقمنا بزيارات. وضحكنا.

وهو يخرج عن جديته أحياناً، فيسخر من القادة، ولا يعود يحترم شيئاً مما هو قائم. ولا يحترم غير من يحب. وغير ما يحب.

إنه يريد أن يحيا ويريد أن يموت.

وإنه لحكيم حكمة عميقة. وطفولي طفولة أبدية.

إنه متعب جداً.

ولا ينبي متحركاً.

إنه أخي.

لقد قدم من صفد.

إن لعبته معاركة من هم أقوى منه. وهو يخسر عراكاته معهم. فيغضب. ثم يعود إلى ضحكه المعتاد.

ولقد عدتُ إلى الرشيدية، في حوالي الثالثة زوالاً .

كان يوم 20 يوليوز 1982.

والتحق بي حسن، فور وصولي، في بيته الذي لم يهدَم.

فلبثنا ننظر إلى بعضنا.

وكان شاحباً.

ولم نكد نتكلم.

وإذا هو يقول لي، فجأة : «عودي من حيث جئت. لا ينبغي لك أن تبقيْ هنا. فلا ينبغي أن يعلموا أنك بيننا. فذلك مصدر خطر علينا. وعليك. ستمضين الليل في بيتي. وفي الصباح تغادرين».

واليوم أنا في نيس — وقد انقضى وقت طويل — انقضت شهور.

كم يلزمنا من سنوات، ياحسن، لكي نسير جنباً إلى جنب، وذراعي وكتفي قريبان من مكان ذراعك الفارغ؟

فلسطينيون

نسير جنباً إلى جنب ... وحسن يترنم بأغنية.

نأكل حبوب الفاصوليا التي قطفناها عند مرورنا ببعض السياجات.

ونلتقي الأصدقاء والصديقات ... ونتوقف لنشرب من النافورات، ونلاعب الصبايا. والجميع، في ذلك، كأنهم شلالات متدفقة.

ما أشد خضرة فلسطين. وما أبهاها. إنها نبع سرمدي لا يتوقف جريانه!

وكلما خلوت إلى نفسي، فكرت في ذلك الفجر الشاسع، الذي تحول هذا الشعب من أجله، إلى شعب مسلح.

وكلما حدثني الشيوخ عن صباحاتهم في فلسطين، أسِفت لجهلي بلغتهم. ووجدت الكلمات تختزن تفاصيل حيواتهم. فإذا هي موسيقى وصور.

وأحاورهم بأنجليزيتي الرديئة، التي يضيع فيها جمال لغتهم.

أيها الشيوخ الذين عاشوا في فلسطين، ويريدون أن يموتوا فيها.

ويا أيها الشباب الذين وُلِدوا بعيداً عن فلسطين، ويموتون من أجلها ...

إنكم تكلمونني بلغتكم التي لا أمسكم منها بغير موسيقى الكلمات والأصوات.

أعرف أن طائرات الميراج التي سلمتها فرنسا للصهاينة قد استُعمِلت مرات كثيرة في قصف الرشيدية ...

وأعرف كذلك، أني ما ناديت باسم فلسطين يوماً، حتى تجرَّحت شفتاي.

ولا قطع الصهاينة يدي، كي لا أستطيع حمل السلاح من أجلك.

ولا بكت عيناي طفلي القتيل.

ولا سال دمي فوق طرقاتك، فلسطين.

ولا كسرت الصخر بأسناني.

لكني أصرح بحبك للعالم. ولك.

وهيهات أن تفلح الطائرات، التي تسعى للإطاحة برأسك، في أن تحطم كلماتك، أو تخرس موسيقاك الأبدية، التي تمدين بها جسراً إلى الحرية.

الليل وسعد حداد

كنا نستضيء بضوء شمعة.

والقمر في سمائه بدر.

ثم أطفأنا الشمعة إذ سمعنا أزيز طائرة.

ولبثنا في الظلام.

أحسني أتفجر حيوية! قد صرت كتلة حقد وحب.

ورأيتُني أتحول صاروخاً، فأخترق الأفق، وأثقب تلك الطائرة، فأمنعها من نشر الموت فوق بيت جميلة، التي تعمل، وفوق أرجوحةِ وليد وفاء. وفوق الحياة المتفجرة حيوية. وفوق البسمات والوجوه.

وتأخذ بي، أحياناً، رغبة جامحة أن أصير صاروخاً، لا يني يجوب السماء، طولاً وعرضاً. بحثاً عن آثار القتلة.

فهل أكون، يوماً ما، صاروخاً في قلب إسرائيل، وظلاً على الأرض التي آوتني بين أبنائها، وأرضعتني حبها، وجددتني دماً وحساً.

وأنت، يا محمود، وإن جعلوك مقعداً، فإن شَعرك صار يلامس الأفق.

وأذكرك، فأراني انفجرت قنبلة، وانتثرت ألف شظية، وألف قنبلة قاتلة.

أقتل الانتحابات. وأفجر الضحكات.

جيلال، وحسن، وفتحي، وجميلة، ووفاء... والآخرون. جمع بصيغة المفرد. لا يتجزأون، كما هي فلسطين.

وأنت وفلسطين : حب واحد لا يتجزأ.

وأنتبه من أفكاري، فإذا الدنيا صمت وتوجس.

وتفرقع قنابل سعد حداد، فتضيء الليل. ويسرع الناس إلى إطفاء شموعهم.

فقد أصبح العدو يهتدي إلينا في الليل كذلك.

وتسعفني فرقعات القنابل، وما تشيع في الأفق من ضياء على الاهتداء إلى الورقة والقلم.

فأكتب على خط التّماس مع الموت. متدفئة بما أنطوي عليه من طيبوبة الناس، التي هي كالشمس في يوم غائم.

فضائي الليل، والفدائيون والقمر الذي اكتمل بدراً. وأراني بينهم أشرب الشاي.

إن الصداقة لكالشمس.

وتعاودني الرغبة أن أصير صاروخاً.

ثم تأخذ بي رغبة في الرقص. فتراني أرقص. أرقص.

أرقص ضد القنابل.

وضد الموت الصهيوني.

وأذكر ما قال لي أبو علي، ذات يوم :

«كان ابني علي يقترب من سنته العاشرة. وكنت أنوي أن أقيم حفلاً كبيراً بمناسبة عيد ميلاده. فدعوت كثيراً من أصدقائي في المخيم، وكان عددهم يقارب المائة. وبينما الجميع في رقص وطرب على إيقاع العود والدربكة، إذ سُمع أزيز الطائرات. ثم أعقبه قصف مكثف للمخيم. فلجأ بعض المدعوين إلى المخابئ. أما أنا فقد رأيت أن الحفل الذي أقيمه لابني أهم من القصف. فلم أشأ أن أوقفه. ولذلك أصررت، وقلة ممن بقوا معي، على

كلا إنهم لا يعرفون من يكون الفلسطينيون.

فهم، وإن انتزعوا ذراع حسن. وساقي محمود. لم يبلغوا من ذلك شيئاً.

إن الفلسطينيين يعيشون شموساً فوق الأرض.

وتحدثني صباح.

في ود ودفء.

تجري كلماتها على إيقاع القنابل، ترسلها الطائرات فوق صور.

وجيفاكو خارج البيت (يا الصبي!)، رفقة محمود.

وفاضل، أيضاً.

جيفاكو خارج البيت يحمل كلاشنيكوف.

ونحن في فناء البيت نتحدث.

عن لبنان. وعن فلسطين.

برج الشمالي تحت القصف.

وهذا يعني أن الإسرائيليين يتهأون لقصفنا هنا.

ثم يتحول القصف إلى الرشيدية.

والقصف يبدأ بإلقاء القنابل. فيُهتدى بأضوائها في تحديد الأهداف المرصودة للقصف المركز.

وهي الآن تضيء حول مدرستنا.

ونشخص بأبصارنا إلى مسقط القنابل. لأن المظلات المستعملة في إسقاط القنابل المضيئة تحكي، في نزولها وصعودها، ناموسات هائلة.

ورأينا الحاج يهرول بحثاً عن قذيفة سقطت ولم تنفجر. فصاح به أبو جيفاكو : «لا شك أنها سقطت بقرب بيت أبي بتيخ! ...».

ألا ما أجمل ليلتنا، في مواجهة هذا الخادم العميل سعد حداد!

......

إنها ليلة جميلة.

فهل تنساها، يا فتحي؟ وهل تنسينها يا صباح؟

في هذه الليلة، يا إخوتي، ونحن على طرف العالم، أصبحنا أصدقاء.

وتطرق ذهني صورة لظهيرة أحد الأيام. وكان سعد يعطر بصواريخه الرشيديةَ.

والأزقة والشوارع مقفرة إلا من شمس لاهبة.

وتعلو، في نفس الوقت، صرخة مسجد، قرآناً نازفاً.

كم أحبك، يا الرشيدية!

وكلما هتفت باسمك رأيت جميلة تغسل الأواني المنزلية، في سكينة.

وما أجمل أناسك!

وما أجمل ريح البحر، كذلك.

أحب هذا البحر الذي يثور في وجه السماء، ويثور في وجه الطائرات التي تثقب سكينة الليل. وأحب صمتك.

وأجد متعتي في الخروج إلى الشارع. ولو كان ذلك ممنوعاً بسبب القصف.

وأجد متعتي في الريح، وفي الليل، وفي المشي، وفي أن أكون بين الناس.

ووسط الفدائيين.

الذين يقومون على الحراسة. ويضحكون. وينظرون.

ليل وريح. وأنتظر الماء لأجعل فيه قدمي.

ولا ماء. نفتقر إلى الماء منذ بضعة أيام.

ويتحول القصف ناحية صور، ورأس العين. ثم يعود إلى هنا.

لم يستعملوا، هذه المرة، القنابل المضيئة.

إنها ليلة جميلة. إن جمال الليل من جمال ناسه.

ويزداد عنف البحر وصخبه.

ويأتي شابان ليحلا محل فتحي، الذي قام بالحراسة طيلة ليلتين.

ويقول له سالم : «امض للنوم!».

شباب، وجنود فلسطينيون. علاقتهم الرقة والطيبوبة. وحب الحياة.

وانتبه من نومي في الفجر. فأجدها ساعة سانحة للكتابة. لولا أني أحتاج إلى السجائر.

استعمال الزمن

تُطْفَأ الأنوار، في المساء.

تُطفأ كلها.

ويصير الليل فضاء من الكلمات.

وفي المخابئ تنام النساء والأطفال. وقد مُدَّت أفرشة وأغطية. ورقد الصغار متلاصقين. وجلست النساء، وصغارهن في أحضانهن، يتحدثن في صوت خفيض. ويعلقن على القصف. ويتكهنَّ بالبيوت المرصودة للقصف.

ترتج المخيمات....

بين الفينة والأخرى. فيأتي بعض الفدائيين، لاستطلاع الأحوال، والاستفسار عن احتياجات السكان.

وفي الخارج يذرع الفدائيون الشوارع زرافات زرافات. في خضم عاصفة جهنمية.

لكن ذلك لا يمنع بزوغ صباح جديد.

صباح يوم جديد من حرب وموت.

يكون مقدم الصباح صامتاً في حوالي الساعة الرابعة.

وبعد ساعة، سيُسمع، لا محالة، هدير الطائرات، وجلجلة قاذفات الصواريخ والغواصات. وإذا هي تنشر الموت في كل الأرجاء.

ويلتقيني أبو زعير، وهو على متن شاحنته، فيجلسني إلى جواره. فإذا بلغنا البصرة أنزلني قرب المستشفى.

تلك طقوسنا الصباحية.

وسيتوقف أبو زعير عند عين الماء. فيغسل رأسه من مائها. وسنتحدث عن القدس التي قضى فيها معظم سني شبابه، أو عن الرشيدية. ويكون كلامنا بالعربية. فلا أفهم كل ما يقول.

فنضحك كمخبولين. ثم ننتبه إلى أن الجو قد أصبح ساخناً.

ثم أنزل من الشاحنة، ويواصل هو مسيره.

وفي الطريق إلى المستشفى سألتقي وجوها قد ألفتها في صباحاتي. فنحيي بعضنا سعداء بأن استطعنا ذلك مرة أخرى.

ثم أدخل المستشفى. فأقصد، من توّي، أبا ناصر في المطبخ، لأحييه. ثم نتبادل سجائرنا. ونضحك قليلاً.

ويبدأ عملنا في الساعة السابعة. فنحل محل فرقة الليل التي تكون قد أخذ منها التعب كل مأخذ.

ونجد في القاعة كؤوس القهوة وشطائر البطيخ. فالشهر شهر رمضان. وقد تناول المرضون آخر وجباتهم في الساعة الثالثة صباحاً.

وأسأل عن أحوال المرضى.

فيخبرونني بدخول ضيوف جدد، أمس، المستشفى. من الجرحى.

ثم نقوم جميعاً بجولة في الغرف. ويتقدم بنا الصباح، ونحن ننتقل بين غرفة المستعجلات، والمركز وباقي الغرف ...

الجو الآن حر وقصف.

فالوقت ضحى. ولا تزال سيارات الإسعاف تتوالى على فناء المستشفى.

وفي الخارج، تجلس النساء تحت الشرفات والأقواس باكيات في صمت. وهن يمسحن أعينهن بأطراف خرقهن.

إنهن يبكين...

ويتم نقل الأطفال من سيارة الإسعاف إلى غرفة المستعجلات.

ثم يتم نقل النساء.

رجل يصرخ في مقتبل العمر، باكياً أمّه المحتضرة.

لقد قصفت الطائرات الصهيونية الجسر، عندما كان يعمره العابرون.

فكم سقط من القتلى فوق جسر خردالي؟

لم يعد في مقدوري إحصاء الجرحى المتقاطرين على غرفة العمليات. لفرط كثرتهم.

كما تم انتشال عشرين جريحاً ونيفاً (وهو رقم مؤقت)، من تحت جسر خردالي حيث كان الناس يحتمون من الطائرات.

فتوفي شخصان بعد خمس عشرة دقيقة من وصولهم إلى المستشفى في حالة احتضار.

ويرقد في المستشفى، كذلك، طفلان مات أبواهما في ذلك القصف.

الوقت الآن ليل. والساعة التاسعة.

لقد توقفنا عن العمل منذ نصف ساعة.

ولقد أجرينا عملية جراحية لرضَّع في ربيعهم الأول.

ومات آخرون.

أريد أن أذهب، غداً، إلى الرشيدية لأتفقد أحوال أصدقائي.

يستحوذ علي خوف من إنزال على البحر، أو بالطائرات المروحية.

وأحلم، أحياناً، أني بجوار ابني پيير.

وسرعان ما يشق حلمي هذا، حلم آخر: حلم بالهُنا. إنني لم أر الحاج منذ أربعة أيام ... فأخشى أن يكون مات ...

ثم أقول لنفسي فلْأَنَمْ. ولأمنع تفاحش هذه الأفكار!

تخيفني كل النظرات. فأخشى أن يموت جميع الناس. وأنا في غمرة قصف لا يكاد يتوقف...

أم صلاح

أم صلاح مشرفة على الموت.

فهي تفتح فمها وتغلقه. تحاول ابتلاع بعض الهواء ... ويتقوس ظهرها.

لقد توفي، اليوم، كذلك، زوجها وأطفالها السبعة.

وكانت الأسرة قد رحلت من الرشيدية منذ شهرين، هرباً من قذائف حداد وقنابل إسرائيل. وجاءت لتستقر في الزهراني، آملة في تأمين الحماية لأطفالها.

وها هي الأم قد جيء بها، اليوم، إلى مستشفى البصرة، في حشد من النساء الجريحات والمحتضرات.

فكانت غرفة المستعجلات تنضح دماً، وتغص تراباً، ووحلاً ...

لقد قصف الإسرائيليون الجسر عندما كان الناس يعبرون النهر.

وكانت أم صلاح غارقة في الدم الذي غطىّ رئتيها الممتلئتين من وحل النهر.

إنها تموت. وقد برزت حدبة كبيرة على جبينها المبلل عرقاً والملطخ وحلاً.

فهل تموت؟

إنها لا تزال، بعد، في السادسة والثلاثين؟ فلسطينية.

تموت وهي لا تزال ممتلئة الثديين حليباً. يغطيهما صدار متسخ.

يركض الناس بين صاروخين. من البيوت إلى المخابئ. ومن المخابئ إلي البيوت. ليحملوا المفاتيح. أو ليأتوا بالماء، والمصبرات، والخبز ...

مخاطرين بحياتهم.

ولقد خرج حسن، قبل خمس دقائق، رفقة اثنين من أصدقائه، في طلب الخبز لأكل السلاطة. فسقطت أكثر من قنبلة أثناء ركضهم من المخبإ إلى البيت. (وأحمد الله أن عاد وصديقيه سالمين). إنني أموت خوفاً في المدة الفاصلة بين صاروخين.

وقبل وقت قليل (أسبوع)، قتِل طفل أحد أصدقائنا؛ منزوعَ الساق، ومهشم الرأس من شظية قذيفة.

ويقول لي حسن : «ليجعل الله موتك هنا!».

ويكرر ذلك على مسامعي طوال اليوم.

فأجيبه : «حسن!».

كيف أعود إلى فرنسا؟

كيف؟

إنه زمن المجرمين.

فالموت يغوص في الرأس، إلى أن يصير «الغد» كلمة مستحيلة. أو، على الأقل، كلمة جسورة.

إن «بُكرة» لهو تحد.

لأجل كل هذه النظرات، وكل هذه البسمات، وكل هذا الظمإ إلى الحياة، وكل هذه الأسئلة ... أمجد الدقائق، والساعات، والأيام، لا أزال ...

أنسى التواريخ.

من كثرة ما تتشابه أيام القصف.

لقد أصبحت الزيارات مستحيلة.

ويقول لي أبو جيڤاگو :

«احذري، عندما يكون القصف من البحر، ما قد يأتيك من هذه النافذة!».

إن النوافذ والأبواب مشرعة على القصف : هنا البحر، وهناك حداد، والطائرات في كل مكان ...

وأصبح السير في الرشيدية أمراً غريباً. فإذا سرتُ كنت الوحيدة في الشوارع والأزقة التي أضحت مقفرة من الأطفال، بعد أن أُلزِموا بيوتهم، أو أُدخِلوا المخابئ مع أمهاتهم.

وأذكر أني رأيت حسناً في وقت كهذا؛ أقفرتْ فيه الشوارع والأزقة، رأيته ينزل الجبل، قادماً من أقصى البحر. وكنت آتية من الاتجاه المعاكس.

ولم يكن سوانا في المدينة، التي كانت فضاءً للموت والحياة. ورأيت كيف يكون جمال حسن وشبابه تحت شمس الرشيدية.

جوهاي

كنت أمس في الرشيدية.

أما اليوم، فتمنعني عنها كثرة أشغالي في المستشفى.

لقد صرت، ومن معي من الممرضات، نقضي وقتنا كله في المستشفى.

ففيه ننام ونغتسل. ثم نعود إلى العمل.

لقد أصبح المستشفى فضاء غريباً نحيا داخله.

ننظم وقتنا على إيقاع القنابل خارجَ المستشفى.

وكان الفدائيون، على مقربة من صيدا، ينازلون الصهاينة، رأساً لرأس. ولقد دمروا إحدى سفنهم. وأسقطوا إحدى طائراتهم.

وأعلم أن لا سبيل لي إلى الرشيدية، اليوم. فأحاول أن أخلو، في الحيز المتبقي لي من الحرية، في رأسي، بوجوه حسن، وفادي، والحاج، ومحمود ...

وغداً لا بد من الرشيدية!

ويقول لي الناس، أحياناً، إنني سأموت هنا.

فأفهم.

فلم يعد لي من سبيل إلى القطيعة مع المكان!

ويحدث لي، أحياناً، في النهار، أن أسير في شوارع الرشيدية، كأني قطة جريحة، مما أحمل من حب، وأعي من موت.

وأهجس بقرب انتهاء المسير. إذ أن الصمت الذي تعمره أصوات صراصير الليل والضفاضع، دون أن تخترقه، ينطوي على قنبلة موقوتة.

لقد قتل الصهاينة نيفاً وماءتي شخص في رمشة عين. ونزعوا ساق محمود، وذراع حسن، ورأس مني ...

الوقت، الآن، ليل.

أجلس في إحدى الغرف إلى كاملة. بعد أن اقتُلعت ساقها.

وبقربها يرقد شاب فدائي، مبتور الساق، أيضاً.

وقد أخرجنا، للتو، فدائياً آخر من غرفة المستعجلات، اخترقت رصاصة جبينه.

ثم نقلناه إلى أحد الأسِرة. وهو يضطجع، الآن، صامتاً.

وأتمنى أن يكون في مقدوري أن أحمل كل مخاوف العالم، لكي لا يشعر بالخوف.

ولقد وضع يده فوق يدي. أراح يده فوق يدي!

لقد اخترقت رصاصة جبينه. فجبينه الآن ملفوف في ضماد.

ثم حان وقت إطفاء الأنوار. فخشيت عليه من الظلام.

في الأفق طائرات. وفوق الأرض قنابل.

فوق رأس العين. والبرج. وصور. وخزمية... والرشيدية؟

في أي هذه الأماكن سقط قتلى؟ وكم عددهم؟

لا يزال الليل عابقاً بشذى الياسمين.

ممتلئاً كلمات عربية.

ثم يطلع النهار.

منذراً بيوم ثقيل.

ترى أين يكون حسن؟

فأسمع من حوالي هدير طائرات، وغواصات وقصفَ قنابل ...

من البصرة إلى الرشيدية....أيام

بناءٌ ضخم من حجر مقصوب. بأقواس تطل على الواجهة الأمامية.

وخلفه بستان من أشجار الرمان المزهرة. وأشجار الحامض والياسمين ... والشيخ يدفع دراجته المحمّلة عشباً، في المجازات.

ويرتفع صوت مريم :

«يا شيخ، يا شيخ!».

أشجار الرمان اكتست أزهاراً حمراء. وأشجار الحامض انعقدت حبات حامض خضراء. والجرادات لا ينقطع طنينها، في الحر اللافح.

الساعة الواحدة زوالاً.

تقتعد ليلى، وأبو ناصر وزوية عتبة باب المطبخ. يقشرون الباميا، لتهييء العشاء.

والداخل إلى الردهة، من الباب المجاور للمطبخ، ينتهي إلى درابزين مستشفانا.

فيرى على يساره غرفة المستعجلات، وحجرة العمليات، والصيدلية، وحجرة الضمادات. ويرى على يمينه غرف المرضى. وهي غرف واسعة تؤدي إلى بعضها. ذات سقوف عالية. يُسمع فيها، أحياناً، أزيز المراوح البطيئة.

الحر خانق.

والوقت صمت ثقيل.

وفجأة سمع صوت طائرات وانفجار قنابل.

وقد بدأت عملية إخلاء المستشفى، منذ أن ابتدأ القصف المكثف، من مرضاه الذين يمكنهم أن يتابعوا علاجهم في بيوتهم. لكن سرعان ما امتلأ من جديد بالمصابين المتوافدين عليه طوال اليوم. والآن، نساعد المرضى ذوي الإصابات الخفيفة على النزول إلى المخابئ. وكنا قد أنزلنا، قبل قليل، إلى أحد المخابئ، امرأةً وضعت حملها قبل الأوان. وأنظر إلى وليدتها الصغيرة، ملفوفة في القطن. لقد ولِدت، وهي، بعد، في شهرها السادس، في جحيم القصف. وعندما أدنو منها تفتح عينيها. لكنها صغيرة جداً وضعيفة جداً! لا تعرف كيف ترضع، ولا كيف تبتلع. ولا نملك مسباراً لندخل به الطعام إلى معدتها ... لا نستطيع لها شيئاً.

ولقد بقي جزء من ذوي الإصابات البليغة من المرضى داخل المستشفى لتعذر نقلهم إلى داخل مخبئنا الضيق. واستمررْنا نقدم العلاج ونجري العمليات الجراحية في المركز تحت وابل القنابل.

وقلَّ مخزوننا من الدم. فتبرع بعض مستخدمي المستشفى بشيء منه. وارتفعت النداءات في المساجد بطلب الدم. ثم استحال الحصول على الفئات الدموية التي كنا نتزود بها من بيروت أو من صيدا.

وكذلك قلَّ عدد السيارات على الطرق، بسبب القصف ونقص البنزين، الذي أصبح يصل بكميات قليلة إلى الجنوب، منذ أن حطِّمت الجسور (فلم نعد نرى غير سيارات الإسعاف والسيارات العسكرية). وتناءت الرشيدية...

ولقد وصلت الرشيدية اليوم، على متن سيارة جيب. ولقد سارت بي تلك السيارة بأقصى سرعتها تحت قصف الطائرات. أشجار التين تتوجع. وأشجار البرتقال تتضور. والقرية أضحت قفراً.

وأصبح كل ما يؤثث الفضاء طائرات، وطريق، وسيارة جيب، والرشيدية التي تدنو ونحن نجوب الطريق إليها في سرعة جنونية. والمنعرجات الأليفة في شكل أعشاش الدجاج.

الرشيدية في تقاطع الحياة والموت.

الرشيدية، أخيراً!...

....

معجزة متجددة في كل يوم. وسعادتي الطفلية بأن أصل إلى الرشيدية. وأكون فيها. وأسير بين دروبها.

سعادتي بأن أعرف ناس الرشيدية. وسعادتي بأن أعود إلى ملاقاتهم. كأني أعود، في كل مرة، من وراء البحر؛ لا أطلب سوى هذا اللقاء.

كانت المدرسة غاصة بالفدائيين! الأولاد صغار. وتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية. يأتون طيلة السنة الدراسية للتمرن، والعمل في الجنوب في فصل الصيف.

ولقد تم ترحيل فرقة الصداقة، التي جاء أفرادها من مختلف البلدان الأوروبية، لبناء طريق جديدة في المخيم (طريق نعيم خضير[10] من المدرسة، منذ ابتدأ القصف المكثف وخلفهم الفدائيون. فهم ينامون في المدرسة. ويقومون، رفقة مقاتلين آخرين، على أمن ساكنة الرشيدية.

وصرنا نقوم بأعمال المطبخ جماعة في المدرسة، مستعملين في الطهي الوابورات الغازية، التي نجد صعوبة في تشغيلها والعمل بها.

ثم كنسنا المدرسة.

فقد دمرت القنابل الحديقة. وأضرت بالمخابئ.

وكنا، فوق ذلك، قد استنفدنا ما كان عندنا من ماء منذ ثلاثة أيام. وتحولت المدرسة إلى ورشة. فكنتَ تجد في كل زاوية منها ركام الغسيل وأواني المطبخ والبطاطا...

فنظفنا المطبخ. وعهدنا إلى إحدى الفرق بالغسيل. ثم باشرنا العمل داخل الأقسام.

وكانت القنابل قد حطمت زجاج النوافذ. ويعمل وليد وحسن معي. وهما يشرحان لي كيفية استعمال المكنسة القصيرة، التي يجيدان استعمالها أفضل مني. كما يستعملان المكنسة المطاطية في إزالة ماء الغسيل.

فما ألطفهما من ولدين! وما أجمل الحياة بقربهما!

أما أبو جيڤاگو فلا يمل من انتقادي. إنه يراني ألوث الأرضية بعد أن أنظفها. فينصحني بأن أجفف المكنسة، بين الفينة والأخرى، بضربها بالأرض.

وفي الظهيرة، حلقت الطائرات، بين قصفيْن، في سماء المخيم مدة ساعة ونصف. (ولقد انتهزنا تلك الفرصة للقيام بالأشغال المنزلية).

وأثناء ذلك، لاذ الجميع بالمخابئ. فالطائرات الصهيونية تصور الناس، لتقتلهم، بعدئذ حيثما وجِدوا.

وفي المساء... لاذ الأطفال بالمخابئ. وتولى الفدائيون الحراسة. أما أنا فنمت في المدرسة، رفقة أم جيڤاگو وأم عطيف ...

في المساء ... يقاتل فدائيونا. والجليل ينوء تحت القصف، منذ أيام ...

لقد اغتالوا عز الدين القسام[11] ، واغتالوا أبا علي أياداً [12] .. وانظر كيف تضاعفوا...

انظر!

المستشفى

—— يا أبا ناصر! صباح الخير! هل أنت بخير؟ وهل صحتك جيدة؟ وكيف يسير العمل؟ ألست متعباً؟ وكيف هي أحوال الأسرة في صيدا؟

—— صباح الخير يا حبيبتي إنتِ! إنني بخير، والحمد لله. وأنت، هل أنت بخير؟ هل جئت من الرشيدية؟ وهل ما زلت تذهبين إلى هناك؟ ألا تعجبك البصرة؟

—— إنني أحب البصرة، كما أحب الرشيدية. لكنني أؤثر الحياة في الرشيدية، لأنني أعرف جميع سكانها، وأشاركهم حياة المخيم. وإنني بخير، والحمد لله. وأنتَ؟

—— أنا، بخير ما دمت أنت بخير. تعاليْ إلى البيت في المخيم، في صيدا، يوم السبت، وسأهيء لك خبز الساج ...

—— هل تجعله على ذراعيك، هكذا، لتمططه؟

—— نعم، كذلك ... —— ويضم ذراعيه إلى بعضهما، ويبعد بين مرفقيه؛ يحكي لي طريقة إعداده خبز الساج، الدقيق جداً، كأنه شفّاف – هل تشربين الشاي معي؟ .

—— نعم. شكراً. هل تدخن؟

فيصفق بلسانه، تعبيراً عن الاستهجان، قائلاً : «ألا زلت تدخّنين هذه «البازوكات»؟ سأتناول واحدة، لأنها منك، ولِأعرف ما سر تفضيلك لها. إن سجائر «جيتان» ... هي للجنود! بل إن الفدائيين أنفسهم أصبحوا يستهجنونها. يا حبيبتي، أنت، هل تغذيت؟ تناولي طعام الغذاء في المطبخ، فلا بأس في ذلك. اجلسي ها هنا، بحيث لا يراك أحد. ويمكننا أن نواصل حديثنا. ماذا صنعت في الرشيدية؟... ماذا تقولين؟... وينفجر ضاحكاً. أعيدي ما قلت فأنا لم أسمعك جيداً».

كان أبو نصر يضع يده في جيب بدلته الزرقاء. ويمسك بيده الأخرى سيجارة جيتان قد دخن نصفها، ثم جعل ما تبقى منها فوق إحدى أذنيه ليدخنها فيما بعد. وهو يحدثني، ويستفسر مني. ولا يكف عن الضحك في كل ما يفعل. فكنت أشاركه الضحك. وعندما يتبسم يتغضن موقا عينيه، وتغدو هيأته من الرقة والنعومة بحيث تتملكني الرغبة في تقبيله. لولا أن ذلك لا يجوز هنا ... وسرعان ما ينكب على الأواني المنزلية ... وأراني أتفحص حركاته وما يفعل في اهتمام. أو يمسك بسكين، فيقطع ما يقطع. فأحمل، أنا أيضاً، سكيناً لأساعده لبعض الدقائق. حتى وإن لم يقبل بذلك. ثم ترانا نضحك مما نفعل. ونضحك من كل شيء.

كذلك هو دأبنا منذ أن بدأت عملي في المستشفى. وأجد أبا نصر منكباً على العمل. فإذا لم أجده في مكانه المعهود، صار كل شيء في يومي باهتاً عديم الطعم ... ولقد سألت أبا نصر :

—كم لك من الأولاد يا أبا نصر؟.

— سبعة . سبعة أولاد وأربع بنات .

— ألم تتعب زوجتك من كثرة الإنجاب؟

— يعني ... قليلاً. لكن البنات يساعدْنها.

وأجدني في أحسن حال بقرب أبي نصر. كقربي من كل شيء في مطبخه!

وتمر زوية، فتصيح بي ضاحكة :

— لا تثقي بما يقول أبو نصر... إنه يكذب!

وقد أجذب منديل زوية، لأكشف عن شعرها. فتعيد شده، ضاحكة. وربما بدت عليها علامات الاستياء. فتصيح بي :

— خَلاص! مجنونة أنتِ! ...

أو أجذب الشريط الذي تشد به وِزرتها. فتسقط. مما يضطرها إلى وضع كل ما تحمل أرضاً. لتعيد شد ذلك الشريط.

فيضحك أبو نصر بملء فيه، مما نفعل. وسرعان ما ننخرط في الضحك مجتمعين.

إني آتي المستشفى مبكراً ليكون في وسعي أن أُمضي بعض الوقت في المطبخ.

لست أدري ما السر في كوني أفضل، ها هنا، كما كنت أفضل في فرنسا، الضحكَ مع الطباخين على الضحك مع الأطباء...

وإنني لأجد استقبال أبي نصر لي كل صباح من الرقة بحيث أود لو أستطيع، أن أُمضي نهاري كله رفقته وزوية!...

وقد يتفق لي، في بعض الأحيان، أن أمر على أبي نصر في المطبخ لأنعم ببعض من أحاديثه وتعليقات زوية. وقد يحتفظ لي أبو نصر بفرنية بالزهور (الشلبية)، فإذا مررت عليه أعطاني إياها. وظل يراقبني إلى أن آكلها كلها. فهو يحرص على أن أسمن. فيقدم لي ما يقدم، ولسان حاله :

«إنك نحيفة. وينبغي أن تكون المرأة سمينة. فبدون ذلك لا تكون جميلة. كُلي!».

وفي طرف الحديقة، يقوم مغسل الثياب الذي تشتغل فيه أمٌّ كاملة.

وأم غسان قد تكومت أمامها أغطية الأسرة. فهي تنتقي منها ما تنتقي. وتدخله في الآلة الضخمة القديمة. وتغسله. وتعلقه على الحبال. ثم تلمه إذا جف. وتحمله فوق رأسها. وتجتاز به حدائق المستشفى وأروقته. منتصبة القامة. إلى أن تبلغ به غرفة التمريض.

وتبدو أم غسان متعبة من كثرة العمل. وتزيد من إرهاقها شدةُ الحر.

والمستشفى يشكو من نقص في أغطية الأسرة. فنحن لا نملك، في معظم الأحيان سوى غطاء واحد لكل سرير. وأحياناً تعوزنا أغطية بعض الأسرة. وتحتاج غرفة العمليات في أوقات الحرب، كثيراً من أغطية الأسرة. إذ تستبدَل الأغطية في سرعة توازي سرعة إيقاع القنابل ... فيكثر عمل أم غسان.

لكني أجدها، كلما زرتها، بشوشة منشرحة. فتسألني : «هل جئتِ لتساعديني؟ لقد تأخرتِ كثيراً. فلقد فرغت من عملي. وإذا شئت أن تساعديني فإليك بالغسيل فاجعليه

على الحبال. ألا تستطيعين حمل كل هذا الغسيل؟ ما نفع رأسك، إذن؟ هل ترين أي حياة نحيا؟ لقد نودي على كاملة، ليلة أمس، إلى غرفة العمليات. وهي لا تزال تعمل فيها منذ الساعة الثالثة صباحاً. ووليد في صيدا. وهو لن يعود اليوم... فمتى تستطيع كاملة أن تخلد للنوم. أما أنا فسأمضي إلى بيتي. فقد فرغت من عملي. وسوف أذهب إلى البيت. فهل تأتين؟ تعالي بعد ثلاثة أيام، لا أكثر. فبعد ثلاثة أيام، إن شاء الله، سيعود ابني الأكبر غسان ...».

وقد آنس، كذلك، إلى الشيخ.

والشيخ رجل ضئيل الجسم. أضأل مني. قد شاب شعره. وشحبت عيناه الضاربتان إلى الزرقة. وربما كانتا من سمرة داكنة. تحفهما هالة زرقاء غامضة. ويجيل الشيخ في الأشياء نظرة هي خليط من الحدة والفتور. نظرة رجل متألم. خبر صنوفاً من المآسي والفواجع. وظل على صفاء إيمانه وقوته!

والشيخ يرتدي سروالاً عريضاً. قد تنى أسفله المتدلي فوق حذائه الضخم. وقميصاً مفتوحاً عند العنق. وهو يمتلك عنزتين. يختلط في لونيهما السواد والشقرة. وعنزتاه لعوبتان نزقتان. ولقد قيدهما بحبل طويل. شده إلى شجرة من أشجار الصنوبر، بجوار البيت الصغير الذي أنزله كلما جئت البصرة. والشيخ بستاني. ورصّاص. وكهربائي. ونجار... وسوى ذلك.

ولقد جلست إليه أمازحه تحت أشجار الصنوبر، ناعميْن بظلها. يطوقنا القيظ، الذي تبعثه الأرض، ونسمع له طقطقة في أغصان أشجار الرمان الضخمة. وأوراق أشجار الليمون. وفي تويجات الياسمين. فلم نقدر على البقاء في مكاننا تحت شجر الصنوبر المحفوف بنار القيظ.

وأخذنا نسير متحاذيين في تؤدة. وبعد قليل قال لي :

— ها نحن قد وصلنا. فإذا احتجت إليَّ في أمر فلا ترددي في أن تطلبيه مني. وتعالي، متى استطعتِ، لتشربي القهوة في بيتي. إن زوجتي ترغب في التعرف عليك. فأجبته :

— لا أستطيع زيارتكما اليوم، يا شيخ. فلا تغضب مني. إن حسناً ينتظرني في الرشيدية. فلا تغضب مني. إنني عندما أعود إلى الرشيدية يسألني الناس من أين جئت. ولمَ أمضي إلى البصرة. وإذا جئت إلى البصرة سألوني لماذا أمضي إلى الرشيدية. فلا أملك تفسيراً. وحسن يعلم ذلك. وهو ينتظرني، زوال هذا اليوم، في الرشيدية.

— فلتمضي إذن. لكن تعالي يوماً ما لزيارتنا في البيت. فهو ليس ببعيد عن المخيم كما تعرفين. وزوجتي لطيفة. فإلى اللقاء. هل تعجبك عنزتاي؟ هل هما جميلتان؟

— ربما كانتا، يا شيخ، أجمل عنزتين في لبنان.

— الله معك!

ويدفع دراجته البالية، مبعداً عنه الأغصان الخضراء التي قطفها لتكون طعاماً لعنزتيه.

ولقد منعتني الحرب من زيارة الشيخ في بيته. وربما ستمنعني هذه الحرب الجديدة من زيارته إلى الأبد. ولقد أدت الحرب، كذلك، إلى محو الحديقة، وأشجار الرمان والصنوبر، والمغسل، والمطبخ، وأشجار الياسمين ...

وربما أصبحت هذه الحرب حائلاً بيني ورؤية البصرة، وصور والرشيدية، وأبي نصر وحسن وفتحي.

وقف إطلاق النار

التقاني أبو خلدون عند مغادرتي المستشفى. فأقلّني في سيارته. وشرع يحدثني في أمور لا أفقهها.

ثم بلغنا الرشيدية. فلاح لي مجلاها البكر. فالرفاق فوق الشاحنة. وخصوصاً منهم صلاح. يلوحون إلي بأيديهم ترحيباً. ويصيحون. ويقهقهون.

ووجدت جميع من في الرشيدية خارج بيوتهم. قد اجتمعوا في كل ناحية من المدينة. وسدُّوا شوارعها. ثم اندفعت نحوي أم جياگو. تطلب معانقتي، ضاحكة :

«لقد أوقفوا النار! لكن ألست فرحة لذلك ؟ لقد انتهى القصف! ...».

وأتى إليَّ ماهر. فسار إلى جواري. ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث. فإذا هو يسألني :

— لماذا تكتبين دائماً؟

— لأنني أحب أن أكتب عنكم، وعن الحياة بينكم.

— وأين أنا من ذلك؟

ـــ إنك هنا. ألا ترى؟

ويضحك ماهر.

لقد تعرفت على ماهر عندما كان كلانا يسبح في منأى عن قوارب الصيادين. في رأس العين. وكان أن أفلحنا في إنقاذ أحد الأولاد بعد أن أتعبه العوم. ومنذئذ صرنا نقوم بمعية أبي جورج المتحفظ بغسل الأواني، في بيت أبي خلدون ومقاتليه، الذين يملكون أكثر مكاتب الرشيدية نظافة، وأناقة وخضرة، والذين نلجأ إليهم للتزود بالماء كلما احتجنا إليه.

ويضحك ماهر من لكنتي. فهو يحاكيني قائلاً : «شكراً جزيلاً يا حسن». في صوت يبالغ في رفعه. فيضحك مني جميع من يسمعه. ويغضبني ذلك.

إن جميع الناس مغتبطون بأن أصبح في مقدورهم أن يتجولوا في حرية. وأن السماء لم تعد تحول بينها والشمس والنجوم أدخنة القصف.

وأنت ترى حلقات النساء في زاويا شوارع. وترى حلقات الرجال في زوايا شوارع أخرى.

والجميع يتبادلون التحايا، ويتعانقون، ويقبلون بعضهم. ويتمازحون. ويضحكون.

وعاد الأطفال إلى لهوهم ونزقهم.

لقد انتهى القصف! انتهى!

اليوم يتم وقف إطلاق النار بداية من الساعة الواحدة والنصف.

فمرحى!...

......

وكان القصف في الأيام الخمسة عشر الأخيرة مريعاً. وقبله كانت الطائرات الصهيونية قد دأبت، منذ عام 1973، على صب جام موتها على الرشيدية وجنوب لبنان مرات في الأسبوع.

وهذه أول مرة يُفَكُّ فيها هذا الحصار الجوي منذ ثمانية أعوام.

أول مرة منذ ثمانية أعوام!...

وذلك مبعث انشراح الناس وضحكهم.

وكنت أجلس بمحاذاة حسن. وكانت أخواته الصغيرات يدخلن البيت ويخرجن منه. لاهيات.

وتتباكى ميادة. فيضاحكها حسن.

ثم يقول : «ماذا يعني وقف إطلاق النار؟» إنه يعني، بكل تأكيد، ألا نخشى، بعد قصف الصهاينة الجوي.

فمنذ سنوات وهذه القنابل تغتال أصدقاءنا، وإخوتنا، وأمهاتنا... لكنك ترين أن وقف إطلاق النار لا يعني السلام.

وسيعود الصهاينة إلى قصفنا من جديد.

ونحن هل نستطيع العيش بعيداً عن بلدنا؟

هل نستطيع القبول بما يفعل الصهاينة، في هذه اللحظة، في فلسطين؛ من استملاك واعتقال واغتيال؟

فلتعلمي أنه ما دام لم تحرر فلسطين، وما دام لم تحررها ثورتنا، فلن يكون سلام» ...

... وبعيداً عن هنا

بات المستشفى يغص بالجثث منذ يومين. وباتت أروقته تزكمها رائحة الجثث.

ولقد حاولنا أن نخفف من هذه الرائحة برش ماء البنفسج وماء الخزامى. ثم نقلنا الجثث أمس، من أماكنها. لكن بقيت في أرجاء المستشفى رائحتها.

وتعرفنا، في المستشفى، على هوية أربع جثث جيء بها من بيروت، وبقيت في معرض الجثث مدة يومين. ولم تكن أسرها تعلم بأمرها.

وليس في المستشفى غرفة مبرّدة ...

وفي حجرات أخرى من المستشفى يرقد الجرحى من الأحياء.

لكن هذه الرائحة ترعبني. فأترك المستشفى إلى الحديقة. وأمعن في الغوص في أرجائها. أو أذهب للعمل رفقة كاملة في غرفة العمليات.

إنني أهرب.

وتراني أعود للنظر في وجوه الجرحى.

أتدفأ بسيماهم الضاحكة. هؤلاء شباب كانوا يرقصون ويغنون في الأعالي.

فماذا جعل منهم الوضعاء الأدنياء؟

يتملكني الجبن في هذا المكان. وأرى الآخرين لا زالوا على دأبهم في العمل. أما أنا فقد صرت أعجز عن ذلك.

ويخرج محمود ليتقيأ. ثم يعود لمواصلة فحوص الأشعة.

وتأتي عالية إلى غرفتي لتنعم بالنوم قليلاً. ثم تعود إلى العمل.

وأرى الوجوه يملؤها التقزز.

لقد ماتت منى. وأرى أمها تبكيها، وأُخَيَّتَيْها (إحداهما في ربيعها الثالث، والأخرى في ربيعها الأول)، معلقتين بين النوم والغيبوبة. تجهدان للبقاء على قيد الحياة.

أما أنا فأتحاشى رائحة الجثث.

لماذا؟

إنني أجدها مغثية ومسكِّرة. تنساب في كل مكان. وتبلغ حتى البستان. فتطوّق الأغصان. وتهيمن على الأعشاش والأعشاب ...

فلماذا أكتب عن هذا الرعب؟ لقد أصبح هذا الرعب معيش الفلسطينيين اليومي.

فهل تراك تفهم؟ هل تفهم ذلك يوماً ما؟

لقد توقف القصف. لكن ظل المستشفى تفوح منه رائحة الجثث المغثية.

إن عدنان قوة وطيبوبة، وبسمات. فماذا صيّروك يا عدنان؟

بعيداً عن وقف إطلاق النار، تمتلئ أرجاء المستشفى رائحة مغثية. مدوخة.

ستتحرر فلسطين يا عدنان!

فلتنصت إلى أرض الرشيدية، حيث يأتي حسن لزيارتك.

ستتحرر فلسطين .

العودة من رأس العين

هذه أول مرة ينزل فيها محمود الماء طلباً للسباحة، منذ سنتين.

إن رأس العين على ساحل البحر. وفيه بستان، ومزرعة. وترعى فيه أبقار. ونحن نصعد درجاً إسمنتياً، متعرجاً. يفضي إلى صهريج صغير؛ حيث نسبح.

وعندما بلغنا الصهريج (يحمل شاب قويٌّ البنية محموداً، مرتقياً به الدرج) وجدناه مقفراً إلاّ منا؛ أنا، وحسن ومحمود. لكن بعد لحظات وصل عشرون شخصاً من الرشيدية. وسرعان ما اكتظ الجو بقهقهاتنا.

وأخذنا نسبح بسراويلنا الجينز وقمصاننا القصيرة، في الماء البارد. مختبرين قدرتنا وتحمُّلنا. فكان حسن أفضلَ من يسبح فينا، رغم أنه بذراع واحدة.

إن رأس العين أكثر المواضع استهدافاً بالقصف الصهيوني. ففي المنطقة خزان ماء. وفي البساتين يعمل عمال كثر.

ولقد اغتنمنا وقف إطلاق النار.

وجئنا معنا ببطيخة حمراء. فجعلناها في الماء. لكن عندما تذوّقناها تقززنا، إذ وجدناها لا تزال ساخنة!...

ولتخليد هذا اليوم المشهوْد من حياة محمود، في تصالحه مع الحياة، منذ أن فقد ساقيه، التقطنا صوراً كثيرة. وكان حسن يحملنا إلى جنة الضحك. فهو لا يتوقف عن اللعب. يفرض أوامره. ويريد أن يتصور في كل وقت ...

— إذا كنت أنت حزينة، فأنا حزين. وإذا كنت فرحة فأنا فرح. وإذا كنت بخير فأنا بخير. ...

... وكان محمود يجلس في السيارة، ملامساً برأسه سقفها البلاستيكي ...

فأذكر وقفتي في الساحة، يلامس شعري أغصان الكرمة.

... غداً يؤدي محمود ما عليه من ديون للبقال. كما اعتاد أن يفعل كل شهر ...

أجلس في المدرسة مفكرة في كل ذلك.

ونسمع، في هذا المساء، أصوات البواخر الصهيونية تمخر البحر. ونسمع هدير الطائرات المروحية، أيضاً.

الساعة الحادية عشرة. وفجأة سكت الجميع. وعم السكون كل شيء.

ثم أخذت الطائرات المروحية تبتعد، رويداً رويداً، إلى أن انقطع صوتها.

وعاد المساء ندياً. هادئاً.

البحر — يتنفس —

ونهار آخر قد طلع. وجئت المستشفى. فجاء من يدعوني إلى الدكتور حسن، الذي يريد أن يقدمني لزوجته الشابة. وسوف نعود من الرشيدية إلى رأس العين طلباً للسباحة.

الليل يحتمل بارتعاشات الضفادع.

وسمير يقظان. يتأمل في صمت. وما عادت به حاجة إلى التدخين.

والبحر يطلق العنان لأمواجه.

وكلب ينبح. عبثاً.

ومحمود يبدو في جلسته أكبر مما هو في الحقيقة!

في استطاعتي أن أمضي أياماً وأياماً بمعية محمود وجميلة!

لجميلة أربعة سيقان : ساقاها وساقا محمود.

وهي لا تتوقف عن استعمال هذه السيقان أربعتِها.

ومحمود وجميلة يتحابان أكثر من أي أخ وأخته.

ولقد توفيت أمهما وأختهما الكبرى، منذ سنوات. وكان شاوي لا يزال بعد، رضيعاً.

وسيشق عليهما، وعلى محمود بخاصة، أن تتزوج جميلة.

إذ سيحتِّم ذلك على محمود أن ينتقل للسكن مع أخته في بيروت. وهو ما لا يروقه.

وشاوي؟

ذات يوم، عنَّف الأب جميلة، فرأيت محموداً، في البيت، يراضيها ويخفِّف عنها.

وأذكر سعادتنا الغامرة ذات مساء ... كانت جميلة ترتدي كسوة بنفسجية، زادتها جمالا، إذ كانت سوداء الشعر فاحمتَه، وسمراء البشرة داكنتَها.

وكانت تضع رجليْها في كفي محمود، فيرفعها ...

وكانت جميلة تضحك. وكان محمود يضحك. وكان حسين يضحك. وكنت أضحك ...

المساء رائع.

وأنا أتهيأ لأكل الخبز بالمربى.

جالسة أرضاً. وغير بعيد مني يجلس الحاج عماد، وأبو علي، يأكلان. ويتحدثان.

إن الحياة لجميلة.

والبحر متحرر من عقاله.

فلْيَبِد العمارات الصهيونية!

ليفتتْها ثم يسحقْها!

الثانية صباحاً.

ولا تزال الحياة (اليقظة) تغريني.

وربما كان ذلك مني لمجرد الإنصات للبحر.

ولكي أستيقظ، فلا أنسى شيئاً من العالم.

لقد أصبحت من فرط أكلي المربى مسكَّرَة بكاملي. والشاي أجده رقراقاً صافياً!

إنني أبالغ في أكل مربى المشمش. وهذا جيد، في ليالي رمضان.

وربما تفتقت السماء ليلة غد عن نور أبيض ساطع. فنقول ثلاث أمنيات لا شك أنها ستتحقق. لأن الله مصدر النور. كذلك قال لي محمود.

أما هو فيريد :

— أن تعود أمه وأخته إلى الحياة من جديد، وتجتمع الأسرة كسابق عهدها.

— أن يشتري سيارة سريعة.

— ويعود إلى دير القاسي.

ثم سألت جيلالاً أمنياتِه. فأجاب :

— أن أعود إلى بلدي.

— وأعيش في استقامة.

— وتكون لي أسرة صالحة.

وكنت أجلس رفقة بعض الأصدقاء. منشغلين في الحديث. غير عابئين بالوقت. وقد أزف الليل.

وكنت أنصت إليهم.

ويمسك لي سمير المصباح.

فعندما أكتب في الليل، ويكون الضوء معطلاً، يجيئني أحد الأصدقاء بقنديل ليعينني على تبيُّن موقع القلم من الورقة.

ولقد قدِم سمير من عكا.

وقدم الحاج من قرية الشيخ داود.

إن لأسماء القرى والمدن على خارطة فلسطين وجوهاً تميزها.

ولست أجهل بالليل، وأنا بينهم.

وعندما أتوقف عن الكتابة لحظة، يصيحون بي : «يا الله! يا الله!» نافدي الصبر .

لقد نامت أم جيفاكو مبكراً في بيتها. إنها حزينة. ومتعبة. فهي لم تعد تملك نقوداً.

ذلك هو حال جميع البيوت.

ولم يعد محمود يملك نقوداً. ولا حسن. ولا أم جيفاكو.

وحده وليد لا يزال بحوزته بعض المال.

لم تأت جميلة إلى رأس العين.

وهي لا تعرف أن تستعمل السلاح. لأن أباها لم يكن يريدها أن تشارك في التداريب.

وكذلك هي زوجة أحمد؛ حفيظة.

وكثير من النساء يعرفن استعمال الأسلحة. فكيف تجهل باستعمالها جميلة وحفيظة؟ سأستفسر من محمود.

وحل الليل.

جميع هؤلاء الرجال، وهؤلاء النساء، وهؤلاء الشبان، فلسطينيون. إنها إرادة متعددة. وبلد واحد.

الله أكبر!

قال محمود : «حفيظة اعطي الأجنبية ماء!».

و«الأجنبية» كنت أنا.

وفي صباح العيد كان الجو ساخناً في صور المعتملة حيوية.

فتوقفنا أزيد من خمس مرات لنشتري اللحم، لإعداد الأسياخ، والكبي نيٍّ، لأكلها مطهوة مع البصل.

ولقد جرت العادة أن تكون في البيوت وفرة في اللحم في يوم العيد.

الجو ساخن في صور. وصور مكتظة.

وربما تزوجت جميلة غداً.

ربما ... فليس ذلك مؤكداً.

ولذلك كانت أسرتها تتبضع لأجلها. فقد جاءوا لها بكسوة الزفاف البيضاء والعطور، والأصباغ، وساعة (جميع النساء المتزوجات حديثاً يزين معاصمهن بساعات).

وجميلة تسير في صور.

كسوتها الجديدة حمراء.

وكل ثيابها الحمراء تزيدها جمالاً.

لقد أمضى الناس شهر رمضان عصيباً.

نعم. عصيباً كان شهر رمضان، هذا الصيف.

دم. ورائحة الموت. وطائرات.

لقد حصدوا رأس منى، ذات صباح نيِّرٍ من صباحات شهر يوليوز.

كان رمضاناً دامعاً.

واغتيلت فيروز، أخت عدنان ذات صباح من أيام رمضان...

وديعة كانت فيروز وحنونة! لقد اغتيلت وهي، بعد، في ريعان الشباب. واغتيل سبعة أطفال آخرين. ولقد خرجتْ — مثل منى— من المخبإ، صباحاً، لتهيء طعام الإفطار للصبيان...

في شهر رمضان تتعمد إسرائيل أن تقصف بطائراتها البيوت في ساعات الإفطار.

«الله أكبر» .

يصرخ سميح ويبكي في المستشفى، هذا الصباح، كعادته في كل الصباحات. منذ أربعة أشهر.

إنه لا يطيق البراز الذي يكسو بطنه، منذ أن مزقتها القنابل.

قنابل أبريل.

ولقد جعِل لسميح أستٌ اصطناعي منذ أربعة أشهر.

وهو في الثامنة.

... وهذا الآخر!... صورة ابني عندما يكون جاداً. بدون ذراعه اليمنى.

وداعاً أيتها اليد الصغيرة الحميمة!...

ينظر الولد الصغير إلى نفسه. إنه لا يصدق ما ترى عيناه.

تلك كانت طائرات أُبريل...

وسألني حسين :

«هل تعرفين الله؟» .

فأجبته :

«نعم، أعرفه. إنه أسيرٌ في القدس. وهو يستصرخ الشعب الفلسطيني ليحرره».

ولقد هال حسيناً ما سمع. فأمرني أن أخرس.

لماذا لا ترى أن الله سجين؟

إن الله يستنجد بفلسطين وشعبها ليعيدوا إليه حريته.

حسين! حسين! لماذا لا تسمع صوته الكبير، صوته الذي يصعد من جميع الصدور؟

اقتُلعت ذراع حسن. اقتلعت ذات ليل.

في زيارة خاطفة للصهاينة. على متن قارب.

واغتيلت أخيَّته.

التي كانت تضحك للشمس.

اغتيلت بين ذراعيه.

— وكان لا يزال، بعد، بذراعين —

إن ذراع حسن المقتلعة لتفتح أبواب سجن الله!

فلتخلصي الله، أيتها الذراع! خلصيه من الشيطان! وخلصيه من جميع الآلام.

.....

لقد قلت ذلك في عام 1981، ولم أكن أفقه ما أقول.

واليوم — والحمد لله — هداني أصدقائي، وإخواني، وحبي إلى الإسلام. لقد أصبحت مسلمة.

اليوم أقول لحسين ما لم أهتد إلى قوله من قبل :

«إنك واجدٌ اللهَ وفلسطين في نفس الطريق. وإن تحرير فلسطين لهو عند الله كالصلاة. ولو خذلت شعبك الذي يقاتل من أجل فلسطين ويؤمن بالله، لضللت طريقك وابتعدت عن الله. إن فلسطين وشعبك والله هم على نفس الطريق. ذلك هو الطريق المستقيم. طريق الثورة الفلسطينية. فثق بشعبك وآمن بالله».

امرأة في العالم

«إنني اليوم سعيد أنك لم تبرحي البيت طيلة النهار، ولا حادثت رجلاً».

كنت أكتب، بطبيعة الحال! ...

أمتح من ذاكرتي الوفية لي أشد ما يكون الوفاء. وفي ذاكرتي فريدة تعدو تحت وابل القنابل، باحثة عن عالية التي تتجول في مكان ما ...

والطائرات تقنبل.

وتسقط فريدة. وتنهض. وتظل تعدو!

ويتناهى إليّ من على التل؛ حيث تربض الرشيدية، تحت القنابل، صراخٌ وعويل مصِمٌان. وتتعالى أصوات : «من مات؟».

أيتها البنيَّة ذات الشعر المجعد، أين أنت في الرشيدية؟

تطلبك قنبلة.

وتبحث عنك أمك.

فمن يظفر بك الأول، يا عالية؟

صراخ وعويل، من على التل، أصوات بشرية وتفجيرات. «من مات؟».

يدور حديث في الساحة.

ظهيرة، ككل ظهيرات الصيف.

في رمضان يكثر النائمون في ساعات القيظ.

من مات على التل؟ تصرخ النساء.

وتبكي عالية. وتبكي أمها. وتدخلان معاً (آه! ما أعمق عناقهما!) المخبأ راكضتيْن. يتوجع التل. وتنوح سيارة الإسعاف.

من مات في الرشيدية، على التل، في هذه الظهيرة؟

كلما أردتَ محو ذكرى من الذكريات ازدادت لصوقاً بذاكرتك. فهي تكتسحك وتبحث عنك، وتجدك، وتحملق فيك، وتعذبك ...

يضرب دياب، اليوم، زوجَه. فتبكي.

فهي تبعد عنها المكواة الساخنة.

وتكتفي بالبكاء.

ألا ما أبعد فلسطين، هذا الصباح!

كم تبعد شطآنها. وتخرس ريحها!

ثم تزوجت جميلة ... وحضرت النساء حفل زفافها. ولقد خلا البيت من جميع الرجال، فما عاد فيه شاوي، ولا محمود، ولا أبو حسين.

إحدى النساء تطبخ. وأخرى تغسل. وثالثة ترتب الأغراض. ورابعة تتحدث. وخامسة تكنس.

وكانت في البيت زوجة شقيق جميلة، والجيران، وبنات الخال ... فهن ينظمن الفضاء، ويتحكمن في الوقت.

الوابور الذي يعمل بالبنزين يحدِث ضجيجاً مصماً. وقد اختلط في ناره البياض والزرقة ...

وأتذكر: «حفيظة اعطي الأجنبية ماء!».

وكنت أنا «الأجنبية».

وفريدة تعدو، في أزقة الرشيدية، حاملة بنيّتها بين ذراعيها.

ولدي بين ذراعي، فماذا أصنع؟

فلأعْدُ! كي لا يصاب بأذى.

النساء هنا.

إنهن يتحدثن.

إنهن يردن تزويج محمود، الآن، بعد أن خلا البيت من أية امرأة.

وهن يخمنّ أن ينجب محمود أطفالاً كثراً، ويكون بيته طافحاً بالرزق.

وتراني أنظر إلى أقدام النساء.

آه! كم يطول الطريق إلى فلسطين؟

سيري! سيري! أيتها المرأة. فوق رأسك قنينة غاز. وأطفالك بين ذراعيك ...

سيري وحيدة — لقد اغتالوا زوجك — سيري وحيدة!

أنظر إلى أقدام النساء. فأرى جسأة غليظة في الجانب الأيمن من أرجلهن اليمنى. وقد جلسن لإعداد الخبز. فثنين الساق اليمنى. ومددن الرجل اليسرى ...

كم أعددن من الخبز؟

كم من صباحات في الحياة يكرسنها لإعداد الخبز؟

تقصف الطائرات الصباحَ المتعب. وتقصف الأطفال الضاحكين. وتقصف النساء والفتيات.

ومنى في السادسة عشرة. يجذب تسعة أطفال تنورتها.

أم منى مفلوجة. ومنى تقوم بأعمال البيت.

وقد خرجتْ في السادسة من صباح اليوم من المخبإ لإعداد طعام الفطور.

تخرج! تضحك للصباح!

الضياء أخيراً!

وتسرع منى دون أن يفارقها هدوؤها. فتهيء زيتوناً، وشاياً، ولبنياً بزيت الزيتون.

وعندما أفلح الأصدقاء في اقتحام البيت، وجدوا منى مجتثة الرأس.

«يا جميلة اعطني الغرافة!».

قطيعة لا سبيل إلى رأبها. أنت على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من هنا. ونظرتك كأنها موجة آوي إليها، في الرشيدية المقفرة تحت وابل القنابل.

شمس مغبرة وأزقة شاحبة. وفي العمق البحر ...

كيف أحيا، أحياناً، بدون ضحكتك؟

«تعال لتستقر هنا مع ابنك، تعال لتعيش معنا».

«حفيظة، اعطي الأجنبية ماء!»

وكنت أنا «الأجنبية».

فوق التل. في الرشيدية. تحت وابل القنابل. ظهيرة نيرة وهاجة، من شهر يوليوز. ونواح النساء.

من مات؟

«عندما تسيرين معي في شوارع الرشيدية أنسى أنني قد صرت بلا ساقين».

وأنت تخفق في ذاتي، على إيقاع دقات الدربكة. فلسطين، أنت في ذاتي تضحكين في حمى الرقص، عندما تتعالى الزغردات.

كان الوقت مساء. والجميع يرقصون احتفالاً بالزيجات.

وكنت أظن أن العيد لن ينتهي.

كان ذلك قبيل مذابح يوليوز.

ولا يزال الناس يرقصون الآن.

تزوج محمود منذ ثلاثة أيام.

وتزوجت جميلة منذ شهر.

وبرغم وقف إطلاق النار، لا تزال الطائرات تحلق في سماء جيل البحَر، فيبكي الأطفال لسماعها.

وقد أقيم حفل الزفاف في اليوم الموالي للعيد. فكان حفل زفاف غريباً. لم يحضره أي من إخوة جميلة.

وظلت جميلة تترقب قدوم السيارات دون جدوى.

ورقص أطفال مريم.

لماذا يحركون أذرعهم؟

يداي فارغتان هذا الصباح.

ولم يعد في قلبي سوى أسى ممض.

أين أستطيع النوم؟

أين أنت؟ أتمنى أن أراك.

«إذا تزوجتني، فلن أدعك تخرجين إلى الشارع. كما تفعلين الآن، برفقة الرجال. ولا تستطيعين، بعدئذ، السباحة بدوني. وإذا كنت لا أحب شخصاً منعتك من الحديث إليه».

إنني جائعة ...

يلتقط أبو حسين فتات الخبز الصغير من على الأرض. ويضعه في ثقب في الحائط. وهو يقول :

«حرام! لا يجوز رمي الخبز».

ويلتقط شاوي قطعة خبز من على الأرض، فيجعلها فوق جبينه، ثم يقبلها ويضعها على أحد الرفوف.

ويقول لي محمود : «لقد أكلتُ خبزتيْن». يعني أنه أفرط في الأكل.

وأرى الآكلين يقطعون من الخبز على هيأة قُرين، يغمسونه من الصحن، ملتقطين مما فيه من طعام.

فإذا جلس أفراد أسرة محمود للأكل لم ينبسوا ببنت شفة.

إلا ليدعوا ضيفهم إلى الأكل : «كل! كُل!».

«هل تهيء لي طعاماً إذا جعت في الثانية صباحاً».

لقد طهيت الكوسة بالأرز منذ ساعتين لتُأكل في الغذاء. لكن الأطفال يظلون يغترفون من القِدر الذي جعلت فيه. فإذا حان وقت الغذاء لم يبق في القدر ما يكفي لملء صحن واحد.

لكن إذا كان البلوغ إلى الطعام في مستطاع الأطفال، فليس كذلك بلوغهم إلى الأكل.

فإذا كان الآكلون كثراً أرجئ إطعام الأطفال إلى أن يفرغ الكبار.

وقد ترى الآكلين إذا فرغ أحدهم من الأكل ترك مكانه للكبير من الأطفال وهلمجرا. لكن الأطفال يظلون متحلقين حول الآكلين ما قعد هؤلاء إلى المائدة. فيحسن إطعامهم مع الكبار.

وأبو حسين جائع. والساعة الثالثة زوالاً. فتحمل إليه حفيظة صحنه الذي طلبه. ثم تدعوه إلى الأكل.

ومحمود جائع. والساعة الخامسة مساء. فتأتيه حفيظة بما طلب من الباذنجان. وتدعوه إلى الأكل. ثم تدعو أصدقاءه إلى مشاطرته الأكل.

ولقد اشترى محمود، هذا الصباح، كيلوغرامين أو ثلاثة سمكاً طرياً لا زال بعد لم يُطه.

الساعة الثانية.

وأبو حسين مستاء. إنه يريد أن يأكل اللحم.

فأسمعه وأحمد يتشاتمان.

ثم يحمَل إليه اللحم، الذي جيء به من صور. فيعطي منه لحفيظة وأحمد، الذي كان يرفض الأكل، قبلئذ، مغتاظاً من حنق أبيه.

فيثير ذلك ضحك الجميع.

لقد فقد محمود ساقيه. وصار أبو حسين عجوزاً. وقد أطار كمين بنصف رجليه، في فصل الربيع. ولا يزال يعاني من ذلك.

وكيف لمحمود وأبيه أن يقوما بقضاء حاجياتهما، ويعتنيا بشاوي؟

أنظر إلى أقدام النساء، فأرى جسأة غليظة قد ارتسمت على الجانب الأيمن من أرجلهن اليمنى ...

ويتوقف العالم عند الباب الموصود الذي يفضي إلى نظرتك الغائبة.

امرأة في العالم. امرأة حرة.

متى ألتقيك؟ الآن؟

وكنت في المستشفى صباحاً.

والآن، يلعب محمود وأحمد الورق. وأبوهما يتفرج عليهما.

يسخن الغسيل فوق الوابور.

وجلست لأكتب. كنبة، وطاولة صغيرة ... وسجائر.

لقد بدأت أتعلم العربية شيئاً فشيئاً.

كتكوت رمادي اللون صغير يدنو مني، إلى أن يلامس الطاولة. فإذا مددت إليه يدي ابتعد. ويحب الرجال والنساء أن يحافظ من في البيت على نظافته.

كذلك تفعل حفيظة، في معظم الأحيان. وقد جئت إليها هذا الزوال لأساعدها في تنظيف البيت.

فعلقنا الملاءات على الحبال.

وكان البيت تعمه فوضى كبيرة.

من كثرة ما فيه من دجاج، وديكة، وكتاكيت!...

لكن البيت الآن يعمه النظام!...

وتوقفت عن الكتابة من أجل أن أقوم بتنظيف الغسيل.

صعبٌ أن تكون المرأة فلسطينية. فقد أفرغت طنجرة الغسيل ثلاث مرات. ولا يزال ركام منه مكوماً على الأرض. ولا يزال الوابور متقداً. والماء الساخن في كل الأنحاء... فأنا أستعمله في تنظيف الساحة.

ويسخر مني أحمد ومحمود لما يريان من عملي.

والآن سأهيء الأكل.

إن عمل البيت يستغرق وقتاً طائلاً.

وينبغي أن لا يفوت القائمَ بأشغال البيت شيء. وربما ذهبت حفيظة للبحث عن الحطب لإعداد الخبز.

المساء هادئ.

وسرعان ما نعتاد المكان والزمان خاليين من القصف!

ينام أبو حسين.

وتمضي نهاراته فارغة ومتشابهة.

لقد ضعف نظره. وصار لا يطيق الليل، بعد أن كان يترقبه لينخرط في الأحلام.

وحفيظة مريضة.

فقد حملت أكياساً ثقيلة من الطحين. فأصيبت بنزيف بالغ، أودى بالجنين الذي كان في بطنها.

أبو حسين

إنه يجلس، وقد غطى ما تبقى من ساقه بضمادة نظيفة، مقتعداً ملاءة قد مدَّت فوق أرضية ساحة بيته الإسمنتية.

ونادراً ما يتكلم. وإذا فعل جاء كلامه غامضاً كئيباً. أو جاء عظات في الحياة، معلقة فوق اليوْمي، مثل حبات ثوم مفرغة من فصوصها، قد علّقت على حائط.

شعره أبيض حليق. وشارباه قصيران.

وهو يرتدي بيجامة دائماً. لأن الوقت صيف، ولأن البيجامة أسهل في اللبس والخلع، ولأنه لا يبرح بيته أبداً.

أبو حسين قليل التنقل. فهو يظل جالساً، مقطباً وحزيناً. الضحك عنده استثناء.

فإذا ابتسم أدخل السرور في نفوس من حوله.

لكن من وراء عينيه الكامدتين، اللتين نادراً ما تشرقان لشيء، وخلف قسوته الفطرية يلمع نهار، وأحياناً تشي جميعها بحساسية حادة، ويأس عميق لا يزال يعتمل في دواخله.

وكان قد أفضى إليّ ببعض من ذلك اليأس، أنا الأجنبية، ذات يوم. فعلمت أنه يمضي وقته متلفعاً تعاسته وشقاءه، منكفئاً على نفسه، ضائعاً في ذاته.

«إنك لا تخبرين معاناتنا. ولا تعلمين ...فمحمود قطع مئات الكيلومترات على متن سيارته الصغيرة. مما أكسب ذراعيه قوه فائقة. وجميلة تعمل من أجلنا. وهي رؤوفة بنا كلَّ الرأفة. وإنها لتلاقي في ذلك عناء وأي عناء. ويكون عليها، كذلك، أن تعتني بشاوي. وهي تشتغل على آلة الخياطة — وأنت ترين الجيران يأتونها بالمصاريع فتخيطها لهم — لتعيننا على معيشتنا بما تكسب من الخياطة. وهي راضية بذلك.

لكنها على وشك أن تتزوج. وسوف نفتقدها كثيراً.

وانظري إليها. إن البسمة لا تفارق شفتيها. لكن الرجال سيئون. إنها ستتزوج.

وربما اعتمدنا، بعدها، على حفيظة. فهي تهيء الخبز لتطعم نفسها وتطعمنا كذلك. وسوف تساعدنا بعد أن تغادرنا جميلة. لقد طلب منها محمود ذلك. ولسوف تقوم به. لكنها تتمنى أن يتزوج محمود، فذلك مما يخفف عنها أعباء البيت ...

أنت تريدين أن يقوم محمود على حاجياته بنفسه. وأنت ترين أنه قد غسل الأواني وكنس البيت ... لكنه رجل! لقد فعل ما فعل لأجلك لا لأجل نفسه. لقد قطع مئات الكيلومترات مقتعداً كرسي سيارته. وهو يخبر المخيم أكثر من أي شخص آخر. وقبلئذ عندما كان لا يزال بساقيه، لم يكن يُرى في البيت. فقد كان يترك مسكنه طيلة أسابيع ...

وأنت ترين أنني مقعد لا أستطيع حراكاً. فساقي لا زالت تؤلمني. أعيدي شد ضمادتي.

إنك تمضين وتجيئين، وتضحكين، وتكلمين الجميع، وتعرفين جميع الفدائيين من قاطني المخيم، وتشوين اللحم في السمن! ... لكني لا أستطيع أن آكل مما تطبخين. فأنا لا أحبه. ثم إنني مريض. وأنت لا تعرفين ما يصلح أن آكل. فأنت لا تتورعين عن شرب الحليب أو اللبن مع السمك! ... ولا تجيدين إعداد اللبنية. وأنا مريض. فلا أريد شرب لبن الماعز بارداً. فلا تعلمين ما يسبب لي من مضاعفات. وكذلك القهوة! ...

كانت القهوة جيدة في الماضي. فقد كان الناس يحمصون البن، ويدقونه، ثم يصنعون منه القهوة!... على عادة البدو. وأما الآن، فقد ساءت القهوة، إذ صار الناس يشترون البن مطحوناً...

وكذلك ساءت أحوال أبنائي. فإذا كلمتهم لم يستمعوا إلي. لقد أصبح الأبناء، على أيامنا، لا ينصتون إلى آبائهم ولا يطيعون الله. فحسين يمضي إلى المسجد للصلاة، لكنه سيء، ولولا سوؤه لكان الله رزقه بابن. إن الله يحرمه الأبناء. ومريم لا تفكر فيَّ أبداً. أما حفيظة فأفضلهم جميعاً.

إن هذه الثورة سيئة كلها ... قبلئذ، كان الأبناء ينصتون إلى ما يقول آباؤهم. وانظري، الآن!... وأنت! تريدين أن تخرجي. وأنا أطلب اللبنية، منذ الصباح!..اذهبي للمناداة على حفيظة، لتأتي وتهيء لي الأكل. فهي لم تطرق بيتنا هذا اليوم بعد. لأنك هنا. فهي تظن أنني سآكل مما تصنعين لي من طعام. لكنك لا تجيدين إعداد شيء منه.

اذهبي في طلب حفيظة.

انتظري! اقطفي لي بعض التين من الشجرة.

لماذا ذهبت جميلة، اليوم، إلى بيت أخيها؟

أنت لا تعرفين، أن الحياة في فلسطين مختلفة عن الحياة في المخيم. حتى الخبز سيء هنا. أما في فلسطين فقد كانت عادة النساء أن يلزمن بيوتهن. لا يقضين يومهن في التسكع كما تفعلين أنت. فإلى أين تمضين؟

فأنت تأتين البيت، وبعد خمس دقائق لا نجد لك فيه أثراً. وليس هذا حسناً. وعندما تفرغين من عملك في المستشفى تمضين لرؤية الرجال. لكن الرجال ليسوا طيبين. وأنت تكلمين جميع من تلاقين منهم. ولقد بلغ ذلك منهم أن أصبحوا يقصدونك في بيتنا ولسان حالهم : «أين هي الفرنسية؟». أما أنا فلست أرغب في رؤيتهم. أريد أن يتركوني في سلام. وإلى أين تمضين الآن؟ ...».

كان أبو حسين يحادثني، وطيف ابتسامة يلوح على فمه. وقد مال بعنقه، إلى أن تقوس ظهره. وضم إليه رجليه. وعقد يديه حول ركبتيه. يفرد أصابع يديه بين الفينة والأخرى. ويلوح في عينيه بريق غامض.

ثم تركت أبا حسين ليغوص، من جديد، في عزلته الكئيبة، وفي حواره الداخلي الذي لا تنبهه منه غير زيارة أبي يونس ... فإذا جاءه خاض الاثنان في حوار ساخن، ينبشان فيه

ذكرياتهما عن فلسطين، ويقلّبان في حياة سكان المخيم. فيُجمعان على سوئها. ثم يبوحان بما يحملان من حقد للجميع. حكيمان منزويان متواطآن.

جَنْيُ التبغ

حكى أحمد فقال : «عندما نكون شباباً بين السادسة عشرة والعشرين ترانا نثور على آبائنا، غير راضين بمشيئتهم. فنحن نعتقد أننا على صواب. وترانا نبحث عن نظرات الفتيات إلينا، فهي قصارى ما يهمنا.

ومما أذكر من سني شبابي، أنه قد لزمنا جمع محصول التبغ ذات صيف. فعندما تنضج أوراق التبغ ينبغي الإسراع بقطفها. وإن ذلك ليُحتاج فيه إلى الكثير من العمال. ولذلك خرجت وأسرتي مجتمعة، لم يتخلف منها حتى الصغار، إلى منطقة بعلبك.

وما أن بلغناها حتى شرعنا في العمل في فرق. فالنساء والأطفال يعملن صباحاً والرجال يعملون ليلاً.

فكنت أعمل في الليل.

وكنا ننام جميعاً في عنابر كبيرة.

وذات يوم تنبهت إلى فتاة كانت تعمل نفس عملنا. وكانت على حظ كبير من الجمال. ولقد ابتسمت لها، فكانت، في البداية، تخفض عينيها، أو تدير عني رأسها. لكن بعدئذ، أخذت تبادلني ابتساماً بابتسام.

ولم أكن، في العادة، أعمل بحمية، لكن عندما يخيل إليَّ أن الفتيات ينظرن إليَّ تزداد حميتي في العمل عشرة أضعاف. وذات يوم قال لي والدي : «لست أدري ما الذي يجعلك كسولاً في عملك، حتى إذا مرت بقربك تلك الفتاة صرت تعمل عمل حصانين!».

وذات يوم أفلحت في التكلم إليها. ثم بدأنا نلتقي. وكثرت لقاءاتنا. وقد كانت لي صديقة أخرى، من قبلها، في الرشيدية، فتركتها لأنها كانت تنقل للناس جميع ما تسمع مني. فكنت إذا ضربت لها موعداً علم به الجميع. فقلت لها، ذات مرة :

«لا أريد أن يعلم جميع الناس بما نقول أو نفعل. أَإذا تزوجنا كان الجميع يعلم بما يدور داخل بيتنا؟».

لكن لم يغير كلامي شيئاً من سلوكها. فكان ذلك دافعي إلى تركها.

وأما الفتاة الأخرى، فكنا نتحادث دون أن يعلم بحديثنا أحد. وكنت أُقبلها في سرية من الجميع كذلك.

وذات يوم انتهى عملنا في جني التبغ. وعندما كنت أهم بمغادرة مكان العمل، إذْ رأتني فأخذت تجري خلفي، وهي تنادي عليَّ : «أحمد! ...». وظلت تجري إلى أن سقطت أرضاً ...».

وكنت وأحمد نقتعد الدرابزين في باحة البيت.

ومن حولنا تطوف الدجاجات، متبرزة في كل الأنحاء.

وسوف تأتي جميلة لزيارة أبيها.

فقد انقضى أسبوع على زواجها.

وهذه أول زيارة ستكون لها إلى أسرتها.

وسوف تحتفي أسرتها بمقدمها. فتذبح لأجلها خمسة ديكة.

ونعماً يحدث!

الرشيدية 10 غشت 1981

مات علي، هذا الصباح.

وصهره سعيد.

ماتا على الطريق، قرب صيدا.

محترقيْن جوف سيارتهما.

يا أبا حسين، أنا تعبانة.

فما أكثر من رأت عيني من أموات.

ولَمَّا يمض عليٌّ، بينكم، وقت طويل.

يا أبا حسين، أنا تعبانة.

يا ذا العينين المشرقتين.

الحزينتين الطيبتين.

مات سعيد.

وزوجته تلطم جبينها.

لقد كان رجلاً صالحاً.

فلماذا؟ لقد اجتاز قصفا كثيراً !

لقد صنعت الحرب طرقاً من الجثث!

مات سعيد داخل سيارته.

وكان مسؤولاً عن منظمة العمال في الرشيدية.

وخلف خمسة أطفال.

وأرى زوجته مجهدة من البكاء.

أعداد كبيرة من الأموات في كل يوم.

أعداد كبيرة.

مات سعيد محترقاً.

ولقد عثِر عليه وهو في نزعه الأخير، وحمِل إلى المستشفى.

حيث فارق الحياة.

وجاءت سيارة تقل جثته، هذا المساء.

فسلاماً على روحه.

وكانت جثة علي قد وصلت قبلئذ.

وفي الخامسة من صباح اليوم نقلت الجثتان إلى مثواهما الأخير.

ولا أزال أسمع صوت منبه السيارة التي حملتهما.

جبيل البحر؛ حيث تعيش جميلة

البحر. كثيف ورقيق. وأزرق.

والطريق رملية رمادية.

جبيل البحر بقرب صور. مخيم يأوي البدو.

وتقوم البيوت على جانبي الطريق الرملية الرمادية. بيوت شُيِّدَ معظمها من خشب وزنك.

وشمس بيضاء.

توازي الطريق المستقيمة، التي يحميها سياج عال. لسكة حديدية.

لأي قطار مُدت هذه السكة؟

كانت تعبر لبنان قطارات. وكان يعمر القطاراتِ مسافرون.

وكان البدو في الجليل.

جيل البحر ...

هنا تقطن جميلة الآن.

جميلة متزوجة.

ويشارك جميلةَ نفسَ البيت ثلاث فتيات؛ هن أخوات زوجها. تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة.

وزوج جميلة، زياد، خجول وحيي.

وأبوه، مسن، ذو شارب غليظ. يغطي رأسه بكوفية.

وزياد فدائي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وهو في العشرين. نظرته إلى زوجته نظرة ولهان. وجميلة صارت زوجة، أكثر وقاراً وتسامحاً. ولقد ازدادت جمالاً على جمال. وتبدو في زينتها مختلفة عن عهدي بها. فقد جرت العادة في الرشيدية على أن يحرم الفتيات اللائي لا عمل لهن أنفسهن من الزينة، وعلى عدم الاعتناء بلباسهن. لكن عندما تتم خطوبتهن أو يتزوجن يعوضهن الخطيب أو الزوج عن ثيابهن القديمة ثياباً أو جَهازاً جديداً. وسرعان ما يأخذن في الاعتناء بهندامهن وجمالهن في حرص بالغ.

ولقد كان والد جميلة أبو حسين وأخوها محمود يمنعانها من ارتداء التنورة بدون سروال خارج البيت. كما كانا يمنعانها من الخروج بسروال الجينز (ففي رأي أبي حسين أن على البنت أن تتحاشى في لباسها ما يثير العيون، وإلا جرَّت وراءها الشبان، وكثر حولها القيل والقال). وأما الآن، فقد اختلفت حياة جميلة. فزوجها لا يرى بأساً في أن تكون

زوجته مثار إعجاب الجميع بما ترتدي من لباس أو تضع على وجهها من مساحيق. فصرنا نرى جميلة تَصرف وقتاً طويلاً أمام المرآة. مزهوة بنفسها.

وعندما نسير في الطريق، قادمين من البصرة، نثير بخطانا حفينات الرمل الدقيق الساخن. ذلك إحساس بالدفء يشد الخطى إلى الأرض، فيثقل مشينا. ونمر ببعض البيوت قد حفت بها حفر معشوشبة، في طريقنا إلى بيت جميلة، الذي يقوم في أرض مسورة، قد نبت من حوله نعناع وورد. ومُد أمامه حبل غسيل. وإنني لأهتدي إلى بيت جميلة من ثيابها التي تعلقها في الحبل المشدود في الفناء لتجف؛ لتشابه تلك الثياب. الطريق متسقيمة مستوية، كما هي عناصر المجال قد استوت تحت سياط الشمس اللاهبة.

ولقد بنى زياد غرفة أخرى منعزلة عن بقية بيته، ليسكنها هو وزوجته. وجعل سقفها من الفيبروسيمان والقصدير. فكنت ترى ذلك السقف يلتمع تحت الشمس.

ويقوم إزاء الغرفة الجديدة البيت الذي يسكنه أب زياد وإخوته. وهو مكون من غرفتين. في إحداهما تهيء الفتيات الخبز في مرح، هادئات، يخجلن من فضولي مستغربات من شدة اهتمامي بما يفعلن.

وتنتظر جملية زياداً. إنهما يتأهبان للذهاب برفقة البنات للسباحة.

وتضحك جميلة. وتحكي لي، مشيرة بكلتا يديها، كيف يعلمها زياد العوم. وإنها لموهوبة في السباحة. وإن زياداً ليحبها كذلك.

وتدعوني قائلة : «إبقي معنا. انتظري قليلاً، سوف يأتي زياد. وانظري، لقد أعددت الملوخية ... إبقيْ!».

وأسألها :

— هل أنت سعيدة؟

— نعم. لكن بي شوقاً إلى الرشيدية، وناسها والأصدقاء. كيف هو شاوي؟ قبليه عنيٌ مائة ألف قبلة. وقبلي رانية. هل أنت التي تهيئين الأكل؟ حبيبتْي إنتِ! بلغي سلامي لأبي».

إن قرية جيل البحر؛ حيث تعيش جميلة، قريبة من البحر.

وبمحاذاة بيتها طريق رملية رمادية.

جيل البحر؛ حيث كلما مرت الطائرات جن جنون الصبية وأغرقوا في البكاء.

جيل البحر مخيم يسكنه البدو، على مقربة من السكة الحديدية.

كانت تجوب أرضَ لبنان قطارات ممتلئة ركاباً.

وكان البدو يقطنون الجليل.

....

وفي غشت 1981 لزم زياد أن يخرج من مخيم أنصار[13]، ويعود إلى البيت.

وربما لم يعد لبيته، الآن، وجود في جيل البحر. وأين تعيش جميلة الآن؟

لا شك أنها قد عرفت وليدها الذي لم تره أبداً، والذي هو الآن في شهره الرابع عشر.

وهل ما يزال لجيل البحر وجود؟

وهل عاد زياد؟

زيارات

نسير في طرقات محفرة، بين البيوت والأوراق، وفوق العشب، والرمل والصخور.

ونتوقف لقطف التين.

ولقد صارت أيدينا، من ذلك، دبقة لزجة. مما حتم علينا أن نبحث عن ماء لغسلها.

فوجدنا منبعاً يفيض ماؤه، قوياً، ابتللْنا به من رؤوسنا إلى أقدامنا.

ثم واصلنا طريقنا. ولو امتد بنا أكثر لأمكننا أن نقطف بعض الأزهار في سيرنا باتجاه الشاطئ.

وطالعَنا بيت حسن القديم. فدخلته. فإذا هو بلا سقف. وقد دمِّرت بعض حوائطه. وتخيلت حسن ولداً صغيراً.

ثم تراءى لي محدثاً شخصاً راكباً دراجة.

وتوجهنا إلى المقبرة.

لنحيِّي سعيداً، ونحكي له بعضاً مما يحدث : «السلام عليك يا سعيد، وأنت تنام هنا! السلام عليك! ألست ضجِراً. وأما نحن فلا جديد عندنا. توقف القصف منذ أيام. والحمص على وشك أن ينضج. وقد صار جميع من في الرشيدية محمريّ الأعين من شدة

البكاء. إنهم يعانون التهاباً في الأعين، يوشك أن يتحول عندهم إلى ترمد عام. بعضهم يقول إن ذلك بسبب التين. والبعض يقول إن مرده إلى السموم التي يصبها الصهاينة في المياه ...

والبحر رائع. وغداً صباحاً سنمضي إلى الصيد. فإلى الغد! ...».

ثم ذهبنا لنحيّي ميمونة. فوقفنا على قبرها صامتين. إنني لم أعرفها في حياتها. ولقد ماتت صغيرة منذ وقت طويل. ثم صلينا قليلاً على روحها. إنها أخية حسن.

ثم ألا نمضي لزيارة ستّي؟

هيا بنا، يا حسن، لزيارة ستي!

وتسلقنا الطريق الوعر. ثم مررنا أمام الكنيسة التي أقيمت فوق أطلال المخيم القديم، في مواجهة المقبرة التي قُصِفت قبورها.

الطريق طويل. وما أكثر ما نتوقف لنبادل من نلقى في طريقنا التحية.

وربما استغرق منا الطريق إلى قبر ستي ساعة كاملة. فنحن نتوقف في بيوت بعض الأصدقاء. ثم نتابع سيرنا.

وتراني لا أكف عن التساؤل هل في الحياة ما يفضل العيش هنا؟

ستي، يا ستي!

تغني لي جدة حسن أغنية. من تلك الأغاني التي كانت تنشدها عندما تنخل السميد. كم مضى على ذلك من الوقت؟ وتحكي لي قائلة :

«عندما تزوجت في ألما، دام حفل الزفاف ستة أيام ...».

وتنفجر العجوز ضاحكة. ثم تشرع في الغناء من جديد. وتصفق بيديها موقعة ما تنشد من أغانٍ. ويشرع حسن في الرقص : «يا الله! يا ستي!». وأسأل حسناً :

— كم يبلغ سن جدتك؟

ويسألها :

— كم سنك يا جدتي؟ مائة عام؟

فترد جدته على سؤاله :

— عندما غادرنا ألما في عام 1948، كنت في الرابعة والخمسين.

فيستنتج، من كلامها، قائلاً :

— إذن فأنت، الآن، في الثامنة والسبعين.

— ثمانية وسبعون عاماً! ... يا ستي! ثمانية وسبعون! انظر ياحسن، فالفدائيون أصلحوا كهرباء البيت، اليوم. إنهم لطفاء حقاً. وانظر إن كان في البيت ماء.

— لا، سأذهب للسقي. هل تحتاجين شيئاً آخر؟

— لا، اذهب وعد مسرعاً. بارك الله في يديك!

فيخرج حسن. وألبث والجدة. ثم أراه ينزل التل. يحمل في يده جرة پلاستيكية. إلى أن يبلغ المنبع؛ حيث الماء يجري قوياً صافياً.

وأنظر إلى ستي. قد شدت رأسها بمنديل، تظهر منه على جبينها شُعيرات رمادية. وسروالها وردي قد خاطته بيديها. وكسوتها متنوعة ألوانها. وحول عنقها خيطٌ قد شدت إليه كيس نقود، يخفيه صدارها. ويداها موشومتان. وفي بنصر إحدى يديها خاتم حديدي ...

لقد توفي زوجها منذ خمس سنوات. وقد رأيت صورته في بيت والد حسن أبي غازي. ويبدو فيها رجلاً عجوزاً، بشاربين كبيرين طويلين، وعلى رأسه كوفية بيضاء.

أما ستي فضئيلة. تمشي مقوسة.

— إنني أريد، إن شاء الله، أن يكون موتي في ألما، يا ستي!

ثم ها هي تصنع مكنسة من بعض الأعشاب، فتستعملها في كنس الفناء. وكنا نجلس لصق بعضنا في غرفة من ثلاثة أمتار طولاً ومترين عرضاً.

إلى اليسار غرفة قد دمرتها الطائرات الإسرائيلية عن آخرها في عام 1978.

الدالية المريضة لا تزال تستند إلى الحائط.

وإلى اليمين، غرفة أخرى؛ حيث تنام ستي. ربما لا تزيد عن مترين طولاً ومثلهما عرضاً. وضعتْ على أرضها كنبتان أو ثلاث. وكوخ صغير، بعيد عن الغرفة، يسمونه «حمّاماً»؛ لأن فيه ثقباً للبول. وفي الفناء علب قصدير يُجعل فيها الماء.

وتقول لي الجدة :

— تعالي لتغتسلي في بيتي، وتنامي عندي! ابقي معنا، يا فرنسية! ألف مرحباً!

فأجيبها :

— شكراً، يا ستي، سأبيت عند حسن، إن شاء الله.

وها هو حسن يعود بالجرة ممتلئة، يقهقه ضاحكاً. ثم يغادرنا لدقيقتين، ويعود ببطيخة حمراء.

ويسأل جدته :

— أين وضعتِ السكين؟

ثم يأخذ أحد طبقين بلاستيكيين من على الرف الإسمنتي، ويمد إلي به.

وتجلس ستي، التي ضعف بصرها كثيراً، تتلمس ما حولها.

ويأخذ حسن في توزيع قطع البطيخ. فتقول ستي :

— بارك الله في يديك، يا حسن ...

— بارك الله في يديك أنت، يا ستي. كلي! أما زلت، يا ستي، تذكرين أختي الصغيرة ميمونة؟

— يا حرام! ما كان أجملها! هل أذكرها! ما هذا الكلام!

— إننا، ياستي، لا نملك صورة واحدة لها.

— يا حرام! الصهاينة الكلاب!

ثم خرجت وحسناً إلى الفناء. فاستندنا إلى حائطها الواطئ. فكنا، من موقعنا، نرى البيوت كأنما هي معلقة في أطراف الجبل، حتى البحر.

والمقبرة، وقبورها البيض، وقبورها الزرق ... وأعشاب الجهنميات، وأشجار التين والحمص.

والشاطئ خال الذي كان يسكنه في الماضي يلوح عليه سوى بقايا بيت قد دمِّر تدميراً. ذلك هو بيت حسن الذي كان يسكنه في الماضي.

ففي عام 1975، كان يُقام حفل زفاف غير بعيد من بيت حسن.

وكانت تتعالى في الليل دقات الدربكة.

ويرقص الراقصون من الشباب. ويُنفخ في المزامير!

وتصفق أيدي البدو. ذلك هو العرس الفلسطيني!

لقد كانت ليلة من ليالي صيف 1975. في الرشيدية.

وكانت دقات الدربكة تختلط بدقات القلب.

ثم تغدو إيقاعَ النبض. فهو يسري في أجساد الشباب مجرى الدم في العروق. فتراهم يهتزون من رؤوسهم إلى أخماصهم.

وكان البحر هادئاً، والليل يفوح بعبق الياسمين.

وكان حسن في الثالثة عشرة. وكان في بيته رفقة أخته الصغيرة وأمه. يتحدثون.

فكان حسن يقول لأمه وأخته : «لو تعلمين كم يتفنن غازي في الرقص، يا مّاً! يا الله ارقصي لنا قليلاً يا ميمونة!».

وفجأة سُمع طرق على الباب. وقامت أم غازي، مثقلة الجفون نعاساً، وفتحت الباب. وهي تقول : «تفضلوا!».

فاقتحم البيت ستة رجال.

ودفعوا أم غازي بشدة إلى أن ارتطمت بالجدار. ولسان حالهم : «أين الفدائيون؟».

فضم حسن أخته الصغيرة، التي لم تكن تتجاوز سنتها الثالثة، إلى صدره؛ يخفف عنها خوفها. ثم علا صوت الزوار :

— أين هم الفدائيون يا ابنة الكلب؟

فردت أم حسن :

— ليس في البيت فدائيون.

وأخفى حسن وجه أخته بذراعيه، وضمها إلى صدره بقوه. وعندئذ، أطلق الرجال خمس رصاصات على «الفدائية» ميمونة، اخترقت صدرها.

وزاد حسن من ضم أخته إلى صدره، فإذا هي قد فارقت الحياة.

ثم أطلقوا النار على حسن، فأصابوا ذراعه اليمنى بعشرين رصاصة، اخترقته من الكتف إلى الكوع. وقالوا له، متوعدين :

— الآن لن تستطيع استعمال السلاح أبداً، أيها الفلسطيني القذر!

فسقط حسن، وأخذ يبحث عما يعينه على معاودة النهوض. وعندئذ أطلقوا عليه النار، فأصابوا ظهره بأربع رصاصات.

ولقد أفلح حسن في الخروج من البيت ليخبر الفدائيين. فأطلق عليه الصهاينة النار وأصابوا ساقيه برصاصتين. فسقط أرضاً، متماوتاً.

وبعدئذ، فجّر الصهاينة الستة البيت بالديناميت.

ثم انصرفوا.

وعندما وصل الفدائيون جرياً إلى الشاطئ، بعد أن أخبرهم والد حسن، الذي كان قد بقي فوق سطح البيت، وسماعهم الانفجارات، رأوا القارب الإسرائيلي مبتعداً يشق المياه الهادئة. ونظر حسن إلى بيته القديم، ووضع على كتفي ذراعه الوحيدة، قائلاً :

— كنا نعيش سعداء في ذلك البيت. وكنت أخرج، في كل صباح، راكضاً إلى البحر! ألست أسبح جيداً؟ إنني أقطع أربعين متراً تحت الماء!

— إنك تسبح أفضل من أي شخص آخر، حتى وأنت بذراع واحدة. وجميع البنات يحببنك لأنك فائق الجمال، يا أخي الصغير.

هل كنت تعرفين مني؟ لقد كنا نلتقي على الشاطئ، حوالي الخامسة مساء. إنها فتاة جميلة.

ثم أتذكر سؤاله :

— «هل تعرفين منى»؟

منى! أتذكرها :

تصعد الطريق الوعر، نحو بيتها في المخيم القديم. تبرز إحدى ركبتيْها من ثقب سروالها الجينز. وهي ترتدي قميصاً مهلهلاً. وتغطي رأسها بكوفية من لونين أبيض وأسود. وتسير متئدة، تجر بحبل حماراً قد تعفر من الدقيق الذي تحمله عليه في كيس كبير. ويسير

إلى جوارها أخوها الصغير، متشقلباً أمام الحمار، أو راكضاً خلفه ... إنها عائدة من مكتب توزيع المؤونة الشهري، تحمل ثلاثين كيلوغراماً دقيقاً؛ لا تكفي الأسرة في إعداد ما تحتاج من خبز. فهي تُطعَمه أياماً ويعوزها أياماً أخرى. وأسرة منى تتألف من أبيها وأمها وستة إخوة.

— «هل تعرفين منى؟»

منى! أتذكر :

ذات صباح من صباحات فصل الربيع. والجو صحو كعادته في شهر أبريل، وأنا أصعد الطريق الحجرية المؤدية إلى بيت أم مروية. كعادتي كلّ صباح، لأدلك ذراع أم مروية المفلوجة، وساقها المشلولة. فقد أُصيبت أم مروية بالفالج بعد وضعها الأخير. ولا نعلم سبب ذلك. ومنذئذ، صارت منى، ذات الستة عشر ربيعاً، تعتني بالبيت الصغير، وتقوم على شؤون الأسرة. ولقد قُصِف البيْت، مؤخراً، فاضطُرت الأسرة إلى الارتحال إلى المخيم القديم، في الجبل.

وعندما أقرع الباب، تستقبلني منى، باشة، تحمل الرضيع على عجزِها، وفي يدها قارورة الرضاع.

أو تصيح بي : «تفضلي!» من الفناء؛ حيث تكب على الدسوت، دائبة على غسل ثياب الأسرة المتسخة. خداها سمراوان، قد طبعهما الوضح ببقع بيضاء. وعيناها سمراوان ساخنتان. وشعرها أشقر. وبسمتها عريضة.

ثم نشرع في الحديث، فتأتي بالقهوة والسجائر.

«هل تعرفين منى؟».

في فجر 20 يوليوز — كم سال من دم، ذلك الصيف؟! — عندما برزت منى من المخبإ، شجاعة، وصغيرة ورقيقة!، لتهيء طعام الإفطار للأطفال — وكانت الساعة السادسة — حصدت رأسها الطائرات الإسرائيلية.

وأطارت قنبلة، في ذات القصف، بساق أم مروية.

ولقد نقل الأطفال، الآن، إلى مدرسة من مدارس منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، شيدتها المنظمة ليدخلها أبناء الشهداء الفلسطينيين.

وترقد أم مروية في أحد مستشفيات برج البراجنة التي وضعتها منظمة الهلال الأحمر لاستقبال العجزة والمعاقين.

وأما أبو مروية، فيواصل عمله في حراسة المخيم. يحمل كلاشنيكوف على كتفه.

وكلما تحدث عن منى، نشج في كلامه.

— هل تعرفين منى حقاً؟

— نعم، ياحسن، أعرفها حقاً.

ويضفي المساء غلالة صفراء مذهبة على البحر وعلى بيت ستي. وتخف ألوان النهار وترق.

وتجلس ستي أرضاً، تتكئ إلى الجدار، في الفناء، وقد كشفت عن ركبتيها، وحضنت ذقنها بين يديها. وأطرقت متفكرة. ثم تنتبه من أفكارها، فتقول لي : «إلى أين تمضين؟ لايزال الوقت مبكراً. ابقيْ، سوف يأتيني الفدائيون بالشاي».

أشجار البرتقال

يجري الماء. السادسة صباحاً. والجو بارد.

وقد شرعت أم غازي تنشر الغسيل. ويُسمَع بكاء ميادة.

لقد توقف قصف الطائرات، وصارت الحرب، الآن، حرب سيارات ومتفجرات.

...أغان بدوية. ابتهالات طويلة. تشرد فيها بفكرك، وتضيع فيها عن نفسك. وقد تعود إلى رشدك بمؤثر من المؤثرات، دون أن تخف وثيرتها فيك، أو ينقطع مجراها عنك. فإذا هي تتفتق لك عن أعداد هائلة من الموتى.

حرب السيارات المفخخة.

سيارات قاتلة.

بدو في شارع أبي الأسود. في الحادية عشرة صباحاً. أمام واجهات الدكاكين. في هذه الساعة تخرج النساء للتبضع.

في شارع الفاكهاني، في بيروت : 83 قتيلاً، و255 جريحاً. وتلك أرقام مؤقتة ...

إنه «الحل النهائي» الذي جاء به بيگين. حل «المشكلة الفلسطينية».

وجميعنا يعلم أن هذه ليست سوى بداية المذبحة.

قال أبو غازي : «نحن الآن نراقب السيارات ونفتشها. لكن انظري، يكفي قطيع عنزات، وحمار أو اثنان». ...

أغان بدوية. ابتهالات طويلة تضيع فيها عن نفسك ...

ما أكثر الموتى ...

سألتني عالية، هذه الظهيرة : «سنذهب إلى المقبرة، إنه اليوم الأربعون لوفاة سعيد وعلي. هل ترافقيننا؟ أبو معين ينتظرك للذهاب إلى حقول البرتقال».

فذهبت إلى حقول البرتقال.

ـــ نمر كل صباح، أنا وحسن لنحيي سعيداً وأصدقاءنا الموتى.

تشد أم معين منديلها فوق رأسها. ويفحص أبو معين سيارته. وتتهيأ مني لمرافقتنا.

ثم نمضي إلى رأس العين.

نسلك إليها طرقاً وسط غابات البرتقال.

معظم الأشجار معفرة تراباً. ولقد أحال ذلك خضرة أشجار الموز رمادية ... وانحرفت الطرق، بعد أن حطِّمت القناطر ... فصرنا نسلك بين المستنقعات الموحلة.

لكن أحيانا تكون الطرق المتربة أفضل من الطرق المسفلتة. فهي تجتاز غابات البرتقال. ساكنة وهادئة.

ـــ بَدوُّ ميِّه!...

ـــ آه!... بدوُّ ميِّه!

ثم نصل إلى البيارة التي يقوم على خدمتها أبو معين.

فيلزمنا أن نريح الأغصان المثقلة بالثمار.

فنحن نسندها إلى عصي نغرزها في الأرض. وننحني لنفعل كل ذلك؛ حيث تلامس الأغصان الأرض.

وتنبعث من تحت الأشجار رائحة كرائحة السعادة.

فالأغصان والأعشاب الخضراء والثمار تؤلف من حولي ما يشبه خيمة.

وتفتر الثمار عن التراب الأحمر، وعن خيالات رفاقي الأثيرة وأصواتهم المنغومة.

ما أهنأها حياة!

وعلى التلعة، بمحاذاة الطريق، عرشت بقلات.

وفي بيروت يفتش المنقِذون تحت الأنقاض، ملثمين، لانتشال الموتى.

لقد بدأت، الآن، حرب السيارات المفخخة.

الشاي باللوتيا

الطريق واسع، تقوم على جانبيه البيوت، وبعض الحوانيت. بينها حانوت أبي علي الصغيرة جداً، والتي أشتري منها سجائر جيتان - أدين لأبي علي بليرة ونصف — وحانوت أبي صلاح، الذي يحفل بكل ما يحتاج المرء.

في البداية، تحسب كل تراه متشابهاً : الشوارع المستقيمة، والبحر في الأسفل ... وأنت لا تعرف أين تطأ بقدمك.

ثم لا تلبث أن تصبح عارفاً بكل شيء : الوجوه والأصوات والضجيج على اختلافه. فلا تعود تضلك مسالك الأطفال. وإذا أنت تخبر، شيئاً فشيئاً، ما يجري في الداخل.

وبعدئذ، يصير في مقدورك أن تسير حتى في الليل، فلا تتعثر بالأحجار أو بالجداول والمجاري، أو تخطئ طريقك...

فإذا سرت استوقفك المارة، فحادثتهم. ثم واصلت سيرك.

ولكَم أتجول رفقة محمود. فيؤنسنا ضجيج مقعده المتحرك حين يصطدم بأحجار الطريق، وأزيز العجلتين كلما أمسكهما بيديه ليديرهما دافعاً مقعده أماماً.

لقد أصبح كل ما حولنا، الآن، ساكناً بفعل وقف إطلاق النار. وعلى طريقنا توجد مكاتب الفدائيين. فإذا مررنا بأحدها حيينا من فيه. ثم نبلغ بيت سجاد ومحمد، فإذا هما مقتعدان عتبة البيت، غائِري الأعين، كامدَيْهما. كأنما عيونهما تغشاها سحابة ...

كنا نود الذهاب إلى الشاطئ، لولا ما بث الفدائيون في حوافه من مدافع مضادة للطائرات. فكانوا بها يقومون على مراقبة البحر. وليس في مقدور المرء أن يبلغ الشاطئ ليلاً. فالدوريات الإسرائيلية لا تني تجوب مياهه.

وفي زاوية بمحاذاة مكتب فاضل، جلس الفدائيون يشربون الشاي. وبينهم حسن. فجلست القرفصاء بينهم حول إبريق الشاي. وسألني أحدهم :

— هل تشربين الشاي؟

وسألني آخر :

— هل تعرفين اللوتيا؟ إنها أشبه بنبتة الغرنوق ذات أوراق رمادية فاقعة، ومسننة وأريجٍ طيب. ونحن نجعلها في الشاي. فإذا شربتِه كنت كأنك تشربين ماء الورد.

إن الفدائيين من يشرب هذا الشاي. وهم من حبَّب إلى نفسي أريجه. محمد وفتحي والآخرون...

وليس بين الناس من هو أكثر استغواراً من الفدائيين لمكامن الجمال ودقائقه. وإنني لأمتلئ بكل لحظة أُمضيها بينهم لشرب الشاي، أو لمجالستهم. فأنا بينهم كأنني داخل بيضة : فيها الحياة كلها، ولا شيء خارجها. فأنا قد آويت إليها، فوسعتني. ولم أختنق فيها.

وإذا كنت بينهم لم أحتج إلى كلمات. فهم يعرفون كل شيء.

وهم يتحابون، ويخبُرون بعضهم، ويغوصون في بعضهم. شغوفون باستكشاف العالم. كأنهم أطفال صغار. وأعلم أنهم يُحبُّونني مثل حبي لهم. وهم لا يحاولون، أبدا أن يحموني. فنحن متآلفون. وهذا كل شيء.

وفي ظهيرة أحد الأيام، بحثت عن الحاج. فوجدته بقرب النادي، فصعدنا السلم معاً لنتمدد فوق السطح.

ولقد سألته :

— هل في السطح شايٌ كذلك، يا حاج؟

فأجابني :

— فيه كل شيء.

ثم صعد إلى السطح، يحمل شاياً.

الشاطئ

مبتدأ الشاطئ رملٌ رطب، ثم جاف، فساخن. قد تناثرت عليه الأعشاب.

وينتهي الشاطئ بركام من نبات الغار المزهر والخيزران.

لقد زرِعت هذه الأدغال ألغاماً.

وأحياناً ترى من يسدد إلى علبة من علب المصبرات، قد ثبتها بعيداً عنه بكلاشنيكوف أو مسدس.

وأريد أن أعرف كل شيء.

أريد أن أعرف كيف أقتل أيضاً.

وربما أفلحت في ذلك يوماً ما. وربما عجزت عنه.

ثم يغدو الرمل أكثر صلابة. تجنح فيه قوارب الصيد. ثم تختلط حبات الرمل المتلاحمة بالحصى والمحار، في الماء الشفاف، وتحف بالصخور المستديرة، التي يغطيها الطحلب في السطح من عرض البحر.

وننزل البحر في هدوء. البحر ...

غالباً ما تعمره القوارب الإسرائيلية، وتسد أفقه.

كانت البيوت تقوم على مقربة من الشاطئ. ولقد أضحى معظمها، الآن، خالياً أو مخرباً من القصف. لكن كان أحدها ما يزال منتصباً وسط الخرائب في أقصى اليمين باتجاه صور. لقد كان مزرعة صغيرة، ضمت أبقاراً وعنزات، ودجاجاً وبطاً. ولكم حلمت بهذا البيت. وكانت تأخذ بنفسي رغبة أن أعيش فيه، فلا أبرحه ما حييت. إلا إلى فلسطين.

لكن لم يعد لهذا البيت، كذلك، الآن، وجود...

وإلى اليسار من الشاطئ كان يقوم بيت حسن القديم، ثم تمتد المقبرة، وبيت أبي علي الذي يدخن الغليون. وكانت شجرة التين المطلة من بيته تظلِل الفناء كله.

ولو أمضيتَ سحابة يومك تقطف التين من هذه الشجرة ما استنفدت ما حملت أغصانها منه.

تلك كانت الرشيدية. كأنها تستريح على الساحل بين فلسطين وصور.

وكنت أسير صحبة حسن باتجاه صور، على الرملة، بمحاذاة البحر. فإذا غمر الماء أرجلنا غاصت في الرمل. ثم لمحنا على الشاطئ لعبة على هيأة زورق پلاستيكي صغير، قد علِق بالرمل، لا يستطيع حراكاً ... فقال لي حسن : «انظري! هذا محمود!»

فانفجرنا ضاحكيْن. من هذا التشبيه. فلقد أصبح محمود معاقاً لا يقوى على الحراك بعد أن بترت ساقاه. ثم توقفنا عن الضحك فجأة، إذ شعرنا بما فيه من قسوة على محمود.

غداً العيد

«بُكرة العيد». يضحك حسن وسعيد. ويرقصان ويغنيان، مصفقين بأيديهما.

غداً العيد والسادات مات.

فتحنا زجاجات الشامپانيا. واشترينا دجاجة وشويناها. واشترينا النعناع والطابولة. وجرى بيننا الحديث، في دعة وحبور.

وكان سمير يروي لنا من حكاياته، ويستفسرنا فيها...

وكان حُمِلَ إلى المستشفى؛ حيث أمضى أياماً وليالي بجوار عماد، الجريح الذي أُجريت له عملية ترقيع ذاتي لكعبه الذي أطارت به قنبلة في صيدا. وفي هذا المساء جاء رفيق من رفاق عماد في الرشيدية ليحمله من قرب عماد.

وها هو سمير بيننا، مفعم حيوية ونشاطاً، يفيض ضحكاً وكلاماً.

تعدد العيد : العيد غداً. والسادات مات. وسمير بيننا...

فكنا نشرب الشمپانيا.

وظهيرةَ أمس أُطلقت آلاف الطلقات في الشوارع. وظل الناس يتحدثون ويضحكون ساعات طويلة. وصباحَ اليوم، جابت شارعَ الفاكهاني مواكب الأطفال في أزياء موحدة وتظاهرات عسكرية وشعبية، تعبيراً عن الفرحة والأمل في رؤية العالم العربي موحداً ضد الصهيونية.

فرح في الشوارع وفي البيوت.

...عشية العيد، والناس مغتبطون بموت السادات...

ذات مساء، في بيروت

ذات مساء كنت رفقة حسن في بيروت.

كنا نسير وحيدين.

والغسق في أوجه.

ومواكب الأطفال في زي عسكري، تجوب الشارع الفاصل بين صبرا وشاتيلا صامتين، منكسين الأعلام الفلسطينية.

وعلى الطريق المؤدية إلى المطار لا تُرى سيارة ولا راجل.

لقد كانت بيروت في حداد لمقتل أبي شرار[14] في روما بأيدي الصهاينة.

وكنت أسير رفقة حسن باتجاه شارع فولا، متعبين، لا نتحدث إلا نادراً. وفجأة مرقت سيارات على طول الشارع، وأمام مدينة الرياضات. سيارات مدنية وعسكرية : لقد جيء بجثة أبي شرار إلى بيروت. ويتم نقله إلى مكان ما...

فلا يُدفن الأموات ليلاً.

وكنا نسير في الليل السحيق. في بيروت المترامية الأطراف.

لقد قتل الصهاينة أبا شرار. قتلوه في روما.

***

أسأل كل ليالي العالم، أين للإنسان أن يكون حراً؟

يمتد العنف حتى إلى البيت الناعس.

يثقل النعاس أجفاني ... ماذا بوسعي أن أقول؟ وماذا في مقدوري أن أفعل؟

لا تحمل جزمات ليلي شيئاً.

البيوت في فرنسا مغلقة.

ويغدو النوم عندي صنو الموت. فأنا أدفعه عني ما استطعت.

ولذلك برحت البيت، والليل ما زال مسدلاً أستاره، أقطف الأزهار، مترقبة طلوع الفجر. وأستكشف الطرق. وإن داهمني النوم نمت في أرجوحة. آكل الكرز. وأحاور الطيور.

ينام الجميع نوماً سرمدياً.

لماذا؟

ولو كان حسن معي ما استعصى علينا شيء ...

مارسيليا، ماي 82

بـــدونكم

بدونكم لا تستطيع ضوضاء مارسيليا مجتمعة أن تخرجني من الصمت الذي أغرق فيه. رغم أنها ضوضاء أليفة إلى النفس، حتى كأنها موسيقي داخلية.

وأنتم الذين لستم معي الآن.

والألم الذي يجده من يبتَر عضوٌ من أعضائه. فهو يصرخ إلى أن يجاوبه البحر.

وبعيداً عن الجزر التي تترآى لي. وإلى الساحل. وإلى بيروت المنبسطة، التي نحلق فوقها. وإلى عروة البحر الذي يفتح لي ذراعيه مستقبلاً، وينغلق بعدي — إلى الأبد، هذه المرة —

من أجل كل صباحات العالم ودقائقه، التي يفسدها الوهم، خارجاً...

الرشيدية، في الدفاتر التي خططت عليها ذكرياتي... وابتسامات كل واحد ممن عرفت، وحركاته، وعيناه، وصوته تغدو غياباً — صمتاً —

ضحكة حسن في ذاكرتي. من انتباهتي، حتى صوت ستي، الذي يتناهى إليَّ من الكاسيت عندما أشغِّل المسجل...

وعلي أن أزيد من انتظاري قليلاً ...

علي أن أنتزع من الوقت قليلاً، باحثة فيه عن سبل لكلماتي، وباحثة فيه عن نفسي— وعن صوتي الذي أصرخ به — من أجل أن أعثر عليهم. ومن أجل أن أدخل فيهم.

9 ماي 82

حسن...

لقد تحدث المذيع عن لبنان قليلاً... ثم صمت.

وسقطت القنابل على لبنان.

قصاصات أخبار...

فأين أنت؟ وكيف حالك؟

لم أعد أعرف ما أفعل.

منذ ساعات تلتزم الإذاعات الصمت عناداً.

حسن! ليحمك الله وحبي...

حسن! سمعت المذياع : ستة موتى منذ أمس، وأكثر من عشرين جريحاً.

حسن ،لا يساورني شك أنهم قصفوا الرشيدية.

حسن! يا حسن! لتكن حياً!

كن حياً يا حسن!

مشهد الرعب

مشهد أرى فيه رجل أعمال لبنانياً يعمل في إفريقيا، يعبث بمكعبات الثلج في كأس الويسكي.

وسفرة من سفراتي إلى نيس. والصمت المهذب الذي يقابِل به الناس كلامي عن فلسطين.

والدقائق القصيرة في المذياع. وموتى أمس، 9 ماي 1982.

والناس ينامون هادئين.

والذين يسعون، عبثاً، إلى إخراس الأصوات الفلسطينية (وكيف السبيل إلى إخراس الأصوات التي تطوف فلسطين — تل الزعتر — ؟).

وأرتال السيارات التي تمضي باحثة عن البحر — نفسِ البحر.

وأيام الآحاد التي يجري الإعداد لها قبلاً.

وعطل نهاية الأسبوع المقدسة في فرنسا، والتي لا يمكن لأي رعب أن يقلب نظامها.

وجثث أصدقائي التي تتعفن تحت شمس يوليوز.

لم تخرس الأصوات الفلسطينية يوماً. وكيف السبيل إلى إخراس أصوات الجثث الفلسطينية التائهة بحثاً عن فلسطين؟

إنني لأرجع ما مضى من حياتي، فأجدني هائمةً بضحكات منى، وأم محمو وسعيد...

ضحكات تستعصي على الموت.

ويتناهى إليّ عويل النساء من فوق الجبل في الرشيدية، وتحت وابل القصف.

من مات؟

وتقص علي ستي قصة حياتها يوماً بيوم.

وفلسطين المحتلة تتسلح بذراع حسن المنتزعة...

وأنظر إلى لبنانيّ، التقيته في زيارة له عابرة إلى مارسيليا، ينظر إلى لون مكعبات الثلج في كأسه.

منظر مرعب. هو وكأسه. ففي تلك اللحظة قصفت الطائرات الصهيونية لبنان. وكنا نرى صورَ ذلك في التلفزة. وأرى ذلك اللبناني ينعم «بالاسترخاء»...

وعندئذ، عرفت، من وضوح غضبي، أن نبضات دمي في عروقي، ودموعي وأفراحي، وإيقاعَ نفَسي، ولون أفكاري، ومسارها ملتحمة، جميعها، بأولئك الذين هم في الرشيدية.

والذين تفرقوا في أنحاء العالم.

والذين لبثوا في فلسطين المحتلة.

لن تنفصل عنهم أبداً.

والتحقتُ بهم

كانت اللقالق تجوب سماء سورية، محلقة فوق الجبال التي تحيط بالمخيمات. والسماء شفافة. وغير بعيد تُرى الأسيجة التي تحيط بالقرى. ويظهر، بين الفينة والأخرى، فلاح يبيع خياراً على قارعة الطريق. فنشتري منه بعضاً منهُ طرداً للعطش. ...

وما أكثر ما توقفنا دوريات التفتيش قبل أن ندخل خزمية. وذكرني ذلك بما كنت ألاقيه رفقة حسن منها أيام كنا نسافر من الرشيدية إلى بيروت.

يا ربي!... فكيف هو حسن؟ وكيف هي خزمية؟ وكيف هي الرشيدية؟

كنا خمسة مسافرين، داخل سيارة ملتهبة من الشمس الحامية. وكنا نتجه إلى بيروت عبر حمص؛ فطريق دمشق مقطوعة. كان ذلك في شهر يونيو 82، والسائق يطلب ماءتي ليرة لبنانية تكلفة الرحلة. وأما دمشق فكانت مختلفة تماماً، لا بل كانت عالماً آخر. فأنت لا تسمع فيها إلا الكلمات العربية. لكن باستثناء حشد الرجال الذين قدِموا من كل الأرجاء

ليقاتلوا الصهاينة في لبنان، والذين التقيتهم في المطار، وصناديق الأدوية المنقولة من مكان إلى آخر، تحت حمَّارة القيظ، كانت دمشق تعتمل حياة كأنها سوق كبيرة. والناس يذرعون أزقتها وشوارعها فرادى وزرافات.

وما أسرع ما تمتلئ سيارة الأجرة الذاهبة من دمشق إلى بيروت. ولقد اجتزنا الطريق المؤدية إلى بيروت، متحفظين في الكلام.

وفي بيروت، جلست إلى جرَّاح فلسطيني في أحد المقاهي، وكان يستعد للسفر إلى بكاً. ولقد فكرت، أحياناً، أن أزور هذه المدينة. ثم ودعني، قائلاً : «حظاً سعيداً! الله معك!».

لا أستطيع أن أغمض عينيَّ، وأنا أجتاز هذه الطريق، يختلط عليَّ الفرح والخوف والألم كذلك. فأخرِج وجهي من النافذة، يلفح أفكاري الهواء الساخن. وأدخن.

ماذا تخبئ لي الطريق؟

تحوم في الأفق أسراب البط.

وأتملى هذا السلام، في المسافة القصيرة، التي تفصلني عن الجحيم. فربما يكون أصدقائي قد لاقوا حتفهم على مبعدة كيلومترات، ممزقين بالقنابل. ومتى ينتهي هذا الحلم المريع؟ أيقظوني!.... الرشيدية مشطتْ.

مُشِّطت الرشيدية

أكتب عنها.... ذاكرتي تثقلها الجثث في كل لحظة. وبسمة حسن الشاحبة. وخوفه الدائم تحت نير الاحتلال الصهيوني. والوجوه التي شوهتها الحرائق. ومنير الذي مات. وحسن الذي قيِّد وضرِب. وعزمي الذي مات. وجيلال في غيابة السجن. وجميع الرجال الذين يعذبون بالكهرباء. وحسن أبو النجّار، الذي يرقد في سريرهِ مشلولاً. وحسن الذي ألقي عليه القبض من جديد. وضرِب من جديد طيلة ساعات. والرشيدية التي مشطت. والأمهات المعولات في صبرا وشاتيلا. الرشيدية التي مشِّطتْ...

كيف أوصِل الواقع إلى الآخر؟ وكيف أصل الهُنا بالهناك؟ إن مثَل الهناك في جسدي كمثل وتَّارَة تخنقني. تلك هي بيروت؛ أشبه بمقبرة هائلة، أقصدها بحثاً عن كفن بين أصدقائي، ومع الرشيدية ... إن شاء الله (وقيل لي إن ذلك لمن المستحيل، وإنه كان يلزمني أن أمرَّ عبر فلسطين المحتلة! ... أكان في مقدوري ألا أذهب إلى الرشيدية؟ إنني لا أدري متى ابتدأ الحلم).

ويحتشد في رأسي ما لا عد له من الصور مما أسمع من أخبار المذياع : مآت الذبابات الصهيونية تنزل التلال، أمام أنظار قوة التدخل التابعة للأمم المتحدة العاملة في لبنان، التي رأتها تمر، من دون أن تحرك ساكناً.

والرشيدية بين البحر والتلال، وبين البحر وحدائق البرتقال، وبين البحر والسماء، وبين الطريق المؤدية إلى رأس العين، بين القصف الذي ينزل وابلاً من السماء والقصف الذي يأتي من البحر، والقصف الذي يأتي من الطريق.

مشّطت الرشيدية، ونكّل بها، واعتقلتْ.

وأصدقائي، بأيديهم المفلطحة، وعيونهم المعصّبة. المآت من أصدقائي الذين شدَّتْ أيديهم إلى الشاحنات حتى اقتُلِعتْ من منابتها، في الرشيدية.

ماذا فعلوا بحسن؟ لقد نزعوا إحدى ذراعيه. فماذا بقي لهم فيه؟

وماذا يفعلون، الآنَ، بمحمود بعد أن جعلوه مقعداً بلا ساقين؟

وما أكثر الشباب الذين قطِعت أيديهم وأرجلهم، أو ذبِّحوا في صبرا وشاتيلا!

وما أكثر الذين يسامون سوء العذاب، كلَّ يوم، في مخيم أنصار.

رأسي خال إلا من عويل.... أين هم الآن، وكيف هي أحوالهمْ؟ إنهم يعذَّبون في أنصار.

فلتهبْهم ربي القوة على مقاومة الموت!

«أناديكم، أشد على أياديكم، وأبوس الأرضَ تحت نعالكم»...

***

«تريد أم نبيل أن تعرف هل تملكون سلاحاً في بيروت»...

***

مثّل الرشيدية كصرخة وجه «مقطع الأشداق».

نعم. إننا نملك سلاحاً في بيروت. و«نحن» تعني الفدائيين الذين يذودون عن المدينة المحاصرة. لكن هل يملكون أن يدفعوا الطائرات بهذا السلاح؟

اجعل ربي موسيقى رجمي تصدح انتصاراً ذات يوم! واجْعل اللهم الأرضَ منبتَ سلاح، واجعل اللهم فيه حرية المستضعفين في بيروت، وفي صبرا، وفي شاتيلا، وفي عين الحلوة، وفي الرشيدية، وفي البصرة، وفي برج البراجنة، وحريةَ جميع الفلسطينيين أينما كانوا في هذا العالم.

الرشيدية

تلوح الرشيدية، على حين غرة، عند عطفة الطريق، من كل فجوة بين أغصان غابات البرتقال. تلوح منتصبة فوق جبلها، ومنحدرة حتى البحر.

مكعبات بيضاء من بيوت. وكرمات على هيئة عريشات، وتينات، وياسمينات...

وجراح مفتوحة في المساكن التي قصِفت، وطعِنت في هدأة الطبيعة.

والشوارع المستقيمة. والطرقات التي تقود إلى البحر. وسياجات كثيفة من نبات الغار والخيزران المزهر. والرمل الأشقر. والبحر المتلألئ.

رشيدية الوجوه.

تجاعيد ستي، وغمّازتاها إذا ضحكتْ. ووجوه جميع الأطفال. والشيخ الذي يقتعد عتبة بيته. وحفيظة، ورانية، ومريم والحاج معين، ولارا، وعالية، وأبو غازي، وأبو علي، وأبو الحبيب الغزال...

ثم الرشيدية. اليوم.

لقد قصفت الطائرات الصهيونية المخيم طيلة أربع وعشرين ساعة. دونما توقف. يومي 4 و5 يونيو 1982.

فلم يعد للرشيدية وجود.

فما عاد فيها بيت ولا دكان، ولا شارع. لم يعد فيها شيء.

وما عادت سوى ركام أنقاض، وبؤس، وتدمير مطلق. أينما وليتَ وجهك فيها.

وعندئذ دخلها الصهاينة بطائراتهم المروحية، ودباباتهم، وزوارقهم التي جاءوا بها من شيربروگ.

بل ما عاد في الرشيدية أثر لرَجل. فأنت لا ترى في أزقتها وحواريها سوى أطفال صغار لم يبلغوا العاشرة بعد. وفتيات صغيرات ونساء. وأما الرجال فيسامون العذاب في سجن أنصار ليل نهار. أو قتِلوا.

وكانت هنا. حاملاً. وحولها أطفالها. وأبو نبيل في أنصار. وسألتنا هل نملك سلاحاً في بيروت...

وكنت أجدني من سماع ذلك كأن رأسي قد غزاه الربيع.

ولا عجب. ففلسطين لن تستسلم أبداً.

كانت جدتك تجلس فوق أنقاض بيتها. وأمامها كأس شاي. وعلى جبينها وخديها شعيرات برزت من الخرقة التي تشد به شعرها. وقبّلت يدها من أجلك. ففاضت عيناها الكبيرتان دموعاً.

وربما لازالتا.

رجمي

هي موسيقى. موجة صوتية. متموجة. تسمع في ترجيعها تشوشاً نائياً تختلط فيه تصفيقات غير متناسقة، وفرقعات قنابل. موسيقى تحبل بكل تلك المتناثرات، في دفق مزمجر ومتعاظم. دفق متواصل كأنه يتقدم متدحرجاً.

وأنت بين تعرجات هذه الموسيقى الثقيلة وذراها. كأنكَ مأخوذ في لجة عاصفة بحرية مدوّمة. أو يركض في رأسك ألف فيل أهوج. وشبّابات هائلة، مخنوقة، معدنية، تهدئ من روعك. ثم يطغى عليها صوت تدفق بهيم. وتسمع، من جديد، ما يشبه قطرات موسيقى سرعان ما تندغم في الليل.

إلى أن تتحول الظلمة دفقاً عاصفاً متموجاً من موسيقى رجمي.

زيارة المستشفى

حسن أبو النجار راقد في السرير. يمد إلينا يديه. ويبتسم.

وفتحي يجلس بقربه. يحكي له عما يجري في الخارج...

وإلى جوارهما جلست فتاة إلى سرير رجل في مقتبل العمر. والرجل محتقن الوجه تلذذاً بما يصدر عن الفتاة من كلام مجامل وهتاف. فهو يأتي في حركاته بما ينم عن زهوه واغتباطه.

ثم يبلغ منه ذلك إلى الاهتزاز والاضطراب، وإلى أن يحرك ساقه المقطوعة عند الركبة.

وفي السرير المقابل يرقد رجل لا يكف عن الأنين. وبين الفينة والأخرى يتحول أنينه صراخاً. وهو مغطى بالضمادات. أصابعه أصبعاً أصبعاً. وجذعه. وساقاه. وظهره. ووجهه... ويحكى أنه أصيب بالقنابل الفوسفورية. وهو يبذل جهده لكبت سعاله.

وفي سرير مجاور رقد رجل في مقتبل العمر يهذي : لقد بتر الأطباء إحدى ساقيه تواً.

ثم يأتي أحمد فيأخذني إلى القبو ليُطلعني على ما أنجز وأصدقاءه من عمل طيلة اليوم : ركام هائل من عكازات خشبية، يعتمد عليها المريض في سيره بأن يجعل أعلاها تحت إبطه.

وأحمد، نفسه، وحيد الساق. وعيناه زرقاوان. وشعره أسمر. متهدل. يقول لي ضاحكاً :

—— أعتقد أنه عمل جيد. ماذا يمكن أن نفعل أفضل مما فعلنا في هذه الظروف؟

ثم أصعد من جديد لأرى حسناً أبا النجار. فأجد مدلكة سويدية شابة تدلك له ساقيه. لقد نحل. وكان يعمل مصوراً. أتذكر...

كان الوقت ليلاً. وكنت وجيلال والحاج عائدين من صور؛ حيث ذهبنا لزيارة أبي خلدون....

وكان الظلام حالكاً، فلم يكن يرى سوى ضوء السيارة. وفجأة رأينا دراجة عادية على نفس طريقنا : كان حسن أبو النجار من يركبها. وكان يدوِّس قاصداً الرشيدية. وعلى كتفه خرْج ومصورات. فتوقفت السيارة وخرج منها الحاج، فجعل دراجة حسن فوقها وهو يغمغم، متذمراً، بكلام سخري. واستقل حسن السيارة، فأخذ يفرجنا على آخر ما التقط من صور.

ثم أمضينا الأمسية جماعة في بيت حسن، نتفرج على صوره، ضاحكين نعب كؤوس الشاي. وهم يسمون الشاي «ويسكي الفاتحة».

كان ذلك قبل عام.

وأما الآن، فقد أصبح حسن طريح الفراش، محطَّم العمود الفقري مما أصابه من شظايا قنبلة.

يرقد حسن مشلولاً. ولقد أنجب، في الآونة الأخيرة، بنيَّة.

أسماها «سناء».

أي «سماء».

فتحي

نعيش جماعةً ليلة سعد حداد، هذه، في دفء وحميمية.... وفي نهار الرشيدية تأخذ بأنفسنا رغبة الالتقاء ببعضنا.

وكان الآخرون يضحكون، أحياناً، هازئين منا، ومعكرين صفو فرحنا...

فكان فتحي يهز كتفيه. وكنت أضحك مما يفعل... وماذا حدث بعدئذ؟

كانت بيروت. وكان الحصار.

فكيف السبيل إلى الرشيدية؟

وذات يوم رأيت ابتسامة كومباج. وكان يرقد جريح البطن، في زاوية بإحدى الردهات... ما أشد ما أجد من متعة لملاقاتهما! وما أكثر ما أحمل لهما من أسئلة!...

لكن لا أعلم شيئاً عن حسن. وقد روى لي كومباج كثيراً من الأكاذيب للترويح عني...

والرشيدية؟ من يعلم عنها شيئاً؟

يصفر في رأسي رعب. من الرشيدية الممشَّطة، والسجناء المجمَّعين على الشاطئ. والمعذَّبين بالكهرباء، والموت...

إلى أين الهروب من هذه الصور المرعبة؟ فهي تحاصر ناظريك في بيروت، كذلك...

سقطت عين الحلوة... وكنت خارجها. وما كان أعظم فرحتي، ذات يوم؛ حين توقفتْ سيارة قرب باب المستشفى... ونزل منها فتحي...فناديت عليه : «فتحي!» ورفع رأسه... باسماً. فهل تعرف ما عنتْه لي ابتسامته؟ إنه الفرح الحقيقي الأول الذي يعتري كياني منذ أيام وأسابيع.

ماذا أقول؟ وكان هو عارفاً. وصرنا مجتمعين برغم كل تلك الحدود، وبرغم تضادٌ عالمينا، وبرغم هذه الحرب. صرنا مجتمعين في خضم هذه الحرب. وما عدنا نفترق إلا لماماً.

والآن، هل تراك يا فتحي في برج البراجنة؟

أأكتب إليك؟ أكتب إليك بطاقات. لكنني أختنق غيضاً...

ما أكثر الأصدقاء الذين يلزمني أن أبحث عنهم، وما أكثر الناس العزيزين على قلبي طوحت بهم الغربة وراء هذا البحر. وبقيت ألهث وراء أخبارهم، وأتلقطها إذا بثها المذياع...

وما كان فكري من القوة ولا كان حبي من القدرة بما أستطيع معه أن أقول لهم، من خلال هذه القنابل، وحاملات الطائرات، وهذه الخيبات، وهذه المنافي، وهذه البوارج، إنني أفتقدهم، وإنني أحملهم في نفسي.

وذات يوم ذهب فتحي للقتال في سان سيمون؛ حيث كان الصهاينة، يحاولون، دون كلل، اختراق هذا المعبر المؤدي إلى بيروت...

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة قررت أن أذهب لرؤيته. وكنت أشعر كأن تلك الحرب دامت سنوات. فاليوم في زمن الحرب في الطول كالحِجَج.

وقد كنا نلتقي كل يوم قبل أن يخرج إلى الحرب. كأننا كنا نقاوم الموت بسحر اللقاء. وما كان الذهاب إلى سان سيمون أمراً هيناً. فقد لزمني أن ألتقي بالفدائيين الذين يتجهون إليها. فكيف لي أن أجدهم في بيروت؟

فذهبت لزيارة شقيق فتحي. فلم أجده. وما كان في بيته سوى صبحية، والصغار. وبعد حديث غير قصير دار بيننا، قالت لي صبحية :

— لم يعد فتحي موجوداً في سان سيمون، لقد عاد إلى بيروت. إنه هنا...تعرفين شقيقه منيراً ؟ لقد مات....

وعدت إلى البيت، في شارع ڤيرساي... ثم جاء فتحي للاقاتي، فجعلني بقربه في مناحة كبيرة.

وكانت الطائرات تقصف بيروت. وكانت قاذفات الصواريخ تقصف بيروت. وما عاد منير يستطيع الضحك من ذلك... لقد مات في برج البراجنة من رصاصة في الرأس.

فلماذا، ومن قتله؟ لا يعرف أحد. وربما لن يعرف أبداً. وحتى قبره ما عاد له، الآن، وجود بعد ما ناله من قصف.

وكنا مجتمعين. والدة فتحي تبكي. وأجدني أقول لفتحي :

— إذا نويتَ العودة إلى سان سيمون، فتعال لزيارتي، أريد مرافقتك إليها.

فتنظر أمه إليّ، قائلة :

— قولي لفتحي ألا يذهب بعد اليوم. فلن يخلُف منيراً أحد. لكن يكفي الحال هكذا. لا أريده أن يذهب. قولي له هذا.

وبقي فتحي. ولبث مع أمه بعد أن ذهب الفدائيون، هو الذي كان فدائياً. فقصَّ خصلات شعره، التي وخطها الشيب، وطلّق بدلته العسكرية، وأخفى بندقية الكلاشنيكوف، وذهب ليودع إخوانه على الطرقات. وبقي. وشقيقك الآخر، يافتحي الذي يعيش في بداوي، في الشمال، في مأمنٍ، أين هو الآن؟ وكيف حاله؟ وهل تعلم إن كان ما يزال حياً يُرزق؟

وأنت؟

منير

دخلْت وفتحي البيت. في برج البراجنة.

وبيته في الطابق الثالث.

ولقد قصِف سطحه، فقتِل ما فيه من حمام.

....

— انظري جيداً، أين نحن. هل تتذكرين؟ غداً تتذكرين؟ بعد خمس سنوات، أو ست، تتذكرين؟

مرتسم في نفسي بيتك، يا فتحي، والطريق التي تؤدي إليه. منحفر في ذاكرتي. إنه يسافر معي.

وسوف أعثر عليه.

إن كان ما يزال منتصباً، فلسوف أعثر عليه.

كان منير هنا، رفقة بسام.

ودخلتَ البيت، مثل فرق خطاطيف. فضحك البيت من صوتك الجهوري، ومن ضحكاتك، ومن غضبك الذي يتطاير شظايا نزقة مباغتة، وسباباً مرحاً، وشلاَّل ضحك صادق.

وكنت تجلس قرب فتحي، تعبث بما تصادف يدُكَ من أشياء البيت.

دخلتَ البيت مثل إعصار، وتهالكتَ على كنبة، وخلعت حذاءك وجوربيك دفعة واحدة، جوربَ الرجل اليمنى باليد اليمنى وجورب الرجل اليسرى باليد اليسرى.

وبموتك طلّق فتحي ضحكه المعهود.

عادت عمتك، ذات مساء .

صحراء ليلية من غبار، وقذارة، وأنقاض. ذلك هو الفاكهاني.

وأحياناً تُرى بقنديلك كمن يشق مسلكاً.

وفجأة يملأ إحدى زاويا الشارع حشد من النساء.

قدِمن هذه الليلة، من الجنوب.

ثم تقع عيناك عليها وسط الحشد. ثم على صديقة أخرى. وعلى أخريات.

كن هنا.

وبينكم الأيام.

من يونيو، ويوليوز، إلى الآن...

وبينكم الغائبون.

وغيابهم يعْول في تهامسكم.

بينكم الأيام الأخر.

وأصحاب العنزة، التي كانوا يجعلونها فوق السطح. المنايش. والخبز. والمدرسة.

والأعياد.

والأماسي.

والأيام الأخر. أيام 69، وأيام 73، وأيام 78...

بينكم الآن الصهاينة.

أكياس رمل. وظلام. ووجوه. ولقاءات.

حشد ظامئ من النساء. متعبات.

والحر، بطبيعة الحال.

بينكم. ومعكم.

الغائبون.

وسجونهم.

وصرخاتهم التي تأخذ بمسامعك في سهرك. وفي تنبهك.

وفي انشغالك.

أنصارا

حاضرون فيكم.

الغائبون عنكم.

وكذلك الأموات.

النساء فجرَ غد.

يعدن إلى عين الحلوة.

التي جرى تمشيطها.

وإلى الرشيدية.

التي جرى تدميرها...

تيسير

صُور مبقورة البطن. مدمَّرة.

الساحة القديمة التي كانت موقف السيارات الذاهبة إلى الرشيدية...

وأنادي :

— «تيسير!»

فتأتي نحوي. وتقول :

— ها أنت ذي! هلا رافقتني إلى البيت؟ وهل رأيتِ مستشفاك؟ لقد أصبح قفراً».

— أريد الذهاب إلى الرشيدية. هل ترين ذلك أمراً ميسوراً؟ هل يسمحون لي بالمرور؟ كيف تجري الأمور هنا؟.

— إن الصهاينة متمركزون في مدرسة المخيم القديم، لكن دورياتهم تمسح المدينة طيلة النهار. فإذا حان الليل لزموا المدرسة، خوفاً على أنفسهم. وحيث إنك امرأة، فإن من اليسير عليك أن تدخلي المدينة، وسوف أُرافقك.

وعندئذ استقلَّينا سيارة أجرة إلى الرشيدية.

لقد قمنا، في العام الماضي، على توليد النساء. تحت وابل القنابل. وتيسير مولِّدة عجيبة. كانت تقول لي : «ساعدي المرأة الآن». فكنت أضغط بكل ما أوتيت من قوة على بطن الحامل، دافعة وليدها إلى أسفل.

وكم تكون سعادتي كبيرة كلما رأى وليد فلسطيني النور! ما كان أجمل ذلك في خضم تلك الحرب! فمعناه ابتعاث الحياة من الموت!...

وها هي تيسير، الآن، كذلك، تجلس بقربي، تحكي لي قائلة :

— لقد أوقفوا الجميع. جميع الرجال، والأطباء والممرضين. جميعهم. بل اعتقلوا حتى الممرضات. ولقد نادوا علي باسمي : «تيسير! تعاليْ هنا!». واحتجزوني مدة ست ساعات. ماذا كان بوسعي أن أقول لهم؟ لقد قلت لهم إنني لا أعرف شيئاً...

تعلمين، إننا لا نريد أن يرحل الصهاينة. فلقد جعلوا رجالاً من الجليل على حراسة المخيمات. إن إسرائيل لأفضل من حداد. فلو جاء حداد المخيمات لقتلنا واحداً واحدا بالسكين. ولذبَّح أطفالنا. سيكون ذلك مريعاً.

وإننا لنخاف ذلك. ونرهبه.

وإن تيسراً لمحقة. فالصهاينة قد قتلوا آلاف الأشخاص، لكنهم الآن منتصرون، فلماذا يزيدون في تلويث صورتهم، التي باتت من البشاعة بما لا مزيد عنه؟ لكن على عكسهم هو حداد، ولو جاء المخيمات، بتوكيل منهم، لأمعن في ما أصبحوا يأنفون من القيام به من أبشع الجرائم.

كانت سيارة الأجرة التي نستقلها تنهب بنا الأرض نهباً. ونحن مستغرقتان في الحديث...

ثم يطالعنا الصهاينة، وهم يجتثون ما ينبث على جانبي الطريق من قصب وكرم...

واستدارت بنا السيارة جهة اليمين. أهي الرشيدية؟

وأخذت السيارة تتقدم وسط خراب شامل. والفضاء شاهد على هول الدمار الذي نزل بالمنطقة. فأدى إلى اقتلاع الكرمات العجوز، ومحو البيوت البيضاء.

وحسبي أن ترتعش ورقة في كرمة منتصبة، أو أحس سخونة السماء الزرقاء، لتستيقظ ذاكرتي...

فأين هو بيت حسن، وسط هذه العاصفة التي توحي بالهدوء؟

حاجز : لا مرور لغير النساء : «هيا!».

عالية

تقتعد منضدة خفيضة، من خيوط البلاستيك الخضراء. تدير مِساك الآلة، بينما تتدحرج حبات القهوة، وتغير أماكنها، وتنشوي، وتفوح رائحة ذكية، محدثة زمجرة خفيفة. ويُسمَع للآلة أزيز متقطع... وعالية منكبة على عملها، قد صرفت إليه كل اهتمامها. لا ترفع وجهها إلا لتسمع مني أو تجيب على أسئلتي.

وعالية نحيفة ضئيلة الجسم. وهي من النحافة، وتبدو من الضعف بحيث تحوز تعاطف الجميع وودهم. وجهها شاحب. وكذلك هو فمها. وإذا تكلمتْ جاء صوتها أبح. وكانت في ما تقول هادئة. لا يلفِت نظرَك إليها سوى عينيها. فهما واسعتان ومتفكرتان دائما حتى عندما تضحك عالية – وليس نادراً ما تفعل – ضحكة خفيفة وقصيرة، ترتسم على وجنتيها الرقيقتين غمازتان. وتخفي شعرها الطويل، المجعد قليلاً بوشاح، لا تكاد تخلعه عنها.

إن عالية تتألم من كل ما يجري حولها. شجارات الجيران. وسيارة يوسف التي صارت مما نالها من القصف غير صالحة لشيء. وحالة والدتها الصحية. واستقبال الضيوف. ومعين الذي لم يعد إلى البيت بعد...

وهي تطرز ما تطرز من آيات قرآنية للتنفيس عن روحها، والتخفيف مما يثقل على صدرها. تطرز تلك الآيات فوق شبكات، تهديها للجميع، من أخوات، وأصدقاء، وعمات أو خالات، وبنات عمات أو خالات... وهي تدخل جمانة في الإبرة، وتجذب الخيط وتغرز الإبرة، ثم تبتدئ كرّةً أخرى...

كان ذلك في الماضي. ولقد تركت المخيم القديم، هذا الصباح، فما استغرق نزولي منه سوى دقيقتين، إذ لم أجد من يكلمني أو أكلمه بين الأنقاض. بيد أني رأيت حفيظة تزيل ملاءة كانت قد مدّتها على حائطين من بيتها الذي دمّر جلّه. وكانت حاملاً. وبقربها رانية، قد لاذت ببيتها، كأنها في جزيرة ضائعة وسط ركام هائل من الأنقاض على مدى البصر. ولقد نادتني :

— يا فرنسية، تفضلي!

ثم سألتني عندما دنوت منها، في شبه همس :

— هل جئتِ؟

— نعم. هل أنتِ حامل؟ تهانئي! وأحمد؟

— في أنصار. تناولي الفطور معنا. سأذهب لأخبرمحموداً بقدومك.

— لقد رأيته مساء أمس. اعطيني كأس شاي فقط، لنشرب الشاي معاً. لن أبقى هنا. إنني أزمع الذهاب إلى بيروت... الله معك يا رانية! الله يحمي أحمد! إلى اللقاء، يا حفيظة!

— إلى اللقاء يا فرنسية، إلى اللقاء!

وتخطيت مزيداً من الأنقاض، التي كانت، من قبل، بيوتاً وشوارع، مترددة خشية أن يقع نظري منها على شيء أو أتبين فيها مكاناً. وأنا في حالتي تلك إذ وجدتني ألج البيت الذي كانت تسكنه عالية. وقد اندثر إلا فناءه.

وتوقفت لحظة أتوقع أن أجد خلف الجدار الذي ما زال منتصباً ناحية الشارع، الروضَ الذي كان عهدي به مليئاً قزبرة ومغنولية. لكنني لم أجد خلف ذلك الحائط سوى بقية من حجرة.

وكانت أم معين، وعالية، وآمال ووالدة عالية يشربن الشاي في آنية مختلفة أشكالها. صامتات. وكذلك أفعل وعالية. وعالية صغيرة جداً، أحملها في ذاتي، واقفة في صباح الرشيدية، هذا. فمتى نكف عن البكاء؟

وتريني آمال مصطفى، الذي ولِد في الشتاء الماضي، وهو لا يتوقف عن الضحك. ويبدو لمن يراه صورة مصغرة من يوسف.

ولقد بقيت الرشيدية مدينة سحرية. فالمتجول فيها يتعرف على جميع سكانها في ثلاثين ثانية. وتأتي أم نبيل، حاملاً، وجميلة، تمشي مستقيمة. قد أحاط بها أولادها الخمسة. وإنك لتراها مفترة، بشوشة الوجه، دائماً، لا يغير من أساريرها ما تكون عليه من جد أو وقار، بسبب من شفتيها المنتفختين الجميلتين. وعينيها المدورتين، كأنهما عينا طفل.

وأنت لا ترى من الأحياء والطلقاء غير النساء. فأزواجهن، وإخوتهن، وأبناؤهن يقبعون في أنصار.

وتقول عالية النحيفة الشاحبة الضعيفة :

«لقد ثبتوا أعلاماً لبنانية فوق الدبابات. فلم يستدل الناس، في البداية، على هويتهم. ولقد جاءوا بأسرع من البرق في أعداد كبيرة، عبر طريق راس العين، ترافقهم الطائرات المروحية. وكان أبو نبيل ويوسف ينويان بلوغ المخيم، فلم يفلحا. فقد أوقِفا في صور. وأوقِف معين ورياض في الرشيدية. هل تعلمين أن عاطفاً — وكنت رأيته كما أراك الآن— قد وشى بأكثر من خمسمائة فدائي، هنا؟...

لقد نقص وزني سبعة كيلوغرامات منذ ابتدأت الحرب، وأنا متعبة، لكن لا بأس. قولي لهم في بيروت إني بخير. وإننا، هنا، في شوق إليهم. واسأليهم هل يتيسر لهم الأكل. والماء؟

وأم نبيل تريد أن تعرف هل تملكون سلاحاً في بيروت...».

ذهاب

تركته في شارع الحمراء حيث استقل سيارة أجرة. وتابعت طريقي سيراً على الأقدام.

أأرى فتحي؟

كلا. وبما كان فتحي ما يزال في برج البراجنة.

لا أعرف أين أجد فتحي.

وإذن سأكتفي بالمشي.

في الطرقات التي كنت أمشي فيها رفقة حسن. يا حسن... لقد أخبرتني أمك إنك بخير.

— أدعو الله أن تكون كذلك.

وأما الحمرا، فقد كان يعرف، بـ «مخيم الحمرا». لكن بدأ الناس ينسون ذلك.

ولقد قلبت فيه فلم تقع فيه عيناي على ما يسر.

لماذا؟

مكتبة «أنطوان» ما تزال مغلقة.

وشارع صيداني في رأس بيروت.

لقد عشت هنا .

... إذا كنت تطلب العزلة فمرادك في بيروت....

وصعدت شارع السادات، جارة قدمي. وتزداد صعوبة المشي في الطرقات التي يغمرها الرمل.

فسرت مجرجرة قدمي إلى أن بلغت المزرعة.

أتوقف وسط حشد المرتحلين.

إنهم يغادرون.

يستقلون الشاحنات.

بين جالس فيها ومنتصب.

ويرسمون بأصابعهم شارة النصر...

- لن نستسلم أبداً ! -

كنا انتظرنا إسرائيل في بيروت.

مجتمعين.

وها هم يبرحونها الآن.

وأما نحن المقيمين فيها، فنبكي، ونصرخ، ونقبلهم من بعيد. وننظر إليهم وهم يرحلون...

ثم يهدأون

ويبتسمون لنا

يشجعوننا

ويصرّون بأسنانهم.

نقول لهم : «إلى اللقاء!».

فيردون علينا : «سوف نعود».

هم في الشاحنات.

ونحن في الشارع.

ونحن نعلم أنْ سيلاحقنا هذا التمزق ما حيينا.

ولقد شيعناهم بنظراتنا وخطانا إلى نهاية الطريق.

وعندئذ أيقنا أنهم رحلوا.

***

الرشيدية عويل حنجرة مكممة.

لقد امتقع لون حسن لمرآي!

...«الكرمل فيّ» ...

هل تتذكر؟ المرابطون[15] لا يحيّون أحداً في طريقهم. فكنت تضحك من ذلك....

لكن نساء الرشيدية يخشين على بيروت.

لقد ربحت السياسية الإمبريالية ما خسر الجيش الصهيوني. وأخذ البحر إخوتنا.

وكم هي النظرات التي يشيع بها الواقفون في الميناء، وفي شارع اليونسكو الذي

تكسو جنباته أشجار الأوكاليبتوس، وفي المزرعة الراحلين، محاولين بها أن يمنعوهم من الرحيل؟

كان الفدائيون ينتظرون إسرائيل في بيروت.

المذيع يبث أخباراً سرعان ما تصبح متقادمة، بحكم التغيرات السريعة التي تطرأ على الأوضاع. لكن لم يكن في مقدور الصهاينة أن يدخلوا بيروت ما دام الفدائيون فيها.

فعندما غادرها هؤلاء دخلوها. بعد ظلوا يقصفون المدينة ثمانياً وأربعين ساعة. ثم دخلوها.

فاعتقلوا المدنيين.

وملأوا شوارعها من جثث صبرا وشاتيلا. وفرشوا شوارعها مما سفكوا من دماء الأبرياء بساطاً أحمر قانياً ساروا عليه حاملين نصرهم.

لقد دخلوها، وأمروا من فيها من الرجال بالاحتشاد.

كما فعلوا، من قبل، في الرشيدية. وفي عين الحلوة. وفي البصرة. وفي برج الشمالي. وفي دامور. وفي جيل البحر. وفي أبي الأسود...

إن أنصار ليعولِ في رؤوسنا.

إنه الموت : فلسطين عزلاء في مواجهة عشر دبابات صهيونية.

سَكِنْسِيَةٌ

يمر شارون كلَّ صباح في شوارع بيروت على متن سيارته.

وكنا نسكن في المنارة بيتاً أبيض الحيطان أزرق الباب والنوافذ.

وسط أسرة يحيى.

كنا لاجئين عندهم.

وهم ينحدرون من عين الحلوة.

وكان أبو عدنان يعمل قريباً من مسكنه.

ما زلت أذكر تلك الليلة، أواخر شهر شتنبر.

كان الصمت غلافاً محيطاً. لا يُسمع فيه ضجيج. ولا ضحك. ولا صوت. ولا وقع خطى إنسان. ولا هدير سيارة.

كانت الرشيدية خالية. لا شيء فيها.

وفجأة تعالى صوت سكسية لا أعلم مصدره.

صوت لن أنساه ما حييت.

صوت أزرق كثيف مثل دخان سيجارتي أيام البرد.

ومتموج كتموجه.

موسيقى ثملة تلحم الأرض بالسماء.

وأنا.

كنت أنصت إليها. منبعثة من جوف هذه المدينة الشبح. مفتوحة العينين.

أتذكر. كنت كالفارة معها.

في الليلة الزرقاء التي كانت تطوقها إسرائيل.

سكسيةٌ موسيقاها هذيان.

***

بيروت في 27-9-82

كم شهراً مضى علي صامتة. أحاول الكلام، فلا أستطيع إليه سبيلاً؟ لقد وضعوا دبابات فوق كلماتي، وعلى حنجرتي سكاكين، منعتني الصراخ.

فما أفلحت في غير الرسم.

ثم شاءت الأقدار أن يتحول ما رسمت رماداً.

وذبلت الأزهار في بيتنا، بعد أن هجره ساكنوه، فصار من بعدهم قفراً خالياً.

كم شهراً مضى علي وأنا أحلم بالحدائق؟

لقد احترقت جميع الحدائق، إلا حديقة الأوب التي نجت بأعجوبة. صنوبرات ومروج وأزهار، والبحر في الأسفل، يحايث الحديقة. جميلاً!...

ونحن مكدودون من فراراتنا الدائمة. نخفي من أغراضنا ما نخفي، ونتخلى منها عما نتخلى، ونحرق منها ما نحرق. ثم نلوذ بالفرار.

وأنا أحمل ابني في رأسي، لا يفارقني حتى في أقصر هنيهات توقفاتي، في ما أرتاد من بيوت، أو أعمل فيه من مستشفيات، أو أستقل من سيارات الأجرة، أو أقصد من حوانيت أو ألج من بنوك... وإني لمتعبة. بما لا مزيد عليه. بل إننا، جميعاً، لمتعبون بما لا مزيد عليه. وترانا نَفُتُّ حائطَ المستحيل آجرةً آجرةً، فإذا هو ينتصب في لمح البصر. وقد أسهو، فإذا استعدتُ وعيي عاودني الألمُ.

بيروت 28-9-82

لو سألوني ماذا أحب. فقد لا أجيب... فأنا أحب، ها هنا، مخيماً آمناً وهادئاً. لكنني أحب، كذلك، هذا البيت، وابني، والأزهار، والموسيقي، والدفء، و...

هل ننعم في بيوتنا بالرفاه بعد كل هذه الآلام؟ أصوات الأطفال المُخمدة...

ما عاد للإنسان ملاذ غير الصمت...

صور...

ماذا فعلوا؟ وماذا يفعلون؟ ما زال الناس يتحسبون لمزيد من الرعب. صورة تشي گيڤارا المعلقة على الستار المترب. صرامة النظرة.

كيف نفكر؟

إن هذا من بيوت العالم الآخر.

مثل بيت صباح.

وأنا أجد فيه كل ما أحب. وأكثر.

أما ما يغيب عنه فهم الأطفال.

ما الذي بقي للنساء مما لم يجُدن به في الأعمال الفلاحية، وفي سبيل الحرية؟

لقد أفرطن في الجود.

وصارت بيوتهن، من ذلك، خالية حتى من المبيضات.

لماذا ؟

عـــدنان

الآن والصهاينة يقتّلون أصدقائي، وإخوتي في بداوي، وفي نهر البرد، غالباً ما أفكر في عدنان.

إن في مقدور عدنان أن يضحِكَ الحجر، لو كان الحجر يبكي، وينطِقه من كلامه.

وعدنان من بداوي. وقد استقرت أسرته في شمال لبنان، في بداوي، كما استقر كثير من البدو، الذين يكونون أغلبية ساكنة المخيمات في الشمال. وكان أبواه بدويين أصيلين من الجليل.

ولقد عاش عدنان طفولته ينصت إلى أحاديث الرجال مساء حول فناجين القهوة. فتعلم منهم فن الحديث. وإليكم مِمَّا قال لي :

«كنت في حوالي الرابعة عشرة. ولم أكن قد عملت في الحقول، كما كان يفعل زملائي في المدرسة، لأن أبي لم يكن يشاء ذلك. ثم كانت العطلة المدرسية، فإذا أنا أُفلح في إقناع أبي بأن يأذن لي بالعمل في جني الطماطم لدى أحد الملاك، رفقة بعض من أصدقائي. ولقد كان جني الطماطم عملاً شاقاً. وكنا نعمل، والمالك يراقبنا. ولقد اتفق ذات يوم، أن تقدمت أصدقائي، فإذا بالمالك يأتي إليَّ، ويصيح بي في حنق : «أهكذا تعمل؟ انظر كم تركت خلفك من الطماطم!». فأجبته : «هذه؟ إنها لم تكن ناضجة عندما مررت بها!» فضحك من جوابي طويلاً. ثم قال لي : «ابْقَ معنا. وليس عليك ألا تعمل. لكن ابق معنا، لتضحكنا بكلامك. إن شخصاً مثلك لن أدعه يفارقني».

وكان عدنان لا يكف عن الضحك وهو يقص لنا من طفولته. ولقد شاركه الآخرون الضحك. ثم قال : «وذات مرة أخرى، كان علينا أن نقتلع الأعشاب من أحد الحقول. وأما أنا فقد كنت يومئذ عازفاً عن العمل. فجلست في ركن، بينما توزع الآخرون في جميع الجهات. ثم جعلت أكنس ما تصل ذراعاي من الأرض من حولي. وأمضيت في ذلك الصبيحةَ. فجعلت تلك البقعة من الأرض نقية أتم ما يكون النقاء. ولقد رأى المالك ما فعلت! فكنت وسط دائرة قطرها متران، من النقاء بحيث يحسبها من يراها بساطاً ممدوداً!».

فكيف حالك، الآن، يا عزيزي عدنان، يا «عمي» العزيز! لقد تركناك في شتنبر 1982، في بيروت. فأينك الآن؟ وهل أنت حي ترزَق؟ وكيف حالك؟

ضحكات

البيت بارد قليلاً. والمقلاة تسخن ببطء. شربنا شاياً بالقويسة. والآن نقتعد البساط الأزرق. ويروي لي عمر العائد من غزة :

«المدينة التي أنا قادم منها توجد على حدود 47. ولقد مُدت تلك الحدود وسط أراضينا، فشطرتها نصفين، بحيث لبث أبي وثلاثة من أعمامي فوق أرضهم في غزة، بينما انتقل أبي وثلاثة من إخوته إلى الأردن ليقوموا على خدمة الأرض في الناحية الأخرى. وكان يفصل طرفي أراضينا أقل من مائة متر. وقد كانت مزروعة تمراً وزيتوناً.

واتفق لأبي أن أُودِعَ السجن، ولبث فيه مدة خمسة وأربعين يوماً. وكانت تهمته في ذلك أن تحدث إلى أمه، من الجهة الأخرى... ولقد أفلح المحامي في إطلاق سراحه، لأنه أفحم المحكمة بقوله : «لقد نظرت في جميع النصوص، ولم أجد ما ينص فيها على حبس المرء إن هو تحدث إلى أمه...». فأُخلِيَ سبيل أبي.

ولحظة مغادرته السجن، قبض عليه رجل شرطة، وأمره بالذهاب إلى القاضي. فقال له القاضي : «لقد أخلينا سبيلك هذه المرة، لكن لا تظن أن هذا يخول لك التكلم مع أمك متى رغبت .....».

فضحك. وضحكت أنا أيضاً. وكيف لا نضحك؟ إنه لغباء يتجاوز كل الحدود...

وواصل عمر حديثه، قائلاً :

«كان يسود غزة النظام العسكري. وكان من عادة الجنود اليهود أن يقولوا : "المسيحيون يحثون المرء منهم على أن يمد خده الأيسر عندما يُصفَع على خده الأيمن، وأما نحن، اليهود، فنقول إن من يفكر، مجرد التفكير، في رفع يده في وجوهنا ، نقطعها له"». وتصورْ أنك تريد التنقل على متن سيارة، رفقة أصدقاء فلسطينيين، يقطنون الجليل، أو موضعاً آخر من فلسطين تم ضمه في عام 1948 — فأنت تبلغ إلى حاجز، والحواجز لا يخلو منها مكان، فترى أمامك سيارة قد استقلها بعض من أصدقائك من هذه المناطق، فيسمَح لهم بالمرور ... إنهم يحملون أوراقاً إسرائيلية. والآن، ها أنتذا تمسك بمقود سيارتك — إن كنت قادماً من غزة فإن اللوحة الحاملة لرقم سيارتك تكون من لون مخالف— في سيارتك، كما في السيارة التي أمامك، أصدقاء من حدود الدولة الصهيونية التي رسمت في عام 48، فيمرون هم، وأما أنت فتلبث في مكانك... يقول لك الجنود الإسرائيليون : «انتظر ها هنا». ثم يفتشونك لساعات...

لقد أصبح بناء البيوت في غزة خاضعاً لقانون جديد.. فيمكنك أن تبتني بيتاً، وتسكن فيه. ويمكنك ... لكن القانون ينص على أنك لن تصبح مالك ذلك البيت أبداً...».

...إلخ.

وهو يتحدث، فأنصت إلى حديثه.

وقد جلس مستنداً إلى الحائط، فهو ينحني، ويزداد حيوية، ويضحك، ويحكي ويسكت، هنيهة، ثم يعود لمواصلة حكايته. ويدع لي الوقت لأضحك، ثم يشاركني الضحك...

كنا نتذكر، كذلك، الأولاد، في مخيمات اللاجئين. أولئك الذين ولدوا عندما حازت منظمة التحرير الفلسطينية الاعتراف الرسمي، وبعدئذ... واستماتتهم في قتال الجيش الصهيوني، في يونيو 1982 في الرشيدية، وفي عين الحلوة. فقال : «سمع، ذات يوم أحد أصدقائي الفلسطينيين، وهو يومئذ، في فلسطين، جندياً صهيونياً، كان عائداً من لبنان، وكان يتحدث إلى فتاة، ويشكو إليها ما يلاقي الإسرائيليون من المشكلات بسبب الأولاد الفلسطينيين. فهم لا يريدون أن يسجنوهم مع الكبار، خشية من أن يكون ذلك مثارَ شغبٍ دائم داخل السجون، وما لا يُحصى من المشكلات والصعوبات. ولذلك كانوا يجعلونهم في سلة منطاد ويلقون بالسلة في عرض البحر...

وأعلم أن أحد الأولاد لبث ثلاثة أيام فوق أحد سطوح الرشيدية — مسلحاً بمدفع مضاد للطائرات — وظل يطلق النار، طيلة ثلاثة أيام، على الدبابات الإسرائيلية، ليمنعها من دخول المدينة. وما دخلوها إلا بقتله.

ويحكى، كذلك، في الرشيدية عن الأطفال المسمون أشبالاً أنهم ظلوا يقاومون الزحف الإسرائيلي ثلاثة أيام. وبعد أن نفدت ذخيرتهم لم يجدوا بداً من الاستسلام. والبارحة أطلق بعض الأطفال النار على محمد العقا، الذي أرسله الصهاينة إليهم ليبلغهم أمرهم بالاستسلام. وكان محمد العقا يعمل صياداً في الصباح ومغنياً في المساء. ولقد قتله بعض الأولاد من الرشيدية. ويحكى أن أحدهم عندما سلم الكلاشنيكوف التي كانت بحوزته إلى أحد الجنود الصهاينة، إذ شرع هذا الجندي، على الفور، يحاول تشغيلها. وعندئذ انفجر الولد ضاحكاً. فسأله الجندي :

— لماذا تضحك؟ ألا تخشى أن أقتلك؟

فرد عليه الولد في برود :

ـــ أتظن أني كنت سأعطيك إياها لو كانت ما تزال فيها رصاصة واحدة؟

وكان بينهم علي، وشاوي، وشامة ... وكانوا يجوبون شوارع الرشيدية وأزقتها بعصي قد جعلوا لها عجلات، يحكون بها سيارات. أو يذهبون للسباحة في البحر، بعيدا فيجتازون إليه تلالاً، ودروباً، كأنهم الرسوم المتحركة. وكانت أمهم تتساءل، بصوت مسموع، في بعض ساعات اليوم : «لكن أين علي؟»

وأحياناً، كنت وعمر نضحك. ولا نتوقف عن الضحك. عيوننا جافة. ونضحك.

وأتذكر، كذلك، أن أطفال الأشبال كانوا يضحكون عندما يبكي الكبار ميتاً.

أي مستوى من تحقير العدو ينبغي بلوغه لكي نستطيع أن نضحك من الألم، بدل أن نبكي منه؟

عادوا، هذا المساء

كانت أم يحيى تبكي...

هي التي لم تكن تُرى إلا باسمة أو ضاحكة، فوق سطح بيتها.

وقد غطى الليل هيأتها المنحنية. وغطت رأسها بمنديل. وتبدو متعبة. وقد جلست القرفصاء. ناشجة. في صمت.

كان محمود في السجن ...

وكنا نعلم ما يعاني السجناء من تكدس، وما يلاقون من صنوف التعذيب، وما يملأ أرجاء السجن من صرخات الرجال الذين تُحرّق جلودهم بالكهرباء...

وأم يحيى تبكي في بيروت شبابَ محمد في أنصار.

فهل اجتمع شمل الأسرة هذا المساء؟ وهل عاد محمد إلى أمه في عين الحلوة؟

وهل عادت البسمة إلى شفتي أم يحيى كالعهد بها؟ وهل عاد محمود إليها كاملاً غير منقوص؟ وهل تجلس أم يحيى، الآن، وقد تحلّق حولها جميع أبنائها؟ أليسوا محاصَرين في طرابلس؟ ألم يمت منهم أحد؟

اجعلهم ربي، بقدرتك، متحلقين حول مأدبة من لدُنك.

وأعِدْ ربي، البسمة إلى محيا أم يحيى.

وكان صباح العيد.

تجوب دوريات الصهاينة شوارع الرشيدية المهدمة.

فلا سبيل إلى زيارة الأموات هذا الصباح. ثم أين دفِن الأموات؟

وجِدت ستي ميتة تحت أنقاض بيتها الذي قصفه الصهاينة. ثم عادوا بعد عشرة أيام فصبوا البنزين على ذلك البيت وأضرموا فيه النار.

وخرِّبت المقبرة التي تقوم على شاطئ البحر.

فلم يعُد سبيل إلى زيارة الأموات صباح العيد، هذا.

وكنت وحسن جالسيْن، في بيته الذي سلِم بعضه من القصف (هو من بعض البيوت التي ما زالت جدرانها قائمة). وكنا جالسين في ما تبقى من بيته. وقد أسدلنا الستائر. متبادلين كلاماً متقطعاً.

فماذا نقول؟...

ثم جاءت إحدى أخواته الصغيرات، تعدو لاهثة :

«الناس يتظاهرون!».

فخرجنا إلى الساحة.

كانت النساء يصعدن الطريق، وقد اصطحبن معهن أطفالهن، صائحات بما لا أفهم.

وفسر لي حسن أنهن يطالبن بإعادة الرجال.

الأمهات

قلاع ومعاقل. يلجأ إليها الأبناء، فيغوصون فيها، لائذين بها، ومتجولين في أرجائها ثم يطيرون مبتعدين عنها، وما يلبثون أن يعودوا إليها.

يحملن ما يحملن، ويمشين مستقيمات. فضاؤهن الضحكات، والخطى الرصينة والصرخات الحادة. وهن يمشين. كأن كل شيء أمامهن. ويتقدمن. فيبقى العالم والطريق خلفهن، يلثمان آثارهن، ثم يلحقان بهن.

هن أول من يستيقظ في الفجر، قبل بكاء الرضيع الجائع. فإذا بكى أخرجن أحد ثدييْهن وجعلن حلمته في فم الرضيع. وقد ترى الرضع معلقين إلى صدورهن يطعمون ما

فيها من حليب. وهن عنهم منشغلات بما يغسلن من ثياب وأوان، أو بمن يحادثن من صديقاتهن. وقد تفلت الحلمة من فم الرضيع، فتعيدها الأم إليه.

والأمهات أول من يستيقظ في البيت. فلا يعلم النائمون من أفراده متى أوقدن النار ولا متى غسلن أيديهن. فإذا استيقظوا وجدوا الخبز مهيئاً والغسيل قد علّق على الحبال ليجف.

وأنت تسمع أصواتهن المتعالية، وضحكاتهن، تنبعث من أرجاء البيت، ومن فوق السطوح، وفي الحوانيت والأزقة. منذ الصباح الباكر وإلى آخر الليل.

وأما غضبهن فحاد بما لا يقاس : «انظر أي طفل أنت! ... ذات يوم ستلعن من ولدتك!...». إن هذه الكلمات لا تكاد تنقطع في الرشيدية، تسمعها من أعلى المخيم وأسفله.

وأحياناً ينعمن بالقيلولة، ومعهن الأطفال الصغار.

فإذا الرشيدية قد عمها سكون، وصارت كأنها أقفرت من ساكنيها.

وكذلك ينزلن الأقباء والمخابئ في أيام القصف.

هل تتصور الرشيدية بدون أمهات؟

إنهن يراقبن الأطفال. وقد يعنفنهن : «من أين جئت؟ إلى أين تمضي؟»، «عمن تبحث؟». ويسخرن من المرأة قليلة النسل : «هل تسمين خمسة أطفال أو ستة أسرة!».

وهن حريصات على أطفالهن. لكن الموت يتخطفهم في يسر وسهولة.

وفي صباح العيد من يوليوز 1982 تظاهرت النساء في كل المخيمات، لم تثنهن الدّبابات ولا الجنود الصهاينة. فكن يصحن : «أعيدوا إلينا أزواجنا!».

فاضطر الجنود إلى تفريقهن مستعملين في ذلك الغاز المسيل للدموع.

الرجال ... والأبناء، والأزواج، والآباء ... في تل الزعتر.

وإذن، فقد حملن فلسطين وحدهن، في كل الأيام، طيلة ثمانية شهور، في المخيمات التي سكنها الجنود الإسرائيليون.

فمن أين جئن بالمال والطعام؟

لقد خرجن بحثاً عنهما.

خرجن عن مألوف عيشهن.

هن اللآئي لم يكن يغادرن بيوتهن لأكثر من يوم. فعهدن بأطفالهن إلى كُبرى بناتهن أو إلى الجيران. ومضين إلى بيروت أو إلى أبعد من بيروت. وكن يلاقين، أحياناً، صنوف الإهانات والمضايقات، مما يُستهدَفن له من تفتيش الصهاينة وتفتيش الكتائب. وقد يطلّب منهن أن يخلعن ثيابهن. وكثيراً ما يطلب منهن ذلك.

«ماذا كن يخفين؟».

لا شيء. إنهن لا يخفين شيئاً. ولا يكذبن.

وإن الجنود الصهاينة في المخيم في عمر أبنائهم الموتى، أو المسجونين، أو المنفيين. وقد جاء الجنود الصهاينة من الجليل مثلهن.

وربما كانوا في مثل جمال أبنائهم...

إنهم هنا، في الرشيدية.

وأما أبناؤهم فلم يعد لهم وجود فيها. وما عادوا يذرعونها جيئة وذهاباً.

لقد خلت الشوارع من الفدائيين.

وأعيد بناء البيوت بالإسمنت، ولم تعد تزيِّن حيطانها صورة أبي عمار، ولا صورة فلسطين. ولا عدت ترى في ركن منها كلاشنيكوف، أو ترى فيها مسدساً قد علِّق في حزام، أو ترى من الفلسطينيين من يرتدي زياً عسكرياً.

لكن ما زالت الأمهات على دأبهن في إعداد الخبز وغسل الأواني في الصباح الباكر. حتى قبل أن يستيقظ الجنود الصهاينة. يقيناً.

لقد تغير كل شيء. لكنهن ما زلن على دأبهن في العمل. ولو أن الرجال عادوا إلى بيوتهم لكُنَّ قد أنجبن أطفالاً جدداً. ونعماً يفعلن.

ذراعان من أجل بيير

بيروت 30-9-82

الذراعان ع ضوان ينبتان مبكراً. وربما كانا أول ما ينبت عند الجنين مع تكوُّن جمجمته.

ماذا أقول؟

«ستكون لنا حدائق أفكارنا القوية، وستظل قلوبنا ظامئة للحب، بعد ذلك».

هل تذكر؟

أن أحبك أكثر من أي شيء عداك يعني أن أكون متعبة من غيابك، تعباً يطال جميع أعضائي.

ولدينا ها هنا بيت كما نحب أن يكون البيت، نلوذ به إذا حتم الفرار.

ويثقل أجفاني النعاس. ويأخذ بنفسي حنين إلى الكتابة. وإليك. إن ذراعيَّ قد نبتتا لي مبكراً. وربما كان أول ما نبتتا مع تكون جمجمتي. ومنذئذ أستعد لمعانقتك. إن معانقتك لتحقق نيتي أن أحبّك.

وإنني لمجهدة حتى النخاع.

***

يشارف الصيف على نهايته. وكان بيتنا مكتظاً بالزائرين. وكنت أُحب عندما نسير ليلاً، في شارع الفاكهاني ... كنا فيه وحيدين.

ليست حاجتي إلى كل هذه العزلة، بل حاجتي إلى الهدوء والتأني.

كنت أريد للّحظة أن تتوقف، وللتاريخ أن يتمهَّل قليلاً. بما يتسع لمداعبتك من جبينك إلى أخمص قدمك. مداعبة.

هل حتم أن أكون وحيدة بمعية هؤلاء الأصدقاء العزيزين عليَّ في رأسي. ويظل الورق أمام عينيَّ أبيض؟

قال لي محمود إنهم أعادوا بناء المخيمات بالإسمنت.

فكيف صارت تبدو الرشيدية الآن؟

هل اتفق لك أن كنت وحيداً، بعيداً عن أحبتك، ولا سبيل لك إلى لقائهم، ودام ذلك شهوراً؟

***

يعلم الله كم انقضى من شهور، لكني لم أنتبه لمرور الوقت.

انتبهت فقط إلى أنه كان، وأنه لم يعد يوجد ...

أعلم هذا. وأفكر فيه.

فكيف سيفعل الأصدقاء؟

ومن أين لي القوة لأعيش؟

بعضهم كبر في الثورة، وكأنها كانت ترضعهم منذ ولادتهم.

وبعضهم غادر المدرسة مبكراً، ليصبحوا جنوداً.

لقد عم الخواء.

وعما قريب لن يعود لأي مكتب من مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية، بكل تأكيد وجود في أي مكان من العالم.

تمر الأيام والشهور، دون أن أنتبه إليها، ضائعة في بيروت أو في الرشيدية.

ولقد قلت، في نفسي، خلال هذه الحرب، إنني لو عشت بعدها، فإنني لن أتحمل بعدئذ، أية رداءة؛ لا في الحياة، ولا في العلاقات الانسانية.

وإلا كان معنى ذلك أن أخون.

ها نحن. لقد انتهت هذه الحرب.

وبدأت حرب أخرى، منذ شهور (سنوات؟ ... سنتين! ...).

وما زال النصر بعيداً!...

الحمد لله أن عدتُ إلى الرشيدية .

... لأرى حسناً...

جواز سفر إلى فلسطين

فلسطين؟

عند التقاء الجلد بالرصاصة.

وفقط.

هنا.

والآن.

كانت فرنسية. وماتت فوق شاطئ لبناني في فرقة فدائيين فلسطينيين : «عن حب»، كما قالت أسرتها .

لقد كتبت فرونسواز : «إنني ذاهبة إلى الموت!»

على الصورة الملونة — الوحيدة التي تملكها أسرة فرونسوار عنها في لبنان — نرى فتاة جميلة في مقتبل العمر، تسير وحيدة على شاطئ. كستنائية الشعر، قد ارتدت تنورة تزينها ورود، وتبدو رقيقة القوام. بل إنها لتبدو دون سنواتها الأربع والثلاثين. إنها فتاة رومانسية، تبدو مغتبطة، في براءة، بالشمس، والبحر. وفي صبيحة يوم الأحد الماضي لقيت فرونسواز كيستمان حتفها، في عرض شاطئ آخر لبناني، في قبالة صيدا، على بعد 45 كيلومتراً إلى الجنوب من بيروت. وكانت، وقتئذ، ترتدي، بدل تنورتها المتوردة، بدلة القتال. وكانت تستقل، وأربعة «فدائيين» آخرين، زورقاً هوائياً، في سبيلهم لتنفيذ عملية فوق الأراضي الإسرائيلية، فرأت، فجأة، نوّارات السفينة الحربية الإسرائيلية تمزق العتمة وتصعق بأضوائها زورق الكاوتشوك.

ولقد ظلت فرونسواز تحاول، طيلة أربعين دقيقة، أن تفلت من طلقات الرشاشات الإسرائيلية الثقيلة، في هجوم مضاد، لبلوغ الزورق السريع. فأيقنت أنها لن ترى طلوع الشمس. ولقد سقطت واثنيْن من رفاقها قتلى تحت الطلقات المتواترة. لقد وهبت فرونسواز كيستمان، الممرضة الفرنسية الصغيرة، حياتها — كما تمنت دائماً — للقضية الفلسطينية التي اعتنقتها، بعد أن عاشت رغبتها إلى النهاية.

وفي هذا الصباح، طلبت والدتها إلى وزير الشؤون الخارجية، في مقر الوزارة، في ممشى أورساي، أن يبذل كل ما في وسعه ليمكّنها من السفر إلى بيروت لحضور مراسيم

دفن ابنتها. ولقد أمضت إنيس كيستمان ثمانية أيام في جهد للحصول على تأشيرة لدخول لبنان، من دون أن تفلح.

وقالت لي في أسباب ذلك : «لقد أجابني موظفو السفارة أنهم ينتظرون ترخيص إدارة الأمن في بيروت».

وكانت تدخن سجائر گولواز، سيجارة تلو أخرى. لقد باءت كل جهودها بالفشل. فعادت إلى باريس. وهي تقيم منذ أسبوع في شقة زوج ابنتها السابق، جون لوي جوانو الواقعة في الطابق الرابع من عمارة مشتركة، في ساڤين، على بعد بضعة كيلومترات من شمال مارسيليا، تقضي سحابة يومها في المهاتفة. وهي لم تقبل بمحادثتي إلا لتضيء لي المصير الذي اختارته فرونسواز، ولتفسر لي كنه التزامها، حتى الموت، بمعركة في مكان ناء «معركة لم تكن فيها واهمة». وقالت كذلك :

«— لقد ترعرعت فرونسواز في أسرة من المقاومين الشيوعيين، فأثر هذا الجو على اختياراتها، بعدئذ، من دون أن نوجهها إلى ما ارتضت لنفسها، أو نفرض عليها آراءنا.

وكان والد فرونسواز — هنري كيستمان (وهو اسم ذو أصول فلندرية — المتوفى مناضلاً شيوعياً، ومقاوماً منذ نعومة أظفاره، ولقد رأس تحرير صحيفة الشباب الشيوعي «الطليعة»* ، ثم صحيفة «أخبار»** الصادرة في مدينة بوردو. وفي عام 1942، فر رفقة عشرين من رفاقه من سجن كومپيين، وكان من بين الفارين معه لوي طوري؛ شقيق موريس دو طوري، الذي تم القبض عليه، وأُعدِم رمياً بالرصاص.

لا نـراجـُع

بدا لي جون لوي جوانو، البالغ من العمر خمساً وثلاثين، مجهداً، صافي العينين. ولقد أخبر ابنيه پيير ولورون بموت والدتهما. وقال لي إن فرونسواز كانت فخورة جداً بأسلافها النقابيين الثوريين. ثم أضاف :

« — كان والد جدها نجاراً مختصاً في صنع علب البيان. ولقد أسس أول نقابة لعمال الخشب. وواصل جدُّها تلك المهنة، وواصل المعركة الأدلوجية. ولقد كانت فرونسواز متطلبة جداً. وبلغ بها شغفها بهذا التقليد الأسري إلى تعلم صناعة الأثاث : فقد كانت لا تتلكأ في فعل شيء إن هي اقتنعت بفعله.

*- *L'Avant-garde*

**- *Nouvelles*

وبينما كانت تدرس لتصبح سكرتيرة طبية، في عام 1968، منهية دراستها الثانوية في ليسي موريس رافيلو في باريس، إذ عصفت بها أحداث ماي. فإذا هي تنخرط، يومئذ، في الشبيبة الشيوعية. ثم ما لبثت أن غادرتها. وفي عام 1969، غيرت رأيها، وقررت أن تصبح ممرضة، فسافرت إلى مارسيليا، حيث التقت جون لوي جوانو، المفتش والمناضل الشيوعي وتزوجت منه.

وقال لي، كذلك، إنها كانت تجد من نفسها ميلاً إلى الاهتمام بحضارات أخرى وشعوب أخرى، وثقافات أخرى؛ كالمكسيك، وجزر الباك، وكوبا... لقد كانت مناهضة للغرب عنيفة. ولقد ناضلنا معاً من أجل فلسطين والثورة الفلسطينية، وكنا متفقين دائماً في أفكارنا في هذا الموضوع. وهي، وإن كانت قد انخرطت في معارك المجتمع الفرنسي، فقد كانت «من طينة عالمية». وكانت، مثلي، تعتقد أن في إمكاننا أن نجد من أنفسنا قرباً إلى شعب آخر غير الشعب الذي ننتمي إليه. ولقد تأثرت كثيراً بأعمالنا حول أندريه مارتي ثائرِ بحرِ الشمال، ورئيس الألوية الدولية في فترة الحرب الإسبانية.

وكان الحدث الذي حسم في انخراط فرونسواز في القضية الفلسطينية يتخذ شكل سفر ذي أهداف عرقية : فقد اختارت فرونسواز كيستمان في عام 1980، أن تدرس الأطباء القدامى. فبدأت بـ بورگون. ثم التحقت بجنوب لبنان، ثم بمخيم الرشيدية، في مطلع عام 1981.

وقال جون لوي إنها حاولت، بعد عودتها إلى فرنسا، أن تخرِج جميع النصوص التي كتبتها في تجربتها، إلى النور. ولقد ساءها كثيراً ما قوبلت به هذه الكتابات من استخفاف الناشرين وعدم اكتراثهم، وربما أفقدها ذلك صوابها أحياناً.

وكأننا بفرونسواز حفيدة بطلة أنوي، في رواية «المتوحشة» *، التي كانت تدفع عنها كل شعور بالسعادة ما دام في الأرض كلب ضال. وكذلك كانت فرونسواز؛ فهي لم تكن تتصور حياة أخرى لا تبذلها في سبيل المقاتلين، والنساء والأطفال الفلسطينيين، الذين شغُفت بهم حباً. وفي شهر يناير من عام 1982 عادت إلى لبنان، مصطحبة معها بيير؛ أصغر ابنيها. فكرست وقتها للعمل بالتمريض تحت لواء الهلال الأحمر الفلسطيني. وكتبت مقالين عن حياة الشعب الذي اصطفته، ومعاناته، ونشرتهما في مجلة « إفريقيا - آسيا» **. ومنذئذ أصبحت تعتبر نفسها فلسطينية، حزبها الوحيد منظمة التحرير

* - *La sauvage*
** - *Afrique- Asie*

الفلسطينية، بقيادة ياسر عرفات. وفي ربيع نفس السنة، عاشت حصار بيروت وقصفَ الطيران الإسرائيلي. ثم عادت إلى فرنسا في مطلع تلك السنة، فأقامت فيها وقتاً قصيراً، ثم غادرتها في سفرها الأخير في بداية شهر يونيو.

ومنذئذ، ساءت أحوال البريد، فلم يعد يصل والدةَ فرونسواز وطليقها جون لوي غير نزر قليل من رسائلها. لكنها كانت رسائل واضحة ومؤثرة، تفيد أن فرونسواز ما عادت مجرد ممرضة، بل صارت مقاتلة. فقد اعترفت في رسالة منها إلى جون لوي بتاريخ 7 يوليوز، قائلة : «صرت، الآن، موقنة أني في سبيلي إلى الموت. وإني لأعرف ذلك، وأرغب فيه. وإن تلك لأجمل ميتة. وكذلك هي هذه الحياة. وإني لأحب أن أموت».

ثم تصرخ، بعدئذ : «إنني أكتب بالدم، فليسمع العالم! ». ثم تختم رسالتها، قائلة : «إذا أراد الله موتي، فسيجدني مفعمة حياة في هذه اللحظة!».

وفي فجر يوم الأحد الماضي، شاركت فرونسواز في عملية للدخول إلى الأراضي الإسرائيلية. وسرعان ما أصبحت أول «فدائية» فرنسية تستشهد في سبيل فلسطين.

ولقد أقسم جون لوي أن غير فرونسواز كثيرين هم على استعداد لحمل الكلاشنيكوف! والموت، مثلها، وفاء لحبها الغامر...

ورأيت، فوق طاولة المطبخ، الرسومات التي كانت تبعثها فرونسواز إلى ابنيها والنصوص التي ينوي جون لوي نشرها «ما أن يعرب ناشر شجاع عن قبوله نشرها». وفي الغرف وفي البهو أكداس من الكُتب، في شتى المواضيع، كانت فرونسواز قد التهمتها التهاماً، ثم تركتها حيث هي، لتنغمس في الفعل. وفي يوم الخميس، توقف الأساتذة العاملون في مركز معاجِل الكُهَرْيِب **مارسيل كاشان** في سان أوّين؛ حيث تدرّس شقيقة فرونسواز الرسم الصناعي، عن العمل مدة ساعة ، احتراماً للفقيدة .

ومما كتبت فرونسواز كيستمان : «أمر آخر رائع تحقق في هذه الحرب؛ إنه التقاء أصدقاء الماضي»، حتى أولئك الذين يعيشون «في فرنسا الهادئة والناعسة».

فرونسوا ماطي

Journal du Dimanche

هــوامــش

1 - **حداد** (سعد حداد) : قائد لبناني تم فصله من الجيش اللبناني ومتابعته في القضاء العسكري بتهمة التمرد، لمطالبته، في 18 أبريل 1979، بدولة «لبنان الحر».

ويتولى حداد وميليشيته، التي تسلحها إسرائيل، وتدربها وتجهزها، مراقبة حزام حدودي يتراوح عرضه بين 10 و15 كيلومتراً في جنوب لبنان، تحت إمرة الجيش الإسرائيلي.

2 - **إضراب عام 1936 في فلسطين** : يمثل هذا الإضراب مرحلة بالغة الأهمية في نضال الشعب الفلسطيني.

أولا بمدته. فقد ابتدأ في أبريل 1936، واستمر ستة أشهر.

وثانياً بمضمونه. فقد كان، في جوهره، إضراباً سياسياً، موجهاً، في آن واحد، ضد الجور الذي طبع الانتداب البريطاني، وزرع الصهاينة للمستوطنات الجديدة، بما يحرم فلسطين من أراضيهم ووسائل بقائهم.

ولقد بلور ذلك الإضراب لدى الفلسطينيين الحاجة العميقة إلى الاستقلال، وضرورة تكاثفهم من أجل البلوغ إليه.

انظر، في الموضوع، كتاب كزافيي بارون : *Les Palistiniens - un peuple*، نشر Le Sy-morone ، 1984، ص ص 65، و66 و89.

وكتاب ألان گريش ودومينيك ڤيدال : *Proche - Orient une guerre de cent ans* ، نشر Sociales، ص 102.

وكتاب إلياس سنبر : *Palestine 1948 - l'Expulsion*، نشر Les Livres de la revue d'Etudes Palestiniennes ، ض ض 57 إلى 66 .

3 - **دير الياسين** : اسم قرية عربية تقع غير بعيد عن القدس.

ولقد أصبح هذا الاسم، بفعل الأحداث التي كان مسرحاً لها، في 9 و 10 أبريل 1948، رمزاً لمذبحة شنيعة، لقي فيها 350 من الشيوخ، والأطفال والرجال حتفهم.

ولقد كانت مذبحة دير ياسين مذبحة مهولة جرى الإعداد لها ببرود، وتم تنظيمها وتنفيذها بهدف إرهاب السكان الفلسطينيين لإجبارهم على ترك أراضيهم، تحت طائلة التصفية، على غرار ما حدث لسكان دير ياسين.

4 - **مكتب الأمم المتحدة لغوث اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأوسط** : أحدث هذا المكتب في دجنبر 1949 بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة (القرار 302 بتاريخ 8\12\49).

5 - **جيش تحرير فلسطين** : أنشئ في شتنبر 1964 بمساعدة وموافقة من البلدان العربية.

6 - **الكتائب** : هم الكتائبيون. ولقد تأسس حزب الكتائب اللبناني في عام 1936 على يد پيير جميل، والد بشير وأمين جميل. ويستمد هذا الحزب أكثر مبادئه من الفاشية، كما يأخذ بتنظيماتها. وتمثل ميليشياته المسلحة (الكتائب) الجناح الأكثر تصلباً بين المسيحيين المارونيين.

انظر، في الموضوع، كتاب ألان گريش ودومينيك ڤيدال : *Proche-Orient une guerre de cent ans* ، نشر Sociales، ص ص 133 و134

7 - **الاتحاد العام للنساء الفلسطينيات** : حركة تعتبر مكوناً من مكونات منظمة التحرير الفلسطينية. يتمثل دورها في تعبئة النساء الفلسطينيات وتسيير القطاعات الاجتماعية.

8 - **تل الزعتر** : هو (أو كان على الأصح) مخيم للاجئين الفلسطينيين في ضاحية بيروت الشرقية. وقد كان يقطنه حوالي 000 35 من اللاجئين.

وكانت هذه الساكنة ترتفع ارتفاعاً مفاجئاً بقدوم لاجئي المخيمات الفلسطينية في جنوب لبنان، الفارين من القصف الإسرائيلي، أو من تعسفات ميليشيات حداد (وهو جيش من المرتزقة، تتولى إسرائيل تدريبهم وتمويلهم).

ولقد قامت في عام 1975-1976 مواجهات عنيفة (عرِفت باسم «الحرب الأهلية») في لبنان، بين القوى التقدمية والمحافظين والكتائب.

ولقد حاول الفلسطينيون، في البداية، أن يظلوا في منأى عن ذلك النزاع. وذلك ما حث عليه ياسر عرفات في رسالته التي أذاعتها التلفزة اللبنانية في 25 يونيو 1975، والتي ألح فيها عرفات على أن المعركة الحقيقية هي التي تدور رحاها على أرض فلسطين، وأن الثورة الفلسطينية لن تجني شيئاً من معركة هامشية ستحيد بها عن طريقها الحقيقية.

غير أن حرص الفلسطينيين على الدفاع عن أنفسهم وتضامنَهم مع القوى التقدمية اللبنانية سيجعلانهم يصبحون، شيئاً فشيئاً، طرفاً في ذلك الصراع.

ولقد استنجدت القوى المسيحية المارونية بسورية من أجل وقف زحف القوى التقدمية. ولذلك تدخلت سوريا تدخلاً عنيفاً في يونيو 1976.

وقامت بين سورية والفلسطينيين في المخيم الفلسطيني معركة من أعنف معارك الحرب اللبنانية.

ولقد حوصر مقاتلو تل الزعتر، ومنعت عنهم كل أنواع الإمدادات، بفعل القصف المتواصل. كما حرِموا الماء والطعام والكهرباء. وانتهى ذلك الحصار، الذي دام 52 يوما باستسلام الفلسطينيين.

ولقد تمت تصفية جميع الأحياء، ممن لم يفلحوا في الهرب، أو يُجلَوا تحت إشراف الهلال الأحمر، تصفية تامة.

ويظل لتل الزعتر في الذاكرة الفلسطينية ذكرى في مثل قتامة ذكرى نزوحهم إلى الأردن ومذابح صبرا وشاتيلا، وإيلامها.

انظر، في الموضوع، كتاب كزافيي بارون : *Les Palestiniens*، نشر Le Sycomore، 1984، صص 374 إلى 376.

9- **قوة الأمم المتحدة للتدخل في لبنان** : تم وضعها في جنوب لبنان في مارس 1978.

ثم أصبح جيش لبنان الجنوبي بقيادة أنطوان لحْد، بعدئذ (وهو جيش تتولى إسرائيل كذلك، تدريبه وتجهيزه حالياً) يؤدي نفس الدور الذي كانت تؤديه ميليشيات حداد.

10- **نعيم خضير** : قائد فلسطيني، كان ممثلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية في بلجيكا. تم اغتياله في بروكسيل في 1 يونيو 1981.

ولقد نفذ هذه المذبحة المجموعتان الإرهابيتان الصهيونيتان شتيرن وإيرگون. وظهرت فيها علامات المجموعة الثانية أكثر من الأولى...

انظر، في الموضوع، كتاب كزافيي بارون : *Les Palestiniens - un peuple*، صص 389-390. والشهادات العيانية التي نشرها إلياس سنبر في كتابه - *Palestine 1948 l'Expulsion* ، ص ص 167 إلى 176.

11- **عز الدين القسام** : «شهيد أمته وإيمانه»، «أول مقاتل فلسطيني في سبيل الحرية».

ولد في أسرة فلاحين. وكان متديناً متنوراً. عارض قوات الانتداب (بداية من عام 1920 ضد إقامة الانتداب الفرنسي على سورية، مما أدى إلى الحكم عليه بالإعدام من لدن محكمة فرنسية).

قدم في عام 1921 إلى حيفا، في فلسطين. وأمضى خمسة عشر عاماً يعمل من أجل خلق قوة ثورية، كان يعتبرها هي وحدها القادرة على مواجهة قوات الانتداب والتصدي للخطر الصهيوني.

ولقد سعى إلى الحصول على دعم الطبقات الفقيرة (من عمال، وفلاحين محرومين وحرفيين صغار) ليجد فيهم، أو يصنع منهم، الإطارات اللازمة للثورة. وكانت وفاته وثلاثة من رجاله، في 19 نونبر 1935، أثناء اشتباكات عنيفة مع الجنود البريطانيين في قرية جنين.

لكن لم يتوقف تأثير القسام بتوقف حياته. فلقد أعطى إشارة الانطلاق للأحداث التي ستتوالى بعدئذ، وتتوج بشن إضراب عام 1936.

انظر، في الموضوع، كتاب كزافيي بارون *Les Palestiniens - un peuple*، ص ص 31 و61 إلى 63.

وكتاب ألان گريش ودومينيك ڤيدال : *Proche - Orient - une guerre de cent ans* ص 102.

12- **أبو علي إياد** : مقاتل فلسطيني، ولد في قلقيلية، عام 134.

وسيصبح أحد كبار قادة جيوش فتح. ولقد لقي حتفه في المعارك التي دارت في الأردن عام 170، من جراحه البليغة. وقيل إنه تعرض لتعذيب وحشي أدى به إلى الموت.

ثم تحول أبو إياد، بعد استشهاده، إلى ما يشبه الأسطورة. ولقد تأسس التنظيم السري المعروف باسم «شتنبر الأسود» انتقاماً لمقتل أبي إياد وبقية الفدائيين الذين تمت تصفيتهم في الأردن.

انظر، في الموضوع، كتاب كزافيي بارون : *Les Palestiniens - un peuple*، ص ص 234 و265 و266.

13 ـ **أنصار** : مخيم اعتقال للسجناء الفلسطينيين واللبنانيين. فتحته إسرائيل في عام 1982 عند اجتياحها لبنان. وقد كان هذا المخيم يتميز بأقسى ظروف الاعتقال. وكان يستقبل إلى حدود 10 000 من المعتقلين مجتمعين. ولقد تم إغلاقه في ربيع عام 1985 (وتم إطلاق سراح سجنائه، لكن تم، كذلك، ترحيل 1 500 من معتقليه إلى إسرائيل ترحيلاً «غير قانوني»).

14 ـ **أبو شرار** : هو ماجد أبو شرار. كان مسؤولاً عن الإعلام في منظمة التحرير الفلسطينية. قتِل من قنبلة وُضِعَتْ في غرفته في أحد الفنادق في مدينة روما في 9 أكتوبر 1981.

15 ـ **المرابطون** : ميليشيات لائكية لبنانية ذات نزوع ناصري.

فهــــرس

صـــدر للمتـــرجـــم

«خريف الواحد» (شعر)

مطبعة قرطبة، الدارالبيضاء، 1991

«الكتابة والقراءة» (ترجمة،) رولان بارث

مطبعة تانسيفت، مراكش، 1991

«المغامرة السيميولوجية» (ترجمة)، رولان بارث

مطبعة تينمل، مراكش، 1992

«المسوخ» (ترجمة،) قصاصون فرنسيون محدثون

مطبعة تينمل، مراكش، 1992

«راهن الشعرية» (ترجمة،) هنري ميشونيك

تواصلات، مراكش، 1993

«الفيس – تارخ الدم) (ترجمة،) رشيد بوجدرة

تواصلات، مراكش، 1994

« أسئلة الترجمة»

سلسلة منشورات شراع ، عدد 55 ، 1999

«الباشا الگلاوي»

أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1999

المــوت
في سبيل فلسطين

"كانت اللقالق تحلق في سماء سوريا... فتأخذ بنفسي رغبة الكتابة ... وكلما هممت بذلك وجدت ذاكرتي مثقلة جثثاً ... تحت نير الاحتلال الصهيوني، ومثقلة وجوهاً شوهتها الحرائق. فيتراءى لي منير الذي مات، وستي التي ماتت، وحسن الذي قيِّد وضرب، وعزمي الذي مات، وجلال الذي في السجن، وكل الرجال الآخرين الذين عذِّبوا بالكهرباء. وتلوح لي الرشيدية؛ مدينتنا التي دكَّتْ. وثكالى صبرا وشاتيلا النائحات".

إنها نظرة ممرضة إلى مأساة لبنان.

"يبدو لي أنني أتجه نحو الموت المحقق. بل إنني لأعلم ذلك علم اليقين. وأطلبه. ولسوف تكون تلك أجمل ميتة، مثلما هي حياتي ها هنا... ولو شاء الله أن يقبضني إليه فسأكون أكثر حياة في هذه اللحظة".

إنها صرخة الثائرة ذات الأربعة والثلاثين ربيعاً، التي استُشهدَتْ في مجموعة فدائيين من المقاومة الفلسطينية، في يوم 23 شتنبر من عام 1984 في صيدا.

وبين هذه الرؤية وهذا العمل التحرري، يتموقع كتاب فرونسواز كيستمان، أو، بالأحرى، قصيدة حياتها.

لقد انقشع الكذب وظهرت حقيقة الإرهاب الإسرائيلي. حقيقة عاشتها، يوماً بيوم، هذه الفرنسية التي قدمت تبغي تضميد الجراح، فأدركتْ أنه لن يجديها تضميدها فتيلاً، ما لم تشارك في مقاومة فاعليها.

ومن النشيج إلى الألم المشترك، إلى صيحة الغضب، وضحكة الأمل، تحمل فرونسواز كيستمان في قلبها كل هذه الآلام، وكل هذا الغضب؛ آلام شعب، هو الشعب الفلسطيني، وغضبه وآماله.

روجي گارودي




ISBN 9981-25-217-4

9 789981 252172